رواية

جولا كرودي

جائزة السيّدات

ترجمة: نافع معلا

مكتبة

جائزة السيّدات

روايــة

اسم المؤلف: جولا كرودي
عنوان الكتاب: جائزة السيّدات
ترجمة: نافع معلا
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: **2021**

Author: **Krúdy Gyula**
Title: **Asszonyságok Dija**
Translated by: **Nafeh Maalla**
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**
P.C.: **Al–Mada**
First Edition: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al–Mada

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

مكتبة
t.me/soramnqraa
11 5 2023

جولا كرودي

مكتبة 1156
t.me/soramnqraa

جائزة السيّدات

ترجمة : نافع معلا

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

وفيه رجل مسالم يقاوم.

الشيطان الذي يتسيّد فوق العالم بأسره، جاء ذات يوم إلى بست(*)، ووجد مخبأً في منزل متعهد دفن الموتى.

وبعد الظهيرة لاحظ المتعهد أن شيئاً في البيت ليس على ما يرام. بدأت مفروشات المنزل تبدي ممانعة؛ فلم يطاوعه الكرسي الذي حاول أن يضعه في مكانه المعتاد منذ خمسة عشر عاماً، ورفضت أقفال الخزائن والدروج أن تقوم بالخدمة الموكلة إليها. واشرأبّ جانب النافذة الكرسيُّ الصغير (الذي اعتادت زوجة المتعهد طوال حياتها، أن تمدّد عليه رجليها، عندما كان لها رجلان) وتسرح ذابلة في فناء الأزهار الكئيب وجدرانه الحزينة وسياجه المهجور. اشرأبّ الكرسي كما يثب على قوائمه كلب كان مستلقياً، ويشرئبّ على ساقي عابر السبيل. وتدلّت ستائر الدانتيل القديمة بلا معنى على النوافذ، وألقت ظلّاً شبحيّاً في الغرفة. كان ظلّاً أشبه بظلّ دخان، أو ظلّ رياح تهبّ فوق الحقول. ولكن لا أثر هنا لدخان أو رياح. الجهامة التي خيّمت على المنزل في ذلك الوقت الباكر من فترة العصر، أربكت الببغاء الذي وضعه متعهد الدفن في قفص، وكان فخوراً بمعلوماته الإنكليزية. أول ما فعله الببغاء في هذه الجهامة أنه راح يطلق الشتائم باللغة الإنكليزية، ثم أخذ يقلّد بكاء الأطفال، ولاحقاً، وسط ذهول المتعهد، راح يتكلم باللغة المجرية: نطق أسماء كان قد سمعها في السابق، وحفظها، ذكر الببغاء أسماء

---

*. بست: القسم الشرقي من العاصمة بودا - بست التي يفصلها نهر الدانوب إلى شطرين - المترجم

خادمات حافيات سابقات، وهو ينفش ريشه، ويؤرجح نفسه باضطراب يمنةً ويسرةً. ذكر اسم بيرتا، واسم أولغا اللتين مثلتا سابقاً الجنس النسائي في منزل المتعهد، وكانتا تسرحان شعرهما الطويل وتجلسان حول الطاولة، وتضربان وتنفضان الوسادة قبل النوم؛ امرأتان كانت تنانيرهما المتيّمة في الخزانة، تحتفظ برائحة نسائية نوعية، رائحة الباذنجان والطحين، وعبير المسك. أنذر متعهد الدفن الببغاء أنه سيصفعه، ونظر بارتباك إلى عقرب ساعته الذي راحت يد خفيّة تديره إلى الأمام. لم يبقَ لديه سوى قليل من الوقت ليبدّل ملابسه ويذهب إلى المآتم وقت العصر.

لقد تعرّف يانوش سيفرا- كان هذا اسم متعهد الدفن- خلال خمس وعشرين سنة على الموت، فدفن ما يقرب من عشرة آلاف بستيّ، من رجال، وأطفال ونساء وعجزة، فليس البكاء والولولة، واليأس بأشياء جديدة عليه، فكان حريّاً به أن يكتسب نتيجة لذلك سكينة وهدوءاً أمام طوارئ الحياة المختلفة. وعلى الرغم من كونه ليس ثاقب الذهن، لكنه تعلّم من عمله الطويل أن ممرّاً رفيعاً يفصل ما بين الحياة والموت، وبناءً عليه فمن غير المجدي إذن الاكتراث بدقائق الحياة. كان رجلاً محترماً جدّاً، سدّد ضرائبه بدقة، ولا ديون عليه، وكان فاعل خير، محسناً إلى الفقراء، ولا آثام كبرى تثقل ضميره، وكان يمجّ سيجاره بطمأنينة لا مثيل لها في سائر أنحاء بودابست، ويبقى جالساً على كرسيّه ساعات بطولها دونما حراك، حتى إنه نادراً ما أطلّ عبر النافذة، وكانت تجارته مستقرة لا غبار عليها، كتجارة الكهنة، والقابلات، والأطباء، ولم تسبّب له حالة الطقس إزعاجاً، ولم تضغط عليه الأعباء، ولم يكترث إلّا قليلاً باليوم الآخر، لأنه لا يؤمن بوجوده، وشرب النبيذ باعتدال، ونام باكراً، ولم يعانِ من أرق. ولم يمرض إن لم تخنه الذاكرة قط، وقصد دار المسرح مرة في كلّ شهر، ليشاهد «حماقة» ما لا يلبث أن ينساها، ولم تهمّه السياسة، ولم يكن انتقائيّاً طوال حياته، ولم تراوده رغبة في طموح، فمارس حياته بهدوء، وتؤدة، ولم يفطن أو يخطر له أن زملاءه في الكار، منظّمي المآتم الآخرين، كانوا يحيطونه باحترام معين، ويكنّون له التقدير. عاش كأيّ مواطن سيخصّونه بالعطف في شيخوخته، ويرافقونه مغموراً بالاحترام إلى مثواه الأخير، وسوف تتعهد دفنه مؤسسة سيبروس لدفن الموتى.

في هذا اليوم عاد يانوش سيفرا إلى منزله في المساء قادماً من المقابر. (كان له عمل حتى في المقبرة اليهودية، حيث اعتاد تبادل الأفكار مع الوصيّ حول قضايا الغلاء العام). خلع ثوبه الأسود، وأغلق على محفظة نقوده في الخزانة المعدنية، وانتعل صندلاً، واستراح على الأريكة. انتظر بأناة العشاء الذي أعدّته صاحبة المنزل على مهل، وراحت تفرش المائدة بتثاقل وهي تكلّم الآنية. حين استقر سيفرا (الذي كان رجلاً ممتلئ الجسم، رزيناً في حوالي الخمسين من عمره) حول المائدة، راح يمضي الوقت بتغميس شرائح الخبز بالملح، والفلفل، وبمسح أدوات الطعام بطرف مفرش الطاولة، ثم عقد منديل المائدة، وشكا من ضعف إنارة المصباح؛ لا بدّ أن صاحبة المنزل لم تقم بمسح... في هذه الأثناء تسلّل الشيطان إلى الغرفة.

حتى يانوش سيفرا لم يشاهد الشيطان الذي لم ترَه عين بشرية إلى هذه اللحظة. لم يلاحظ متعهد المآتم سوى ظلّه الذي أُلقي فجأة على الغرفة، على الطاولة البيضاء، على الفانوس، على الصحن. لم يكن هذا الظلّ يشبه ظلّ ستائر الدانتيل عند وقت العصر، ولا يشبه حتى ظلّ الموتى المتميز، الذي يعملونه هم غامضاً، أشوه، بلا حراك على غطاء وجه الميت وعلى الوسادة الحريرية البيضاء تحت الرأس. هذه الجباه المائلة المنزلقة إلى الوراء، والأنوف الملتوية المرتفعة عالياً، الذقون الوحيدة التي بلا أصحاب، الآذان النامية، الشوارب القنّبية الشعثاء، اللحى التي صارت غريبة، هذه كلّها كان المتعهد يعرفها جيداً، ويعرف ظلّها الملقى على بطانة النعش. لم يصبه الذعر من العيون الصلبة التي نسيت وتركت مفتوحة، ولا حتى من العيون المغلقة باستنكاف نهائي، وباحتقار أبدي. الرموش هاربة، لم يبقَ سوى ظلّها على جدار الجفن المزرقّ.

مكتبة

لكن هذا الظلّ كان مخالفاً لشتى الظلال التي شاهدها يوماً.

كان مظلماً لا شكل له، كحفار القبور عند الغروب الشتائي في أسفل القبر المحفور. كان بلا جسد كبخار، ودخان الكرب والألم في الغرفة من حيث أخرجوا الميت. كان بلا رائحة كالريح التي تمزق ضفائر أشجار الصفصاف الحزينة. وكان لا يقبض كالحلم الذي يعيد جسد الرجل الراحل ودفأه إلى سرير الأرملة البارد. وكان مرعباً كمن ظنّوه ميتاً، وعاد من المقبرة وراح

يطوف بلا ضجة في البيت الذي صار فيه الغرباء يرتدون السراويل والتنانير الباقية هنا. لم يكن من الأموات، ولا من الأحياء. سُمع في ليلة شتائية صراخ جاء من البعيد، من جهة المقبرة عندما تلولب الأموات في عذاباتهم على شواهد القبور، وراحوا يصرخون عبثاً في الخلاء الأصم طلباً للعون.

- أتؤمن بالأشباح، سيد سيفرا؟ - سأل متعهد الدفن نفسه بصوت عالٍ كمعلم يسأل تلميذه.

- أنا لا أؤمن بالأشباح - أجاب نفسه - لأن الأشباح لا وجود لها.

صفق أحدهم النافذة في الغرفة المجاورة، وأطلقت الرياح في الشارع، قهقهة عالية.

نهض يانوش سيفرا من مكانه، وعقد يديه وراء ظهره، وعبر، بخطوات صغيرة إلى الجوار، ليرى بوجه باسم، إذا ما كانت الرياح قد أوقعت شيئاً. أوصد النافذة، سعل سعلة خفيفة، ثم عاد بارتياح إلى جانب أدوات المائدة، وقعقع على صحنِهِ بفراغ صبر، أو ربما من باب التسلية فقط.

- ماذا حلّ بالعشاء؟ سأل صاحبة المنزل العجوز.

لا، لم يشأ بأيّ شكل من الأشكال أن يلاحظ أن قاطناً جديداً قد انتقل إلى البيت. إن كان من جهته، فبوسع الضيف غير المسمى، أن يفعل ما يريد، ويتصرف كما يشاء، وهو بالطبع لن يقلق راحته أبداً. داعب عنق الببغاء بسبابته، وقدم له فطيرة محلّاة لقّمها في منقاره، ثم شدّ سلك الساعة الموسيقية، واستقر في أريكته، وراح - ماجّاً سيجاره الثالث من حصته اليومية، متعرّياً إلّا من قميصه الداخلي، عاقداً ذراعيه - يستمع إلى موسيقا رقصة الڤالس القديمة، الآتية من بين أطر الصور.

الفصل الثاني

وفيه يدفع الشيطانُ متعهدَ الدفن للانخراط في حفل الزفاف.

صاح الببغاء صباحاً:

- أوويي! الصباح!

استيقظ يانوش سيفرا مرتاحاً كعادته دائماً. فتح ككل صباح دفتر ملاحظاته الصغير، وعرف المعلومات الآتية. كان يوم أحد. عيد بطرس وبولس. عليه زيارة اثنين من الموتى، والقيام بإجراءات دفنهما.

الميت الأول: أرملة تدعى مدام كاروي كروز؛ كانت حالة غير مألوفة خلال سنوات عمله الطويلة.

كانت الأرملة، في ساعات الظهيرة من يوم أمس قد أرسلت إلى مكتبه تدعو متعهد الدفن لزيارتها. تناول يانوش سيفرا حقيبته السوداء التي أودع فيها «استمارات التسجيل»، وانطلق إلى المكان المحدّد. قطنت الأرملة في أحد أرجاء ضاحية فرنتس في طوق العاصمة، وهناك قامت الجارة التي حملت الرسالة، بإدخال يانوش سيفرا الجليل القدر إلى شقة معدمة كريهة الرائحة. استقبله أثاث تلك الضواحي الخارجية الذي لا رجاء منه، وحملقت الكراسي الضجرة، والنوافذ الخاملة في المتعهد ذي الثياب السوداء، الذي راح مستغرباً ينظر حوله بعينيه الخيّرتين.

جلست الأرملة على كرسي، متلفعة بمنديل، هزيلة، باهتة، منهارة القوى كصفصافة حزينة في فصل الشتاء.

- أين الميت؟ - سأل متعهد الدفن بعد أن طاف بعينيه من جديد.

- أنا هو، سيد سيفرا - أجابت الأرملة بصوت يكاد لا يسمع.

- لا تُجنّي.

- لا أُجنّ - قالت الأرملة بهدوء - أشعر بأنني سأموت بعد ساعة، لأني مريضة منذ مدة طويلة. قمت بالاعتراف، وقدمت الأضاحي، وسوّيت كافة شؤوني الأرضية، ولم يبقَ إلّا مأتمي. ولهذا استدعيتكم، سيد سيفرا، لنناقش المسألة بالتفصيل.

نظر متعهد الدفن حوله غير مصدق ما يسمع. لم يحدث أن ناقش ميتاً بأمر التكاليف قط. كلّ فواتير الجنّازات تبدأ على النحو الآتي: «فاتورة المرحوم فلان الفلاني». كيف له الآن أن ينظّم فاتورة مشابهة للميت الحيّ؟ ولهذا السبب إذن توجّه نحو الباب ملوّحاً بقبعته القش السوداء:

- كفّي عن جنونياتك معي، سيدتي. أقترح عليك أن تقصدي ستريك وكنوبلر، صاحبي جمعية (الذاكرة الأبدية)، وهذا هو العنوان: شارع كجلت رقم 8. واعقدي معهما صفقتك.

نهضت الأرملة في هذه اللحظة من مكانها. كان أمراً مروّعاً حين انتصب هذا الهيكل العظمي الذابل الهزيل بكلّ حجمه، أمام متعهد الدفن.

- توقف، سيد سيفرا. كلمة أخيرة! إنك إذن لن تتعّهد القيام بترتيبات مأتمي، ولا بأيّ شكل من الأشكال.

- أكرّر القول، سيدتي، مؤسستنا نحن تقتصر على المآتم العسكرية. من النادر جدّاً أن نكون ملزمين بتعهدات دفن مدنية. نحن ندفن الضباط، والجنود. اقصدي جهة أخرى يا سيدتي.

- سيد سيفرا - صاحت الأرملة بتشنج - يعرفونك في المنطقة رجلاً محترماً. ليس بوسعك أن ترفض الرغبة الأخيرة لامرأة وحيدة هجرها الجميع. لقد رأيت مآتمك بأمّ عيني. طالما نظمتَ مآتم رائعة. في مآتمك يشيّعون بائعات الحليب الشفابيات كأنهن أميرات حقيقيات.

- شكراً على هذا الاعتراف - أجاب المتعهد - ما أتعهده، أنجزه بنزاهة. أما مأتمك يا سيدتي، فليس بوسعي القيام به مهما تكن الظروف.

– مع أنني أتمنى الحصول على نعش من خشب السنديان، وغطاء عينين حريري. أربعة أحصنة، قسّ، قائد جوقة تراتيل، أملك ثروة مدّخرة بألفي فورنت. إنها هنا في درج الطاولة.

أخرجت المرأة النقود، وراحت تحصيها بصوت مسموع، ثم غمغمت بصوت خفيض وهي تفرد النقود الورقية:

– ليس لديَّ في المنزل ولو ملعقة من السمن، ولا حبّة من الطحين، ولا حتى قطعة من الخشب للتدفئة. نفد كلّ شيء لديَّ. استهلكت كلّ شيء، لأنني سأموت اليوم. اكتب سنداً بألفي بنغو، سيد سيفرا، وتكفّل بمأتمي.

– بغضّ النظر عن كلّ شيء – أجاب يانوش سيفرا – المأتم الذي ترغب فيه سيدتي أكثر كلفة بكثير من ألفي فورنت. بدهي أنك ستتمدّدين في الـ(100) في مستودع الجثث، تحت القبة المطلية بالأسود... في الصف الثالث على الأقل... لا، يا سيدتي، ليس بوسعي. أقسم بشرفي أنه ليس بوسعي.

هكذا تكلّم يانوش سيفرا الذي كان على الدوام مثالاً في الهدوء، والوقار، مع ذلك فقد سارع الآن للخروج من الباب، وهبط درجات منزل طرف البلد بخطوات متسارعة.

توجّه إلى حانوته، وبالأحرى إلى مكتبه ليستوضح إن كان أحد قصده في غيابه، وإذا به هناك أمام الحانوت يلتقي بتلك الجارة نفسها. وقفت على العتبة بعينين دامعتين، وقد عصبت جبينها بمنديل.

– ماذا تريدين مجدّداً؟ – سألها يانوش سيفرا بفراغ صبر.

– ماتت الأرملة حالما غادرتها، يا سيد سيفرا. وكانت رغبتها الأخيرة...

– أن أقوم أنا بدفنها – قاطعها متعهد الدفن – لكني قلت للأرملة إنني لن أفعل ذلك.

هكذا تكلم يانوش سيفرا، وأغلق الباب بغضب شديد. نظّم بعض الفواتير «باسم الله»، وسمع ما قاله ستيفانك عن ضابط المدفعية البدين الذي شقّق النعش الخشبي مرتين، حتى تمكنوا أخيراً من إنزاله داخله؛ وكان يهمّ بالانطلاق حين توقف حنطور أمام المكتب الصغير المعتم. ونزلت منه

الميّتة - الأرملة المذكورة - بوشاح أبيض على شعرها الأشعث الرمادي، وحذاء أبيض، وثياب بيضاء. كانت تمسك بإحدى يديها المغلّفتين بقفازين بيضاوين باليين، باقةً من الورد، وتقبض بالأخرى على ألفي فورنت.

ترنّح، واستند بمشقة على الباب.

كان وجهها أجوف ككيس أفرغ مما فيه. فرّت الحياة من العينين، واختفى اللون، والصوت. لم يبقَ سوى جوف فموي أسود، وصفّ أسنان يحدّق إلى يانوش سيفرا من بين الملابس البيضاء.

- إنْ لن تتكفل بمأتمي سأموت هنا في الحانوت - لهثت الأرملة، وسقطت في النعش المعدني.

ارتعد سيفرا. لعلّه خشي على التابوت المعدني الباهظ الثمن. أو لعلّ قلبه قد رقّ حقّاً لما تعانيه المرأة من عذاب. فما كان منه إلّا أن تناول الأوراق النقدية المجعّدة، ودسّها في درج المكتب، وراح يسارع في كتابة فاتورة الجنّاز: «المرحومة...»

- ما اسمك؟

سعلت الأرملة أولاً لاستنشاق الهواء، ثم قالت، وكأن ما تنطق به هو كلمتها الأخيرة.

- الأرملة مدام كاروي كروز.

فرقع القلم بيد منظّم المآتم، سقطت الريشة، فرقعت الورقة. نهضت الأرملة بجهد. ارتسمت على وجهها ابتسامة يدعوها الشعراء «ابتسامة الجنة». تناولت الورقة بيدها المرتجفة المودعة للحياة ودسّتها في صدرها، وخرجت من الحانوت بخطى مترنحة كالسائر في نومه. انغلق وراءها باب الحنطور العتيق، المقلقل. نقل الحصان الهزيل الميتة. التفت السائق حوله بدهاء من تحت قبعته. وحتى المساء كانت الأرملة قد ماتت حقّاً، بعد أن حقّقت وعدها.

كان هذا أحد المأتمين اللذين كان على يانوش سيفرا أن ينظّمهما في فترة العصر.

المأتم الآخر لم يسبب لمتعهد الدفن كلّ هذا القدر من العناء، لكنه تطلّب مسؤولية أكبر.

حالة ضابط بدين مرة أخرى. هؤلاء الضباط ذوو الرتب العالية، كانوا في سلامهم الأبدي يسمنون بطريقة استثنائية. كان وزن العمداء يصل إلى قنطار عندما يصيرون بين يدي يانوش سيفرا. كم سبّبوا له الأعباء بنياشينهم التي كان عليه أن يحافظ عليها ويأخذها بعين الاعتبار! العميد المقرّر دفنه عصر هذا اليوم، كان يخدم في حراسة «التموين»، ولقد ذعر متعهد الدفن ذعراً شديداً حقّاً حين شاهد جثة العميد. كانت أكبر مرتين من سرير الموتى، وكان أكبر النعوش في حانوته صغيراً بالنسبة لهذا العميد. البونتوس- يطلقون هذا الاسم في عالم التجارة على أوسع التوابيت - لا يتسع لنصف حجم هذا العميد الهائل. وكما هي عادته عند أيّ مشكلة عويصة تواجهه. فقد أرسل متعهد الدفن على الفور وراء ستيفانك. (كان ستيفانك ذات يوم مساعد تشريح في مشفى روكوس، ويتمتع بمهارة استثنائية في قضايا الأموات). عاين ستيفانك العميد، ودار حوله مرتين.

- إنه عميد، لا يمكن تجعيده كيفما اتفق - قال متعهد المأتم موضحاً.

توقف ستيفانك. فكّر لثانية.

- ينبغي إهراق دمه - قال بعد تفكير نوعي.

- إنه عميد - كرّر يانوش سيفرا.

- لو قلت مئة مرة: عميد، ليس لديَّ نصيحة أخرى.

أومأ يانوش سيفرا بالقبول مكتئباً. ثقب ستيفانك العميد، فتضاءل حجمه بشكل واضح، واتخذ موضعه بلا عائق في البونتوس. دهمت متعهد الدفن قشعريرة من البرد عبرت أوصاله حينما دار في رأسه أن مقرّ المدينة قد يخطر له أن يتحقّق من هوية العميد قبل إغلاق التابوت. ما الذي سيقوله العقداء ذوو الشوارب الضخمة، والروّاد الصارمون، وقادة الحرس القساة، إذا ما شاهدوا قائدهم السابق بمثل هذه الحالة من الهزال؟ كيف سيكون ردّ فعلهم؟ لكن أحداً، لحسن الحظ، لم يكن مكترثاً لأمر العميد الميت، ما عدا أولئك الجنود الذين كالوه بشتائمهم بعد أن أفسد عليهم يومهم - وهو يوم عيد - باستدعائهم من قبل القيادة للذهاب إلى المقبرة العسكرية، وتقديم التحية على شرف الميت.

استرجع يانوش سيفرا مرة أخرى ما يجب عليه من واجبات لهذا اليوم، وانطلق من البيت، لينجز مهامه لدى مختلف الأبرشيات. سيكون قسيس كافياً بالنسبة للأرملة كروز. أما ما يخص العميد فإن مكانته المرموقة تستوجب استدعاء الأسقف الميداني على الأقل.

قاده طريقه إلى ساحة باكاتش.

في هذه الساعة حيث يمرّ المشاة صاعدين نازلين عابرين على درجات سلالم. منذ سنوات تقام أبنية، ويهدمونها، فتقتعد الشرفات نساء ضجرات يتشمسن بلا تنانير داخلية، لكي يتشجع عابرو السبيل، ويمرّوا من هنا على الدوام. ترتاح نساء حوامل أمام دار التوليد، ويسرحْنَ في البعيد، بعيون متوسّعة، وأجساد مائلة نحو الجهة اليسرى، متطهرات من رغباتهن، وحياتهن حتى هذه اللحظة، وعلى أمل بالمسيح، تقف هنا، تحت قلب كلّ منهنّ كنيسة حمراء صلبة، جديدة كأثاث منازل من أثروا فجأة، كنيسة صارمة وباردة، ضاجّة ومكتظة. على بعد خطوات من هنا سوق تجاري كأنه أخ غير شقيق لهذه الكنيسة ذات لون الجزّار. المدهش أن سعر كيلو غرام الضأن، وفخذ العجل غير مكتوب على أيّة لائحة سوداء.

كانت الفتيات في هذا اليوم قد ارتدين الثياب البيضاء في ضاحية (فرنتشڤاروش). بيد أن لباسهنّ هذا في عيد العنصرة، ويستمرين به في عيد السيد، وما إن يحين عيد بطرس - بولس حتى يكون ما ترتديه كلّ فتاة - حذاء أبيض، وثياب بيضاء - قد صار معروفاً في المنطقة. ربما ليس ثمة مكان تسير عليه الأرجل بالأحذية والجوارب البيضاء بمثل ذلك الأمل كما في ساحة باكاتش. حتى كعوب الأحذية بيضاء في أجزاء منها، وللثياب رائحة طيبة كالسيدات المسيحيات المتزمتات على العموم. نقّط ندى الأزهار في العيون، خصلات الشعر خوخيّة اللون، طازجة طزاجة الصباح، ولا أثر على الوجوه للحزن أو الغضب، أو البؤس. اليوم عيد. الجميع مغتسلون. الملك، الذي استقرت على أنفه نظارات خرافية يرى من خلالها البشر بلا ملابس: ما كان له أن يلاحظ بقعة صغيرة واحدة على سيدات فرنتشڤاروش في قداس العيد. كأنهن لم يحلمنَ بإطفائي قط، بحصان، بذكر حمار، بعجوز متقيئ، برشاش ماء بستاني شاب، تدخل به السيدات الشابات خلال أيّام الأسبوع

مع براءتهن في مكر الحلم الآسر. تلتفت الوجوه بثقة بهيجة نحو جرس موسيقا المذبح... ذلك المتوحش الذي أجفلهن في الليل، يبدو باهتاً في البعيد أثناء الركوع المدوّي لعرض السيد المسيح، ويصدح عن المنصة صوت نسائي مدهش يطلق عالياً أجمل الأغاني، أغنية الملائكة. تنقبض الأفئدة، تنطبق الأعين، وتنساب ذكريات الأمس من القلوب كجدول ماء سريع. العيون كلّها ترمق بشجاعة وطهارة الكاهن المنتصب بعباءته الحمراء بين خدّام المذبح الحمر، ويرفع جسد المسيح عالياً. وحدها الركب الجائية بقيت على الأرض.

لم يركع يانوش سيفرا عند عرض السيد. سمّر نظره في قداسة المذبح، محدّقاً إلى الكاهن المنتصب قبالته. فرك عينيه، وعقدهما، ثم طاف بهما بنظرة متحدّية على جموع الراكعين.

صحيح أنه كان قيّم الموت على هذه الأرض، وعرف بحكم مهنته الكثير الكثير عن قضايا الدنيا واليوم الآخر، إلّا أنه كان ولو بدوافع تجارية، يساعد الكهنة بصدر رحب في أنشطتهم المراسيمية. كان منظّم المآتم يشعر بقرابة معينة تربطه بكهنة المنطقة، وكان يشارك في كلّ الوظائف الكنسية، بوجه خاشع، وهو أول من يركع، حتى إنه إنْ تطلّبت الطقوس ذلك ضرب على صدره، وأحنى رأسه، وساعد قائد جوقة التراتيل في المواضع اللازمة. وباختصار: لقد عرف الأمور ولم يكن من السهل أن يقع في أيّ ارتباك لا فيما يخصّ قداس الموتى، ولا في الدفن.

غير أنه في هذا اليوم، في عيد بطرس- بولس، حملق بنظرة جامدة ووجه بارد، في المذبح حيث يركع الجميع، ويصلّي الطاعنون في السنّ لإطالة أمد الحياة، وتغمغم العجائز الشمطاوات بأسماء أحفادهنّ، وتصلي النساء في أنفسهنّ كمحارات بدينة، مكتنزة - من يدري ما يئزّ تحت أثدائهن؟ - غفلت الفتيات، وكشفن عن جواربهن البيضاء. اشتعلت الشموع بلهب أحمر كأنها تعرضت لأنفاس شديدة. دخل الشعاع السماوي عبر نافذة الكنيسة، وامتدّ طويلاً في السفينة. صدح الصوت النسائي كقيثارة... ووقف يانوش سيفرا بعناد، وأبى جحوده في مكانه غير بعيد عن وعاء الماء المقدس، ولم ينخرط في العبادة المباركة المطمئنة التي يقوم بها البشر التعساء المساكين. «لا حاجة

للصلاة في مثل هذا الوقت، فكّر في نفسه، حين بدأ القندلفت الشاب ذو التنورة الحمراء يهزّ الجرس، وصندوق المال، تحت الأنوف، حين ما زالت التنانير الداخلية، والمناديل نظيفة منذ صباح يوم العيد، وآثار خطوات أمس مغسولة عن الأرجل، والصوت الزائف أو الحقيقي للبهيمة المذنبة مغسول عن الأفواه... وما زالت الأيادي بيضاء من صابون المغسلة، والعيون نظيفة منذ الاستيقاظ، ولا يتربع على الأعناق ذلك الشبح الذي يحفز البشر على المال، والمضاجعة، والغرور، والخطيئة الخبيثة... لا حاجة للصلاة في مثل هذا الوقت، حين السيد الكاهن يقدّم القدح: بل ينبغي الصلاة حيث لا أحد يرى الإنسان...»

لقد فوجئ يانوش سيفرا بغرابة ما فكّر فيه، مع أن التفكير ليس من عادته كثيراً.

كان الكاهن غاضباً حين قصده يانوش سيفرا من أجل قضايا الدفن.

- لا وقت لديَّ للحديث الآن. سيقام حفل زفاف.

كان متعهد الدفن على قناعة بأن مآتمه أمور من الدرجة الثانية مقارنة بحفل زفاف حقيقي، ولذلك فقد قرّر أن ينتظر انتهاء حفل الزفاف، ومن ثم يتفاوض مع الكاهن. «ستكون سبعون كورونا كافية» فكّر في نفسه عندما عاوده للحظة واحدة يانوش سيفرا القديم. «ضربة تضرب السبعين كورونا!»

- قال يانوش سيفرا الجديد الكائن داخله. لبس القس ثياب اليمين. وفي الوقت نفسه نزل الصوت الاستثنائي عن منصة الجوقة. لم يكن سوى سيدة شقراء وزرقاء العينين بقبعة حمراء، وكان وجهها أبيض ككريما التورتا. بدت برمّتها قطعة لذيذة من الكاتو، باكتنازها، بتنورتها الكْريم التي ظهرت منها على نحو جذاب، رجلاها بجوربيهما الأبيضين. كتفاها، جيدها كالصيف، اسمها أولتشافسكي، أبدت بأنفها الأفطس قليلاً تكشيرة ساخرة تهكمية لحفل الزفاف القادم (لم تكن هي من طلبوها إلى المذبح).

امتدح المتعهد وردة الفاوانيا:

- استمتعت بغنائك. ليس هناك أوبرا أجمل من أوبرا تراڤياتا.

- لكنها ليست مما غنَّيت.

– لا يهمّ – أجاب متعهد الدفن – كان غناء جميلاً، وكأنك غنّيت من أوبرا (المرأة الخاطئة).

(علماً، متعهد الدفن لم يسمع أو يشاهد طوال حياته سوى هذه الأوبرا، ولم ينسها قط)

– المرأة الخاطئة من مسرحية ڤيرا ڤيوليتا! – تنهّدت الآنسة أولتشافسكي – آه لو يتيسّر لي أن أغنيها مرة على المسرح. للأسف، مديرو المسارح لا يدفعهم الفضول لسماع صوتي، وهكذا فأنا مرغمة على أن ألعب في حياتي الخاصة دور المرأة الخاطئة.

كان كأيّ رجل بودابستي آخر يقرأ في كلمات أولتشافسكي تشجيعاً ضبابيّاً. سيكون أمراً فاضحاً الانتقال إلى ضاحية فرنتسڤاروش من أجل امرأة جميلة. لكن متعهد الدفن كان ابن البلد، وعرف جيداً ماضي الآنسة أولتشافسكي وحاضرها النظيفين إلى أقصى الحدود. كانت أولتشافسكي تلك المرأة التي كان لها أن تتيّم رجلاً، حتى تضطر في النهاية إلى مقاضاته في المحكمة بسبب الاعتداء عليها. لم يكن لها سوى موعد وحيد في حياتها: وذلك حين وصل الشاب المختار إلى الموعد ميتاً بسكتة دماغية في العربة. بعد ذلك، على الرغم من أن قلّة من رجال فرنتسڤاروش المتميزين من لم تَعِدْهم بما يمكن لامرأة أن تعد به. كانت امرأة تغادر الضاحية إلى قلب بودابست، حيث أمكن رؤيتها في المسارح وقاعات الموسيقا، بقبعتها الزرقاء أو الحمراء، وشعرها الأشقر المقلوب، وكانت تمضي ليلة رأس السنة في مقهى (أمكيه) أو مقهى نيويورك، وتقرأ عروضاً لروايات في الجرائد، وتسير في الشارع متأبطة مجلة (نيوغات)(*). وعند العصر في شارع إمره، غالباً ما صدحت، من وراء الستائر البيضاء للنافذة، بأغنية من أغاني الكوبليه، والأغاني الشعبية، لأن الآنسة أولتشافسكي كانت في الضاحية أول من عرفت كلمات وألحان أغانٍ بعنوان: «منزل غاركون»، و«بعد غدٍ»، وأطلقت ضحكتها المليئة بالوعود من نافذة الطابق الأول، ساحبة شعرها إلى جبينها، ولم تكن لتستغرب الأمر إذا ما خاطبها «مشاكس» في الشارع، – للأسف لم

---

*. Nyugat (معناها: غرب) أشهر مجلة أدبية في المجر – المترجم.

يعد دارجاً- كانت «امرأة عصرية»، بعد الحفلات الموسيقية الشتائية (في الدائرة الاجتماعية أو في الكازينو)، طالما كانت تتفق هناك مع أحد شركائها لكي يزورها عند أصيل اليوم التالي. هناك في الغرفة الأولية - التي لا يصلها صوت سعال المرأة العجوز - كنبة يمكنهما الجلوس عليها والتحدّث بهدوء، وربما تصبغ شعرها ليكون أكثر احمراراً... وهكذا تمرّ السنون، حتى يغدو من أبنائها المحتملين ضباطاً ملازمين، وملازمين أوّلين... لكن قد يأتي أحدهم تضطر خلال زيارته إلى وضع شال من الدانتيل على صورة الملازم ذي العينين المستديرتين. حياة فنان! إنهم في البلدات الريفية، وفي ضواحي بودابست ما يزالون يحترمونك أشد الاحترام، كالسطوع الأبدي لكوكب الزهرة.

هناك في آلات البيانو، في الأغاريد، في حفلات الموسيقا حبّ، ومجد، وسعادة تتنهد، وتأمل، وتخدع. حتى العندليب سوف يغرّد على نحو أروع إذا ما صفق له شريكه.

لم يكن بمقدور متعهد الدفن متابعة المغازلة، لأنه كفّ عن مثل هذه الأمور منذ مدة طويلة. رمقته أولتشافسكي بنظرة متسائلة إن كان لديه ما يقوله بعد. ثم غادرته.

(وفي وقت لاحق سمع متعهد الدفن بما لا يقبل الشك، سيّداً أنيقاً متميزاً مالت نحوه مقتربة منه كثيراً - كأنها، بالحرارة المتدفقة، من ثيابها، وقفازها، وشعرها، تريد أن تزيد من شدة التأثير الذي أوصلته حتى الآن - قال للفنانة الآتي: «حضرتك مثل طائر السابلونكا، بل مثل نبات طائر السابلونكا، فليس بوسع إلّا اللوردات، والذواقة، أن يستطيبوا مذاقها الحادّ». ضحكت أولتشافسكي بحرارة وسعادة. ثم أجابت قائلة: «طريف جدّاً. أعتقد يا ميكوش أن هذا هو السبب في عدم الحكم عليك بالسجن لممارساتك العنيفة في الحبّ».

لكن حفل الزفاف كان قد بدأ واكتظّت الكنيسة بتلك الروائح التي لا يمكن الإحساس بها إلّا في الأعراس: رائحة زهرة الربيع الواعدة بالآمال، رائحة الوردة الخفية، رائحة ليلة الزفاف التي ما زالت عالقة على الملابس

الداخلية، مثلما جاءت مباشرة من بين يدي خيّاطات متاجر جهاز العروس، البريق البريء للأحذية ذات الكعوب البيضاء، رائحة جِدّة القفازات الجديدة، صوت التنانير الداخلية، التي تقول أشياء كثيرة بعضها لبعض في عرس امرأة أخرى؛ يمكن القسم بأن كلّ واحدة منهن، قميصها نظيف، جواربها سليمة، جيدها مغسول، ياسمين يطير مع العروس، إثارة وغرور وباقة ورود الخطيبة راية يمكن أن ترمقها عينان دامعتان محروقتان؛ العريس المهندم جاء من المسرح أو من الرواية في هذا اليوم؛ كأن كلّ الحاضرين قذفوا كثيراً من النبيذ الأحمر إلى وراء قمصانهم البيضاء، تلتمع العيون، وشوارب الرجال، تحمرّ النساء من الحماس الداخلي، ومن الغرابة كيف لا تنفر من تحت ثيابهن البيضاء شعورهن الرطبة الخفيّة، وحلماتهن المثيرة، وشهواتهن، وأشواقهن، وليالي سهرهنّ. من بين هؤلاء الأموات الجميلين يمكن انتقاء الكثيرين لا يحتاج إنزالهم في التوابيت إلى فقد دمهم: نساء ممشوقات القدّ، آسرات الخصور، ممشوقات السيقان، والركب لم ترها منذ انقضاء فترة الطفولة، سوى مياه الاستحمام، أثداء صغيرة يمكن لكفٍّ مرتجفة أن تغطيها متنهدة في الليل المقمر... ترى أين ستسهر أربطة الجوارب الزرقاء والحمراء، إذا ما شاخت النسوة، ولم يحكينَ شيئاً عن معايشاتهن؟

وإضافة إلى العذارى الوديعات (اللواتي تحلّقن حول العروس الضئيلة كالحارسات اللواتي يحفظن براءة العروس بفضيلتهن، عندما صرف الكاهن فريق الحراسة من خدمته) كان هناك أيضاً نساء بدينات وقفن بأرجل مفتوحة، وأفواه فاغرة في وهج حفل الزفاف، في حين كان بدأ هولت س.ج يعزف على الأرغن، ووصل بصوته إلى رأس الرجاء الصالح. (في الحقيقة: لقد تلقى دعوة إلى حفل الزفاف في منزل الجزّارين في شارع مشتر) هؤلاء النسوة - مهما يحدث في الخارج، في بودابست - لن يفقدن رائحة الخبز البلديّ التي جلبنها معهن من مساقط رؤوسهن)، ولن يمشين بصنادلهن، وبأحذيتهن المريحة، وبتنانيرهن الطويلة، أيّة خطوة لا يعترفن بها، إن ليس لأزواجهن، لكن لكاهن الاعتراف على الأقل. تفيض الأنوثة من بشراتهن الوردية، من مصافحاتهن الضاحكة، من أفواههن الفاغرة، من احتكاكاتهن الودودة، كما تفوح رائحة اللحم الطازج من حانوت جزارة مفتوح، لكنهنّ

يبرّدن أنفسهن كزجاجة النبيذ التي يهيئونها لأزواجهن منذ الصباح حتى المساء، متواريات في أعمالهن المنزلية، كالمحارة في صدفتها؛ وفي رأيهن، وحدها العاهرة هي من تتعرّى أمام مصباح مضاء؛ أما هنّ فيكتمن أنفاسهن في الوسادة إذا ما فكرة حمراء عبرت أمواج دمائهن كسفينة قراصنة. وعلى طريقة العبيد احدودبت ظهورهن إلى جانب أولادهن، وأشغالهن، وأعبائهن، يفرحن لأيام الصيام، وللفاكهة الطازجة كذلك، ويملكن إيماناً بخلود الكهنة والراهبات. تقع عليهن عينا رجل جذّاب شاردتان، ونادراً ما يحدث أن يخنّ أزواجهن، وإذا حصل ذلك فبأعين مطبقة وبحالة نصف هذيانية، وفي اليوم التالي يقلن إن الأمر حدث منذ وقت طويل جدّاً...

في حفل زفاف الجزّار، نسوة عجائز مستنكفات، بكروش كبيرة، ينظرن ببرود كسكّين، لكنهن يحترقن في الداخل كمادة الاحتراق، لكنهنّ يمتْنَ إذا ما أقدم جندي شجاع على الإمساك بذراعهن، لأنهن يخجلن من أرجلهن ذات العروق الزرقاء أمام العين الغريبة... أجل، في الحلم، بعد عصر العنب، غافلات تحت شرشف منتصف الليل الدافئ، وقد صار الزوج متمدّداً في نعشه في الغرفة المجاورة... في مثل هذا الوقت لو يأتي رجل جائع كالنار الفتيّة التي تمرّ بلهبها العاشق على أقدم قطع الأخشاب... فكر متعهد الدفن بسنواته الخمسين، وكفّ عن انشغاله اللحظي بالنساء البيضاوات الشعر. اندس بعينيه البنيتين الحارتين بين تنانير النساء الشابات، كمن يتشهى رؤية شيء استثنائي في هذه الساعة.

الفصل الثالث

وفيه تدور الكعوب، يمتلئ الجو بالهتاف، ومتعهد الدفن يحيّي الزوجين الشابين.

بعد أن ركّز متعهد الدفن قدر ما يستطيع من الانتباه، والاهتمام بالفتيات الشابات المحيطات بالعروس، من دون أن يتمكن من اكتشاف أيّة فكرة مما يدور في أذهانهن، عاد إلى طبعه الحزين المعتاد في الاحتفالات المنظّمة من قبله عبر سنوات طويلة. كئيباً، بيدين معقودتين وقف في هذه الحفلة الحياتية العظيمة التي يسمونها عادة حفل زفاف. حفل زفاف هو ربيع الحياة، كيس السعادة العارم، صنبور الفكاهات المختبئ، إنشاد الألحان المرحة الكامنة فينا. لا أحد في حفل الزفاف يعتريه الضجر، والجميع يأمل بأكثر مما يناله، يكلّم الناس بعضهم بعضاً بقلوبهم، وهم يتجولون بين أزهار الحقول ذات الأجراس الذهبية. حتى الموت نفسه يبدو صاحباً مرحاً- فهو الآن بعيد، يقيم في بلاد أجنبية، يمكن تذكّره كمهاجر غريب الأطوار. ربّت أحدهم بقوة على كتف متعهد الدفن. كان والد العروس، الجزّار الأرجواني اللون الذي لفرط مَرحِهِ، كأنه قصد متعهد الدفن الضئيل الحجم كي يتشاجر معه:

- اليوم عرس ابنتي. اليوم نهتمّ جيداً بالموت، نضع وشاحاً على الطاولة من أجلكم، سيد سيفرا.

اعتذر منظّم الاحتفالات، لكن الجزار هو من فاز أخيراً، لأنه كان قد بلّل بلعومه منذ الصباح الباكر، وتعتعه السكر. جلس السيد سيفرا في العربة الأخيرة بصحبة رجل يرتدي زيّ (فوغدمغ) جاء من المنجم إلى الحفلة، ولم يترك ذراع متعهد الدفن طوال الوقت. لكن المسألة لم تزعج سيفرا كثيراً لأنه

لم يحضر زفافاً منذ مدة طويلة. سيارات الأجرة التي أوصي عليها لخدمة الزفاف، كانت معتادة لمرافقة طقوس المآتم، فكان سائقوها المكلّلون بالزهور يحيّون السيد سيفرا عن اليمين واليسار. حتى أغطية عجلات عربة آرباد صاحب الشاربين الحمراوين غلّفت بالأزهار، وهو كذلك شَكَلَ باقة كبيرة من الزهور البيضاء على قبعته. «اليوم خمر، وغداً أمر». - صاح العجوز بصوته الفائح برائحة النبيذ بعد أن قام بتحية سيفرا. وكالعادة أجاب متعهد الدفن ملوّحاً بيده، بحركة تطلب الهدوء. استقرت بارجة العروس في العربة؛ خصلات شعر ناصيتها، وخصلات الشعر المجعّدة حول أذنيها التي كانت قاسية وجامدة كما ألصقتها مصففة الشعر منذ قليل صارت الآن مبلّلة بعد أن ترطبت في زحام حفل الزفاف. كانت قد عبرت عتبة الكنيسة دائخة شاحبة، تجمدت الابتسامة على وجهها، وضغطت منديل الجيب على فمها: ما أفظع أن تقوم معدتها المتهيّجة بالتقيؤ، وتلويث ثيابها! راح العريس يحيّي بقبعته الأسطوانية يميناً وشمالاً على نحو ما، كلّ ما فكّر فيه مسبقاً في البيت. حيّا مدخل الكنيسة، وخادم الكنيسة، وفاغري الأفواه المندهشين، والسيدات الواقفات في الشرفات بعباءاتهن، ومناظرهن المقرّبة. يوم جميل. الكلّ يضحك. ربما بان من ثيابه شورته الداخلي؟ ومن شدة ارتباكه أخرج علبة سجائره الفضية من جيب سترته، كان يهمّ بإشعال السيجار حين قام يانوش سيفرا الذي لم ينبس بحرف حتى الآن بالتعليق بصوت جادّ:

- ليس من اللباقة إشعال سيجار.

ارتجف العريس من اللهجة الجادة، ومن الوجه المهيب، لكن لحسن النية مع ذلك، سارع إلى انتزاع السيجار من فمه وقدّمه للسائق. وضع السائق الهدية إلى جانب أذنه لكن يانوش سيفرا قام بتوبيخه أيضاً.

- هذا لا يجوز يا يانوش! لا يفعل المرء مثل هذا أمام الجمهور.

حين ذكر يانوش سيفرا كلمة «الجمهور»، إنما وشى بكثير من الأمور بضربة واحدة: الحذر، والاهتمام البالغ والخبرة الحياتية، حتى إن والد العروس الجالس على مقربة منه كان مضطرّاً لمعانقته، مسمّياً إيّاه: «صديقي العزيز».

لم يحفل يانوش سيفرا بعد ذلك بمجرى الأمور، وكأنه اكتفى بما باح به عن نفسه وعلمه الغامض. لا الجلّادون ولا حفارو القبور، ولا عاملو معهد التشريح، يتكلمون بكلّ سرور أمام الغرباء عن مهنتهم السرية. وليس من مصلحة منظّم المآتم أن يكشف أوراقه أمام الجميع. لذا فقد التزم يانوش سيفرا الصمت ضمن مجموعة المناجم، واكتفى بهزّ رأسه بهدوء حين جاءت عربة تشحن الفحم في مواجهة موكب الزفاف، فحصل شيء من الازدحام على زاوية شارع كنيزيتش.

لكن الخيول عبرت مسرعة بالمرأة الشابة، وبإكليل الآس، وبعجلاتها المزينة بالياسمين، والقبعة الأسطوانية وهي لا تكف عن التحيات، وبحذائها الناصع البياض، وعينيها نصف المطبقتين. قاد السائق العربة بسعادة غامرة كأنما هو نفسه أبو العروس، ورمق الرجالُ، والنساء، والمارة وجهَ العروس بنظرات متسائلة، كأنما يفتشون عن شارة البراءة الخاصة على وجهها الشاحب. الرجال في شارع فرنتس، الفاسقون المخصيون ذوو السراويل المبرقعة، والشوارب المصبوغة، فكّروا بالليلة، في حين ألقت النساء - هؤلاء الخيّاطات بالفطرة - نظرة وحيدة لا غير قسن بها ثوب العروس من أسفله إلى أعلاه، ورأين تسريحتها، وشرائط حذائها، كلّ ذلك خلال أقل من ثانية واحدة، وربما لاحظن خلالها أيضاً شعار قميصها الداخلي الذي، في هذه الأنحاء من المدينة، يطرّزونه فوق القلب، ويحيطونه بإكليل مضفور صغير. لا شك أن شرائط زرقاء فاتحة مطرزة بين الأربطة، وأزرق فاتح أيضاً هو رباط الجوارب المطاطي الجديد الذي يضغط على لحم الساقين.

هل هناك شخص يعتقد أن العروس وقفت أمام المذبح بتنورة داخلية بالية؟

في هذا الوقت يركّز أصحاب المحلات والخياطات على عرض جهازات الزفاف. إذا ما تزوجت إحدى ملكات الحفلات، أو إذا ما مدّت جميلة من جميلات شارع ڤاتسي يدها لرجل من الكونتات يقطن في جوار حديقة المتحف، فإن جهاز العروس يبقى أيّاماً في واجهة محل (ڤادامبر) أو (سيب يوهاسني). يقف الشبان العزّاب المجعّدون بأحذيتهم المخروطية وسراويلهم البالية، أمام الواجهات مستندين على مظلّاتهم المطرية يشاهدون هذه الزركشات والدانتيلات الساحرة، الخيالية، والهمهمات الفاترة، وإن لم

يفقدوا عقولهم بعدُ من الأمراض، والمشروبات، والتخيّلات، كان ينبغي لهم أن يفكّروا في سرّهم بذكاء بأنهم بعد سنتين من حفل الزفاف لا يمكنهم أصلاً أن يكونوا طرفاً في هذه التفاصيل الجميلة الناعمة، لا سيّما وأن الزوجة سوف تقتصد باستخدام الملابس الناعمة، ولن تلبس سروالها الداخلي الجذاب إلّا إذا جاء صديق طيب جديد لزيارتها في غياب زوجها... أو إذا ما ماتت الزوجة فإن أخوتها سوف يطالبون باستعادة جهازها بعد مشاحنات، وعراكات كثيرة. لكن الشبان العزّاب لم يكونوا أذكياء على الدوام، وقفوا يشاهدون ببلاهة متنهدين، سارحين إذا ما لمحوا عروساً في أرجوحتها بثوبها الأبيض وإكليلها الآسي. يجب حظر حفلات الزفاف العلنية لأنها لا تخدم إلّا الغرور، وتعجن أمزجة الأخوة ومِعَدَهم، وتدفع بالعشاق المهجورين إلى الغضب، وتدعو الشبان العزّاب ذوي أعناق الثيران إلى النوافذ كي يروا الزوج الجديد بعيونهم الهازئة التي تقول الكثير. لا يمكن لحبّ فتاة أن يكون بعد الآن حارّاً، جنونيّاً، بهيجاً، إذا ما تسلّلت - وستصل حتماً- أخطاء فترة الصبا إلى المكان. يقبع «الماضي» في ركن غرفة النوم، متجلّياً بصرخات الأحلام، وصرخات الولادة المنسية، باحثاً عن الرسائل، والبطاقات الاسمية، والأزهار الذابلة غسلاً للعار، حاملاً على ظهره الدناءة الغضوبة كجثة لا مجال أبداً للتخلص منها. كم من رجل أنَّ، وتلوّى، وعضّ وسادته ليلاً، ورمق فوهة مسدسه، وقاس ارتفاع الطابق الرابع الذي يدقّ الأعناق: من لبس ذات يوم خاتماً بيده اليسرى وهو في غاية السعادة! يكبر أطفال لا يجد فيهم شيئاً من روحه، ومن حساسيته السجينة في صندوق، من نظراته وهو في وحدته. انكسرت السلسلة - هذا ما يشعر به- لقد انقطع نسله ولن يستمر في العالم بعد الآن. يقضي لياليه قرب كلبة جرباء حقودة مزدرية تكشّر حتى لليد التي تقدم لها الطعام. كم من رجل يسير في المدينة برأس مطرق، وهو الذي ذات يوم أقسم على الوفاء برأس شامخ إلى جانب شمعة حمراء اللهب، وكاهن عباءته ناصعة البياض، وأخوة ضاحكين. كم من عيون رجال متحرقة، مفتوحة تحت سقوف المنازل في هذه المدينة الكبيرة، تصيح الديكة حين، والزوجة تحلم مع عشيقها في الجوار! من أراد تحطيم كرامة الرجال، أوجد لهم الزواج. لم يتذكر منظّم المآتم أن تخلّت أرملة عن إقامة

حفل العشاء بعد إجراء الطقوس الجنائزية لزوجها الميت. بل العكس من ذلك: لقد أحبين المأكولات، وأحبين الخمر ورشفنه، ومصصنه بهدوء وهنّ شاهقات بالبكاء. الله الرحيم سوف يصفح عن الأرملة المسكينة، ويمحو لها كلّ خطاياها.

نظر من فوق الأسوار أشخاص غرباء قدموا ذات يوم من بودا من جبل القمة أو من شارع تسيبالوم منتقلين إلى ضاحية فرنتسڤاروش، ليعيشوا هنا تبعاً لأخلاقهم في بودا. كانت صورة ملوّنة، كبيرة رسمها فنان لآباء وأمهات العائلة. أشخاص بدينون، نساء بسلاسل ذهبية، مواطنون صارمو الهيئة، مؤثرون، ذوو شوارب، ولحى، لم يبقَ أيّ منهم مديناً لأحد حين اصطحبوه إلى المقبرة؛ الفواتير التي سدّدوها، العقود التي أقاموها، يمكن إيجادها حتى هذه الأيام. أحبّ أحدهم لحم الخنزير والنقانق، وأحبّ الآخر حساء الديكة، والدجاج الغضّ، والثالث كانت عيناه محمرّتين على الدوام من شرب النبيذ المفرط ليظلّ مبتهجاً عندما سئم صابونات ركب الخدم. لقد أنجزوا في أزمنتهم تلك الأمور السرية التي لم يتحدثوا عنها قط. أحبّوا، لعبوا، عانقوا، ساروا بالمصباح ليلاً في الممشى إن لم يتمكنوا من النوم، واسترقوا النظرات عبر ثقب القفل ليروا زوجة العشيق تفتش عن البراغيث في تنورتها الداخلية، وقاموا عند الفجر بتغطية الأطفال. تكوّرت البنات أو استطلن؛ الصبيان غرقوا في أحلامهم. وفي أماسي الخريف تجمعوا جميعاً قرب المدفأة يكسرون الجوز، ويفكرون في شبابهم، وقدّاسات عيد الفصح، برائحة مسك الفتيات، بالأصدقاء الموتى، بالنوافذ التي أضاء خلفها فانوس في بودا أو في شارع مشتر. بالمجلات التي قرؤوها مئات المرات، بصور الموضة المعلقة على الجدار الخشبي. كم قطّبوا رموشهم واربدّت وجوههم إذا ما تأخرت بناتهم في المجيء إلى المنزل من مدرسة الرقص. كم جلسوا على أسطح المنازل في أوقات العصر يتفرجون على صورهم أيّام الشباب وهم بزيّ منظف المداخن أشبه بأفراد فرقة موسيقية مضحكة، أو وقفوا ببنادق الصيد أمام أنبوب المصور... وعند المساء لعبوا لعبة دينامو وتلك الأيادي التي تجعّدت على الطرف الآخر للطاولة.

هم كانوا ضيوف حفل الزفاف. منهم من كانوا يتهادون بمعاطف

الصالونات، والمروحات، والدانتيلات القديمة، ومنهم من استندوا إلى الجدار غارقين في الصمت. هم ما يزالون يقطنون تلك المنازل التي تصيح في فنائها الديكة عند الفجر. وإذا ما مرّت في الليل عربة أجرة تحت نوافذهم، استيقظوا: ترى من المتوفى في الشارع؟ في أزقة ضاحية فرنتسڤاروش مارسوا حياتهم بين أثاثاتهم الخردة، وذكرياتهم القديمة، واعتاشوا من المداخيل التي ورثوها وخبّؤوها، أو مما جنوه وادخروه من أعمالهم المستمرة.

لقد اكتست كعوب النساء بقشرة سميكة من كثرة تجوالهنّ حافيات عند الفجر لإيقاظ سائقي عربات الحليب، أو عند محلات الجزارة في مراقبة طاقم العمل من الفتيان، وقست أصابعهن من عدّ النقود المعدنية الصغيرة، وفاحت رائحة قمصانهن من الأوراق المالية المخبأة، ولم يخرجن مجوهراتهن إلّا في الأماسي البارزة، للفرجة، والملامسة فقط، ونادراً ما تقلّدنها؛ لقد جمعن القماش، والنسيج والأعشاب الطبية، ولم يصل بهن الأمر إلى الجنون إذا ما كتب شاعر غنائي قصيدة لأفخاذهن السمينة.

مع أن لهذه المجموعة شاعرها الغنائي أُطلق عليه اسم السيد تسڤيكلي، لكنه للأسف لم يحاول قط معرفة شيء عن النساء، وهكذا إذن، ليس بوسعه أن يقول أيّ شيء من أسرار النساء البرجوازيات. كيف للسيد تسڤيكلي أن يعرف الآمال وليالي السهاد، والرسائل المكتوبة بالدموع، وتوجعات الوحدة، وقرارات الانتحار، إن كان لم يسعَ قط إلى جعلهنّ تعيسات. كان تسڤيكلي حماراً لأنه أبداً لم يكلّم هؤلاء النساء عن خبايا الحياة، عن أسرار الحبّ، عن كونه السعادة بذاتها: عن الحبّ السعيد. من أجله لمْ تسافر النساء حتى إلى ڤيينا لكي ينتظرن تسڤيكلي في فندق متفق عليه، بين الدموع وليالي السهاد. لم يذهبن حتى إلى بودابست لزيارة العمة حيث يمكن المواعدة هناك في بيت الصحافة عند الغروب. كلّ ما كان تسڤيكلي يفعله هو أنه عندما تزور الأخوات بعضهن بعضاً، يدعونه إلى العصرونية، ويحصل على النبيذ، ويشرب أنخاب العمّات. في الأصائل الشتائية، يعدو بمنتهى الوفاء إلى جانب تنانير السيدات إذا ما انطلقن لزيارة صديقاتهن، غير أن تسڤيكلي لم يسمح له بالذهاب إلى شقق الصديقات. من يدري ربما كان ضابط مشاة،

أو «طبيباً» غير متزوج يدخن سيجارته في الغرفة المجاورة، في حين أن الصديقة الوفية صامتة كالقبر! جنون أمهات العائلة المحترمات يماثل، في كثير من النواحي، انبهار العذارى الصغيرات. هنّ أيضاً يعتقدن أن عليهن منح حبّهن الذي يعتبرنه الحبّ «الأخير» دائماً. ليس غريباً أن يدعو الأزواج في عمر الأربعين زوجاتهم بـ«الشمطاوات»، لكن كذب الخطيب أكثر حلاوة وهو يفتل شاربه الملعوق.

جلس السيد تسڤيكلي إلى البيانو، شرب نخباً بصحة العريس والعروس، راقص العروس، وشرب أنخاب السيدات العجائز، لكنه سعى أكثر ما أمكنه لتسلية الرجال. ذكر كثيراً من طرائف السكر القديمة، واستخدم أظرف الكلمات، ودندن لصاحب مطعم متقاعد أحمر الشعر قائلاً: «الله معك يا شريحة لحم العجل»، فما كان من صاحب الكرش إلّا أن أخذ يرقص الڤالس، فيما كان معلّم الجزارة السابق يستعلم بحماس عن مجريات لعبة الورق التي حصلت في الأسبوع الماضي، وراح مسؤول بلدية عجوز يحكي للمرة المئة كيف أمضى تسلياته الصيف الماضي في كارلسباد: استمع إلى النزهات الهادئة بعينين شاخصتين، إلى رشفات الماء، إلى تعليقات البائعة في البازار، إلى وصف الزبائن... وباختصار، لقد طفح كيل تسڤيكلي منه، لم يكن بوسعه البقاء في فرنتسڤاروش بلا عشاء، لكن السيدات طبعاً لم يهرعن إليه هابطات من الطابق الأول، ولم يصلّين لأجله قط، ولم يقمن ولو مرة واحدة، بتقبيل عنقه من الخلف بقبلة كبيرة عابرة، أكثر ما فعلنه من أجله أنهن أعددن له كعكعة. كان تسڤيكلي رجلاً وسيماً ممتلئ الجسم، حليق شعر الرأس، بشاربين مفتولين، ذا صوت ملعلع على نحو مرح، فضولياً، دائري العينين ملمّاً بوصفات الطعام، وبالقرابات، يبقى سرّاً أبديّاً مشاركته كلّ هذه السنوات في حياة فرنتسڤاروش، وإذا ما كانت عيناه وقعتا مرة على سيقان أمهات العائلة ذوات الجوارب البيضاء.

جلس يانوش سيفرا يمجّ سيجاره بهدوء عند طرف الطاولة مزدرياً تهريجات السيد تسڤيكلي أيّما ازدراء. بسببه لن يستطيع إنجاز حتى مأتم واحد بشكل لائق.

أرقى مالدى تسفيكلي من لباس كانت سترته البيضاء التي ارتداها -مع

قبعته القش أيضاً- منذ الربيع حتى الخريف، لقد أحبّ حياة المجتمع الراقي. حدث أحياناً أن اصطحبه أصدقاؤه بالعربة معهم إلى سباقات الخيل عصر أيّام الآحاد (جلس تسڤيكلي بين الأطفال في المقعد الخلفي)، وفي مرات أخرى تجرّأ، ورافق صديقاً آخر يحتفي بعيد اسمه، إلى مقهى أورموم خارج فرنتسڤاروش ليعطي صيتاً لاحتفاله. تسڤيكلي إذن لم يغفل عن رواية تلك الحادثة التي حصلت معهما حين كان بصحبة صديقه نبلاسكي (صاحب حقول الكرمة، وصاحب المنزل في ساحة باكتاش) في حفلة شوموشي. أسهم في هذه الحادثة مختلف أنواع البيرة (بيرة كورونا، بيرة دريهر) التي كسبها نبلاسكي (بطل الحادثة الفذّ) في لعبة البولينغ واجترعها في حانة شارع كوسورو التي يطلق عليها زوّارها الدائمين اسم ميشيل. وبعد مغادرة ميشيل عرّجا طبعاً إلى حانة أخرى لشرب النبيذ.

(كان العم فايكس قد ذهب إلى البيت) - غمز تسڤيكلي خلال حديثه مشيراً نحو سيد عجوز كدرٍ شاحب الوجه، ليجذب الآخرين إلى القصة) شربا نبيذ باداتشوني القوي. ميشيل نفسها جلست لاحقاً إلى طاولتهما، وشربا معاً ما يقارب العشرين ليتراً - تابع تسڤيكلي القصة. ربح نبلاسكي من التاجر الجوّال الذي دخل إلى الحانة كلّ سلّته، وأهدى للشرطيّ القطبيّ علبة من التين.

(نبلاسكي، بطل القصة، جلس في مكانه مطبق العينين، في حين كان السيد العجوز الكدر الشاحب الوجه يكرّر قوله مرات عديدة كمن كانوا إلى جواره: «كنت أعرف مسبقاً أن هذه ستكون النهاية، لذا ذهبن إلى البيت في الوقت المناسب»).

ومع الانتهاء من شرب النبيذ تذكر تسڤيكلي أن لنبلاسكي عدوّاً في مكان ما في بودابست، وهو ضابط من أصل تشيكي بطول مترين وشاربين حمراوين، وقد حصلت بينهما قبل سنوات مشاحنة في المقهى في اليوم الذي يصادف عيد اسمه. استقلّا إذن عربة وانطلقا يبحثان عن الضابط الذي طوله متران. ووجدوه فعلاً في مقهى أورفوم. كان منشغلاً لتوّه ببائعة أزهار فقيرة (كل روّاد المقهى يعرفون أنها متدينة)، وأطاح بعصاه بباقة الزهور من يدها. حملق نبلاسكي والراوي لمدة طويلة في العملاق الأكثر شراسة

ورهبة في الحامية البودابستية. لم يحتمل نبلاسكي إلّا أن يفعل شيئاً، فراح يمسك بيدها محاولاً ببعض الكلمات أن يواسي بائعة الأزهار العجوز الفقيرة. بدهيّ أن ذلك قد أزعج العملاق، وملأه بالسخط فراح يزأر ملء رئتيه، ويشتم المرأة العجوز، وشتم نبلاسكي، وكان حتى للراوي نصيب من شتائمه. عبثاً صدحت الفرقة الموسيقية بأكثر معزوفاتها صخباً، ووحشية، عبثاً حاول النُّدل تهدئة الضابط، عبثاً تدخّل صاحب المقهى... علقت أعين الجميع بنبلاسكي إن يفعل شيئاً. عندئذٍ، ومن دون أن يلامسه، وبإصبع وحيدة فقط، أخرج الضابط من مكانه الخاص إلى الطرف الآخر من المقهى، مثل طفل مقمّط. عاد الضابط فيما بعد وأخرج نبلاسكي، والراوي من المكان على راحة يده. عاد نبلاسكي وأوقف الفرقة الموسيقية الغجرية كلّها على طاولة رخامية، ورفع الطاولة وكل من عليها، مما جعل الضابط...- انفجر مثل فقاعة - قاطعه متعهد الدفن بصوت رنّان ما أمكن، من دون أن يحرك غليونه في زاوية فمه اليسرى.

تبادل المحتفلون النظرات. وتبادل تسڤيكلي وصديقه نبلاسكي نظرة ساخطة. هذه الحادثة، اعتادوا في كلّ أنحاء المدينة أن يصغوا لسماعها بانتباه شديد وصمت أخرس. لم يدرك أحد ما المقصود بالتعليق الذي نطق به متعهد الدفن الهادئ الضئيل القدّ. باندهاش، وكأن آذانهم رديئة السماع، التفتوا متسائلين نحو يانوش سيفرا الذي راح ينقر بهدوء على الطاولة.

- أجل، طقّ مثل الفقاعة.

ضحك الكثيرون. حاول تسڤيكلي أن يتابع القصة، فمال عن متعهد الدفن، لكن الأخير ظلّ يشاكسه:

- تريد أن تحكي ما حصل بالفقاعة المنفجرة؟

سكت تسڤيكلي بناءً على طلب صديقه نبلاسكي الذي عبق وجهه بالدم. بعد ذلك وجّه تسڤيكلي نظرة صاعقة نحو متعهد الدفن، وهمس لصديقه يستشيره ما العمل بعد الآن.

وبانتهاء المأدبة، التي تعمّدت تأجيل وصفها أمام قراء هذه الأيام الذين تخلّوا عن عادة غداءات حفلات الزفاف، وهكذا فإنهم سوف يشعرون

بالنقمة على سكان مقابر بودا، وبست الذين استهلكوا من أمامهم اللقمات اللذيذة، والدهن اللذيذ، والنبيذ القوي، والكعك، وحليب العصفور، - لماذا؟ - لكي يغذّوا أرض المقابر بخنازير عيد الميلاد الغضة، شواءات الإوز المغمّسة بالدهن الذهبي، بالدم الأحمر الخلّاب والبارد لجبل شاش، بمرق السلطعون واللحم الفائح الرائحة حتى المبنى الثالث، بالسمّان السمين المحلّق إلى الأبد، وبأسماك نهر الدانوب ذات البياض البارد... بانتهاء المأدبة طلب الكثيرون من السيد تسڤيكلي المهان أن يجلس إلى البيانو، وقامت الفتيات الخادمات الجسيمات ذوات السيقان الحمراء بطيّ السجادة، «لا يكتمل حفل الزفاف بلا رقص»، قال الرجل الأشبه بالكلية، والبطن الشبيه بجبن الخنزير، والذراعين، والساقين الأشبه بالنقانق المحشوة، الذي لم ينبس بحرف لا قبل الآن ولا بعده. وضعت فتاة سوداء العينين بحزام أزرق التوتَ والفراولة في النبيذ، فصار العجائز يكيلون القبل للأخت الصغرى للعروس. «غداً سوف نرقص في حفل زفاف سعادتك». قال متعهد الدفن على نحو احتفالي، وأفرغ كأسه التي وضعتها الفتاة أمامه.

- دعونا نرَ سيفرا - صاح السيد تسڤيكلي المتعطش للانتقام، وهو إلى جانب البيانو - لم أشاهد قطّ متعهدَ مآتم يرقص.

الفتاة ذات الحزام الأزرق دعت يانوش سيفرا بصوت جريء لرقصة معها. وضع سيفرا السيجار من فمه، ونهض. تقدم بخطى سريعة ومدّ ذراعيه لفرعة زهرة الربيع ذات عنق الزبدة.

كان الكثيرون قد بدؤوا يرقصون في الحفل. «في دائرة الأسرة يرقص كلّ شخص كما يعرف» - صاح أحدهم. وبدأت الارجل العاجزة المعتادة على الهدوء، تتشابك، وتتزحلق، والسراويل التي ألفت الأرائك والمشاجب، ولا شيء آخر، بدأت تتمايل، وتمايلت الخصور، وقرعت أجراس الأثداء النسائية الذابلة أو المتكورة، وفتلت التنانير التي صار لها رائحة البخور، توترت الجوارب التي لم تكن على دراية سوى بالركوع، جنّت كعوب الأحذية، طارت كعكات الشعر عن الرؤوس. كأجنحة غربان الثلج، فرقعت المشدّات كأن يداً خفية امتدت تحتها كما في عهد سابق. حاول متعهد الدفن الرقص كما شاهده سابقاً في مسرح الشعب. تحرك، وتباطأ وتسارع ودقّ

بكعبه، وبوز حذائه، ولوّح بمنديل جيبه، وحرّك راقصته، وفتل كالبكرة، ثم بمنتهى الجدارة ضغط قبضته على خصرها وهزّ كتفيها بطريقة متغطرسة، وراح يفتل بالفتاة رجوعاً وإلى الأمام، وكأنه قد وصل إلى حدّ الجنون، ولم يشأ أن يتخلى عن الرقص. فلتت الفتاة الشابة ذات الملمس الكرزي من يد متعهد المآتم، ووصل إلى يده خصر العروس كخوخة ناضجة تبثّ حرارة صيفية من ثوبها الأبيض، الذي شعر برماد البرقوق عليه. تقافز حذاؤها الأبيض كسنجاب، تأرجح الشريط، والوشاح، والدانتيل، وكأنها استحالت جميعها إلى أعضاء حيّة من جسد العروس منذ أن ارتدتها. ثم جاءت الفاكهة الخريفية، التفاحات الجافة، المجعّدة، لكن اللذيذة، على هيئة سيدات ليراقصن متعهد الدفن المجنون. كان لكلّ منهن خصرها الطازج كعنقود عنب منسيّ في صباح خريفي، وفاحت الحلاوة من ثيابها كطعم القرع الأحمر الذي طلاه، وعضّه الصقيع قليلاً على سطح المنزل. حتى رقص الشمطاوات الأشبه بنبر الجوز، وأنفاسهن الأشبه برائحة شاي الزهور، وأذرعهن، وسيقانهن الشبيهة بعيدان شجيرة ورد فقدت أزهارها، أقول حتى تلك الشمطاوات جعلت متعهد الدفن يتسلّى ويمرح. لم يتوقف عن الرقص إلّا عندما دفع السيد تسفيكلي خصرها الأرنبي، ذا السترة البيضاء إلى بين يديه.

كانت النافذة مفتوحة، قرع جرس كنيسة في مكان ما.

- والمأتمان الجميلان خاصتي!- تنهّد متعهد الدفن من العتمة في الخارج- لكن ستيفانيك هناك.

لثانية واحدة بمخيّلته، رافق الأرملة العنيفة في التابوت المعدني في طريقها الأخير. تُرى هل جنود الحداد، ورجال السيوف في أماكنهم؟ غطاء الوجه يتأرجح، وقائد جوقة التراتيل يقتصد، لأنه يعلم أن لا أحد يراقبه. ثم فكر بالضابط المطعون المهزول الذي سيطلق الحرس الرصاص تحية له، ويحمل جندي أمام النعش النياشين على وسادة بيضاء... للأسف، لكن لم يدم المشهد كلّه سوى ثانية واحدة. لم يكن لدى متعهد الدفن الوقت الكافي ليفكر ما إذا كان رجاله سيوصلون بدقةٍ أحصنةَ القديس ميهاي، والتابوتين، ومختلف الأغراض... أمور جديدة، أحاسيس جديدة صارت تشغله. أحبّ

لو يعانق أحداً ما حتى لو واحدة من هؤلاء الشمطاوات، شرط أن تكون دافئة، لا باردة كالجثث في المقابر.

دن دان دون، يوماً سعيداً، مساءً سعيداً. قرعت الأجراس في ساعة باكاتش، وبلّل قارع الجرس بلعومه بشيء من النبيذ كما هي العادة عندما يقرع للموتى. وتدلّى الصبيّ شادّاً حبل الجرس في البرج. لكن متعهد الدفن الذي اعتاد أن يسير في مقدمة الجنازة، وكأن الأجراس لا تقرع لأجل الميت بل لأجله هو، فكر الآن بأن زوجات الجزارين، وزوجات أصحاب المطاعم هنّ أكثر جمالاً في محالّهن التجارية حين تحمرّ وجوههن من العمل، وتتندى شعور نواصيهن، وتتورّد أعناقهن العاريات، وتفرقع تنانيرهن الداخلية المقصّاة، وستراتهن أكثر جمالاً وهنّ بأذرعهنّ العارية، وأفواههن المفتوحة. مع قرقعة الصحون ذات الصوت الدهني، وقرع الأنخاب الشبيه بقرع أجراس صغيرة، ومع انطواءات بطانات التنانير، وفرقعة الحرير المشدود، وانزلاق الأحذية البيضاء، ومع دوخان دانتيلات التنانير الداخلية المرتخية: جاء صوت الجرس كأنه وصل مباشرة من المقبرة. ظلّ يانوش سيفرا واقفاً بوضعية الرقص إلى أن بدأ السيد تسفيكلي البارع، وضرب فجأة على البيانو مارش الموتى الذي عزف ذات يوم في أوبرا دوم سيباستيان، ومنذ ذلك الحين كثيراً ما عزفته الفرق الموسيقية للمحاربين القدماء. هذه الأصوات الجليلة للمارش جعلت الجميع يبدؤون الرقص مجدّداً، غير أن السيد سيفرا رأى الزمّارين ذوي البطون القسيسيّة، والوجوه المنتفخة، مائلين برؤوسهم إلى الوراء، وبوجوههم نحو السماء، وهم يعزفون بمزاميرهم ويسيرون كأفراس السيرك التي تجرّ عربة الجنازة... تأرجح الغبار ووشاح الحداد فوق الميت، ارتطم النعش ارتطامات ضخمة عندما أخذ خيّالو الجنازة ذوو السيوف المسلولة يمسحون بمنديل مغبّر قطرات العرق... النساء المتوشحات بالحداد يتثاقلن في سيرهن في غبار المقبرة، الرجال ذوو المعاطف الصالونية السوداء يعرجون متعرقين، بعيون متقرحة متوجعة وراء الميت... يصدح المارش بصرامة تفطر القلوب... منظّم المآتم ينهار مستنفداً قواه وسط صالة حفل الزفاف. لعلّه شرب أكثر مما ينبغي، لأنه راح بيديه الممدودتين يتمسك بالجوارب البيضاء للنساء الراقصات...

– هل لديك تصريح بإلغاء الاشتراك؟ – صاح صديق النكات الرخيصة، السيد تسڤيكلي، وعلى الفور أخرج من جيبه تلك «الهوية» المطبوعة على ورقة قاسية، الموقعة من قبل الزوجة، التي علّقها الرجال جديّاً ذات يوم على أزرار معاطفهم في بودا، وضاحية فرنتسڤاروش.

استيقظ السيد سيفرا وسط الحشد الضاحك، وعندئذٍ قدّم انحناءة تقليدية أمام المرأة الشابة. وقال باللغة الألمانية:

– لتبارك الآلهة حفل الزفاف الفضيّ هذا.

– براڤو – صاح بعض الأسياد المسنّون الذين علّقوا فوق أسرّتهم في المنزل ما يشبه هذه العبارة التبريكية.

خرج متعهد الدفن.

رحل يانوش سيفرا رسميّاً مثلما أتى. لكنه وهو يهبط السلّم المعتم كانت بعض أزرار سترته، وبنطاله مفكوكة. وما هي إلّا دقيقة حتى انسحبت السيدات اللواتي بقين في الطابق الأول إلى الغرفة المجاورة، وتحرّرن بتنهدات صادقة من أحزمة خصورهنّ، ونفضن القمصان والتنانير الملتصقة على أجسادهن، ليتقطر العرق والماء على أياديهن. أصدرن أصواتاً كالحصّادات المرهقات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

وفيه يمرّ متعهد الدفن في شارع (فرانك يارمياش وزوجته).

لم يعايش متعهد الدفن مزاجاً طيباً كهذا قطّ طوال حياته. كان مرح المزاج كأرغن في شوارع الضواحي. كرسّام شاب يدندن في مرسمه الخاص. كخادمة تنفض خرقة الغبار على شرفة. مرّت في ذاكرته نساء حيّات. ولأرجل النساء الحيّات رائحة مختلفة عمّا للميتات، اللواتي غالباً ما أخرج المتر من جيبه وقاسهن كما يقيس صاحب الملك أرضه. وفي حالة الفتيات الشابات كان يدفعه الفضول لمعرفة كيف أُلبست الميتة ثوبها واحتفظت حتى في النعش بوجهها المحبّب وقدّها المنتظم. لكنه لم يكن يهمّه أمر السيدات العجائز اللواتي يحشين صدورهن، وأحذيتهن بالورق الرقيق. كان ينظر بعين التعاطف إلى مريضات القلب ذوات الجوارب المطاطية اللواتي تشوّهت وجوههن أخيراً بالتجديف أو التعبد. أما مريضات الاستسقاء فقد تجنّبهن على نحو خاصّ، وكان في بعض الأحيان مغرماً... لكن فقط بالميتات الشابات العزيزات طبعاً. كان هذا هو الحبّ الميت اليائس الشاحب في غرف التشريح. صمتُ، وفقدانُ إرادة النساء المطبقات الأعين، غير الأبهات بمزيد من الحياة، القبلة الجليدية للشفاه الباردة، همود النساء اللواتي استحلن إلى باردات، وعديمات المشاعر على نحو رهيب، الخصور التقيّة التي انحنت، ما دامت حية، بشكل رائع أمام كرسي الاعتراف:... هذه كانت ذكريات متعهد الدفن عن موتاه الشابات الجميلات. كان يضع بيد أيّ منهن باقة من الورد مهما يكن مذهبها... لأن قناعة يانوش سيفرا كانت

تقوم على أن النساء ينبغي أن يكنّ متعصبات، متدينات، متحمسات الإيمان، يرسمن الصليب أمام الكنيسة المغلقة، لا يتخلفن عن قداسات أيّام الآحاد، وفي أيّام الصوم الكبير، والأيام الطويلة يمشين بخطى صغيرة كحبّة العدس، ويطفن حول الكنيسة القديمة مع أغاني التراتيل كدخان البخور. هؤلاء العجائز اللواتي استحلن إلى أحجار، ورمال، وأملاح صخرية، وأزهار ذابلة ذرّتها الرياح، وإلى قشور، وأعواد، لا يجرؤن بحضور القداسة أن يتفوّهن بكلمة، فلا جدوى من كلّ ضراعة: الموت واجب.

كان من حبيبات متعهد الدفن الميتات ملكات وسيدات المجتمع. التقت سيدات الدير، وبنات الشوارع على طاولة التشريح بعد أن يجيء بهن ستيڤانيك مع الجليد من القمرة، مطلقاً الألفاظ المقذعة والشتائم نفسها، لكي يأخذ متعهد الدفن مقاسات الجثث من الرأس حتى القدمين. أما الجثث التي لا تعود لأحد، فكان ستيڤانيك يقصّ شعورها بانتظام، ويحصل على دخل جيد من ضفائر النساء اللواتي قذفن بأنفسهن في نهر الدانوب عن جسر بوجوني أو جسر أسترغوم، ولم يكن لهن أحد من قرابتهن في بودابست. ولو حصل مرة وسئمت الضفائر نفسها في دروج الحلاقين، وتحت قبعات سيدات المجتمع: لكان ستيڤانيك يقضي ليالي عديدة لا يستطيع النوم إلى أن يتمكن من إرجاع الشعر إلى صاحباته الحقيقيات.

استيقظ فيه الشعور بالواجب. مضى متعهد الدفن يبحث عن ستيڤانيك، ليستفسر منه عن مجريات المأتمين بعد الظهيرة. كانت المشرحة آنذاك ما تزال في نهاية شارع أوللو. إلى هناك أيضاً كانت وجهة العربة المغلقة السوداء التي تقلّ شرطيّاً عجوزاً ذا شاربين أسودين بسيفه، وساعته الهلالية، يقودها سائق أعور مبثور معروف في سائر أنحاء المدينة بوصفه ناقلاً لامبالياً للمنتحرين. في هذا العام غالباً ما صودفت عربة الموتى في شارع (فرانك يارمياش وزوجته). لم يمرّ يوم تقريباً إلّا وحصل انتحار في هذا الشارع ذي الاسم الغريب حيث فتيات المتعة المطليّات كببغاوات، قطنت في أكواخ صغيرة، وأقفاص متداعية، ودفعن أجوراً لفرانك يارمياش وزوجته.

حين وصل منظّم المآتم إلى المشرحة، كان السائق الأعور يصعد لتوّه إلى العربة السوداء. لم يكن ستيڤانيك في البيت بعد. قالت زوجته إن زوجها

يشرب في حانة (الموقف الأخير) حيث اعتاد حفارو القبور، ورجال المآتم أن يلتقوا هناك بعد كلّ مأتم، ويتناقشوا في نظام العالم، وقضايا أخرى مهمة. «في هذه المهنة يجب أن يتحول المرء إلى سكير»، قالت المرأة، ووضعت في مئزرها الدجاجات، والبطات، والإوزات الصغيرات التي ربّتها على أطعمة غامضة تشبه كثيراً بقايا طاولات المشرحة، لتبيعها في الصباح في سوق بودابست. كانت قد أغلقت في قفص على ديكتها البديعة الصوت، ودجاجها ذي الريش اللماع، ودجاجها الرومي. بطبطت البطّات متوترة كأنها تنتظر كبداً على العشاء.

تبادل متعهد الدفن الحديث مع سائق العربة الذي، بلا شك، كان يعرفه جيداً.

– مرة أخرى، هناك مشكلة في شارع فرانك يارمياش؟ – سأل سيفرا.

أجاب السائق:

– هناك. تبّاً. امرأة أخرى في هذا اليوم تشنق نفسها بالنافذة.

كان متعهد الدفن ضئيل الحجم فاتسع له المقعد ليجلس بين الشرطي والسائق. كان المساء قد حلّ حين انطلقت عربة نقل الجثث نحو شارع أوللو. ناظرو الأبنية، وأفراد الأسر جلسوا أمام الأبنية على أنواع مختلفة من الكراسي، والمقاعد، والصناديق. فاحت من المخابز رائحة الخميرة المريرة، وأمام محلات الجزارين اصطفت السلال المليئة بالبصل، والفجل، والفلفل الأخضر، فيما كانت اللحوم الحارة، والمقدّدة والنقانق المعدة لطعام العشاء، تطلّ من الداخل برائحتها العطرة. كان مساءً صيفيّاً، ومنذ أيّام لم يسقط على أشجار الشارع المغبرّة سوى الماء الذي تدلقه النساء من النوافذ إذا ما مرّ عشاقهن غير الأوفياء مصادفة من هناك. بالقمصان، وبيجامات النوم، وأنصاف عراة انتظر السكان إشعال المصابيح، انتعلت الفتيات الأحذية بأرجل عارية بلا جوارب، ومضين ذراعاً بذراع إلى المدينة ليتمكنّ من سماع بعض الأغاني الجديدة التي يعزفها العازف الغجري الوسيم ذو الشعر المزيّت في مقهى شاركي. زوجات ناظري الأبنية قمن بتهوية أثدائهن الضخمة الرجراجة بمناديلهن الجيبية، ولوّحن بها وهنّ على المقاعد الصغيرة لكي تملأ رائحة

عرقهن الشارع. تدفقت من النوافذ رائحة بشرية مريرة. أشعل بائعو الفاكهة المتجولون فوانيسهم الصغيرة، التي على ضوئها طوال الليل يبيعون الكرز، والفجل، والخضار. صدحت الأنغام مرحة من حانة صغيرة. سكبت الجعة في الأباريق، وأخذ سائقو سيارات الأجرة العائدون إلى بيوتهن استراحتهم في الحانة، فيما كانت نساء بثيابهن البيضاء يدخلن ذراعاً بذراع مع شبان بقبعات أنيقة، إلى خضرة الفناء المسيجة باللبلاب، ذات الطاولات بمفارشها البيضاء، ونبيذها الأحمر. توق إلى الحياة، ضحك (كوقع مطر الصيف)، خصوبة، وجرعة كبيرة من الفسق كمنت فوق الشوارع البودابستية تحت الأضواء الصفراء - الحمراء للمصابيح. انسلّت البلوز البيضاء للنساء تحت المداخل كالنداء. ناظر البناية العكر المزاج الفائح برائحة النبيذ، قبض على ورقة مالية زرقاء ملساء كأفعى، لكي ينصب فخّاً لأيّ فتاة بريئة من سكان البناية. سادة عجزة ذوو شوارب مصبوغة، وأوجه متوردة، وملامح جعداء، وسيقان راجفة، انسلّوا على أثر فتيات عاملات صغيرات رقيقات، وراحوا يلعقون ألسنتهم البنية الضخمة بين صفوف الأسنان الزائفة، وتضخمت أنوفهم، من عطر الزنبق المتأرجح حول تنانيرهن الصغيرة البالية. عيون نسائية يهودية إسبانية برقت بغموض في العتمة، في حين كانت نساء نحيلات ذاويات يقفن متلهفات أمام واجهة محلّ حلويات مع أشبالهن القذرين بثيابهم البالية. تلألأ الألماس المبهر بتحدٍّ بابليّ(*) في الآذان النسائية، وانزلقت قليلاً فروات البجع عن أعناق النساء المسرعات إلى المسرح، خفق النسيم العليل، والحرير، والقماش فوق السيقان النسائية الباردة وغير الحساسة، في حين قامت النساء الشابات الطيبات، المستضعفات، الحساسات بمزج المواد الكاوية، وإشعال الكبريت في أفنية المنازل البائسة. تدحرج الرخيص والثمين، النفاية والحجر الكريم، الخرق والأرجوان في الشارع البودابستي. جلست العاهرة كملكة في حنطورها، وارتمت صاحبة المنزل على الوسائد العاهرة للعربة فيما كانت الفتاة الخيّاطة المريضة بذات الرئة، وعاملة التنظيف اللعينة في الغرف المعتمة، وقاطنات بيوت الكلاب المولودات في مداخل الأبنية، وعلى أدراجها، والخادمات، والعاملات، ورثّات الثياب البائسات يحملْنَ تحت قلوبهن أجنّةً لا يمكن

---

*. نسبة إلى مدينة بابل القديمة.

لأحد أن يتنبأ مسبقاً ما إذا كانت ستترعرع ويغدو منها أساقفة أم لصوص. ساعات مسائية رخيصة في بودابست! الأعباء الثقيلة ذات العيون الرمادية في مخاض الولادة. غيرة الحبّ السارية مع خفقات النبض، والإهانات اعتزلت الآن في الكوخ الصغير، وأطلقت البغيضة والغضب بخاراً كاللحم الطازج. الاستياء يمصّ أسنانه وينصب من جثث النقمة أهرامات على شاشة المخيّلة، فيما العهر يروح ويجيء بتنورة شفافة، ويعرض سيقانه وركبه بمرح. التواقون إلى جزيرة - لا أحد، المختبئون في كثافة كوم قشّ كتب الروايات، التلاميذ ذوو أصوات المراهقين، الفتيات نصف المجنونات، المضطربون، الآنسات الميسورات المتسممات حتى الموت بشمبانيا الحضارة، والأدب القاتل، غير المتعلمين عشاق الممثلين والممثلات، الدنيئون الوضيعون الملوثون بالفساد والسياسة، شيوخ الاحتيال الذين يعانون من عسر الهضم، الشريرون الشبان، اللاإنسانيون، الأوغاد، اللصوص والمختالون، كلّهم بشر تموّجوا في بودابست المسائية حيث تدحرجت عربة نقل الموتى السوداء بحصانيها الهزيلين. كان في حديقة مقهى شاركي، متأنقون، وفرسان بسراويل بيضاء يشربون النبيذ من زجاجة، وناقشوا بلهجة قذرة ما لدى نساء ضاحية فرنتسڤاروش من تفاصيل جذب شهدتها شققهم في أوقات العصر. العازف الغجري انحرف عن مساره الغجري، وراح يعزف أغاني بودابست العاطفية، والأسياد يجترعون بحماس البيرة، والشمبانيا ذات مذاق مساحيق الوجوه، وزيت الشعر، ويتعاملون بخيلاء مع بائعة الورد، وسائق عربة الأجرة، والتلميذ الفقير الحالم، والنساء بتسريحة (الفرو فرو)، وخصل شعرهن الخبيثة، وتنانيرهن المكوية لتوّها، يصغين إلى تلك الحوادث التي أجاد الضباط الشبان النمساويون روايتها لتسليتهنّ. تجوّل كبير النُّدل، والقهوجي بتبسّم أنيس بين الزبائن السادة كما تدلّ هيئاتهم، ساعين لكسب منفعة نوعية من متأنقي المجتمع الراقي هؤلاء الذين لم تكن لحظة دفع النقود لتسرّهم بأيّ شكل من الأشكال. مرّت العربة أمام مقهى E حيث تصدح الموسيقا الغجرية بجنون كأنها الليلة الأخيرة على الدوام. انتشت الأعين والنفوس من الأغاني التي ستتذكرها المواهب في اليوم التالي بشيء من الغثيان. في حوالي منتصف الليل ستغدو للنساء رائحتهن الكريهة وكأن تمديدات الصرف الصحي قد تعطلت في المدينة. يقف العازف الغجري قائد

الفرقة بابتسامة نشّال في مكانه الخاص، فيما الغجر المسنّون يقفون في الزوايا يزوّدون أفراد الفرقة الموسيقية بالنصائح. لا ينتظرك مستقبل باهر في المقاهي إن كنت ستظهر في أفق الغجر والنساء، بلا خاتم، ولا ساعة، ولا ربطة عنق. عزف غجريٌّ الأغنية للقبعة النسائية المريشة، أو لمعطف السفر المعلق على المشجب. أغمض الكونتراس عينيه حين بدأت النساء ترقص على الطاولات. الابتسامة مستمرة على وجوه النُّدل وخدم المقهى. مجرمون كتبوا أسماءهم يوميّاً على مراوح النساء ذكرى الساعات الجميلة التي قضوها معهنّ. وتابعت العربة طريقها، تقرقع عابرة من أمام مقهى نيويورك، حيث قبع صحافيون، وممثلون، وممثلات، يتكئون بسعادة، ويصغون لإطراءات بعضهم بعضاً، ويتفاخرون كيف ستطبع المجلات أسماءهم في يوم غدٍ. وجلست هنا نساء توّاقات للشهرة، حمقاوات، مغفلات، ورجال أوغاد، وربما جلس هنا أيضاً طوال ساعات النهار رجال ساخرون، منحلّون تافهون، يرسمون قلوباً على الطاولة الرخامية، ويظلّون مدينون للنُّدل، ويتكلمون بصوت مرتفع عما قرؤوه مصادفة خلال اليوم، وهم يحرصون على سراويلهم البيضاء كي لا تتجعد. أتوا من المسرح، وذهبوا إلى المسرح. المنتحرون لم يوجهوا مسدساتهم إلى أصداغهم بل نحو البالوعة. - انسلّ هو أيضاً كرؤية غريبة.

كان في شارع (فرانك يارمياش وزوجته) تجمع ضخم مثل كلّ مرة إذا ما حصل في الشارع انتحار أو حفل زفاف.

من بوسعه أن يقاوم هذه الأشياء: الإغراء، النشوة المتكرّرة كلّ ليلة، أنغام أورغونات ما بعد الظهيرة، الغناء المتخبط الحزين للرجل العجوز، تصابي ناظر البناية، الحلاقين، الحلاقات كلّ هؤلاء الذين يطوفون في ساعات المساء بمنتهى المرح والفخامة في بيوت أدراج هذه الأبنية، وممرّاتها، وبين عصاباتها السرية، وغرف نومها، ومطابخها، يجلبون الأخبار، ويسلّمون الرسائل لمعرفة ما جرى في الجوار، يوقظون غيرة الحبّ، كما توقظ الساعة الغاطّين في نومهم. يأتي تجار الشنطة إلى البيوت بالحرير والأقمشة، والمجوهرات: هؤلاء النسوة نادراً ما يبتعن من الحوانيت. تجار الشنطة هم من يحضرون لهن البضائع إلى المنازل. أول من يندهش لقبعة ريش النعام هو تاجر الشنطة. الموضة هنا شديدة الحساسية مثل سوق الخردة: موزاييك

وتعدّدية في الألوان. فجأة تنمو كعوب الأحذية، تشتعل مساحيق الوجوه، التنورة الداخلية حلوة حينما تصدر حفيفاً... في هذه الأكواخ البالية، المعتمة على الدوام تقطن تلك النساء الغريبات تحت رعاية سيداتهنّ. وهؤلاء السيدات يتحالفن مع تاجر الشنطة، والإسكافي، وصانع القبعات، وهن أيضاً الكفيلات الضامنات عند الجواهرجي، الذي يطوف في ساعات المساء من بيت إلى بيت من أجل الأقساط المترتبة عليهن. تجلس النساء مقرفصات في المطبخ يتفرجن على الخواتم، والأساور وهن ما زلن بالقميص والبابوج، ولم يسرحن شعورهن بعد، لكنهن بعريهن هذا لا يغرين الجواهرجي. وفي بعض الأحيان تحصل مشاجرات من أجل النقود أو من أجل عشيق مشترك، فتمسك النساء بعضهن بشعور بعض، ويلعلع المسدس، وتصدح الشتائم، إلى أن يخدش الشابُّ، سببُ المشكلة، ذقنه بلامبالاة بشفرة الحلاقة.

الجميع هنا يستيقظون في الليل. وفي الليل، بعد حذر شديد، ينسلّ عبر البوابة المشبوهة البرجوازي الكبير الكرش، والمراهق الأخضر. لهذه الغرف هنا تلك الرائحة كأنما سَقْيُ عيد الفصح يحصل هنا يوميّاً. الأرائك المتهالكة، المناشف البالية، الفوانيس التي تطلق الدخان، الأسرّة الخانقة، الصور الفوتوغرافية، البطاقات البريدية المصورة هي نفسها منذ سنوات، الساكن هو من يتبدل كلّ فترة، يفنى أو يهاجر، ولا يترك أثراً ويغدو للنسيان، مثل الليل وألعابهن الخاصة، وأصواتهن، وضحكاتهن، ومناقشاتهن السياسية، وأحاديثهن، وكلماتهن المعتادة، وسحرهنّ، واعترافاتهن الغرامية لوجه الرجل النائم... أحياناً يحببن كالنِّمَرَة، وأحياناً يخترن نماذج مثالية لا يمكن رؤيتها في الحياة، إلّا على غلاف مجلة مصورة، أو في واجهة محل مصور فوتوغرافي. بالتحديد: من ذلّهن الحبّ واحتقرهن: هنّ بالتحديد من يحترمنَ السلطان الأعلى، الحبّ العظيم. ليس بمقدورهن أن يعشن يوماً واحداً بلا شخص يحببنه. لا يكرّسن ليلة واحدة حتى لمورد رزق مغرٍ إن لم يتبعها صباح يظهر فيه على ناصية الشارع ذلك الفتى الغريب المجعّد، القذر، السكير الذي ليس لديه شقة مسجلة لهذه السنة في العاصمة، لأنه ينام عند عشيقته. هذا الفتى الصموت، الكئيب، القاتم المزاج، غير المذعور من أيّما شيء، هو الذي يعني لهنّ الحياة، والسعادة، وثمن النضال. أيّة قبلة

حقيقية يلامسن بها الوجه الضجر، وما ألذّ لكمتهنّ يكلْنها عليه، وبعدها يتناولن بشهية طعام الغداء من مطبخ السيدة. لحوم البقر ونخاع العظام التي تطهى بوفرة مع الخضار؛ الإوز السمين السابح في دهنه، السردين بالزيت، والكاڤيار المثوّم: إنهم يغذُّون سكان البيوت.

جلس متعهد الدفن في العربة، في حين قام الشرطي والسائق بسحب جثة المرأة المنتحرة من الحشد الهائج في المدخل المعرّض للرياح الشديدة. سمعت صفرات غامضة في الشارع الفرعي، ركض شبان بقمصان داخلية يسابقون عربة نقل الموتى، تدافعت عاهرات مجعجعة، حملقت عيون ساذجة من النوافذ، قلبوا سلّة عنب الثعلب للفاكهاني المتجوّل، صرخت الصديقة ذات الشعر الفالت والعينين الباكيتين، غبار، اضطراب، دخان مطابخ، احمرار صارخ لمساحيق الوجوه، سخام وماء في كلّ مكان في هذا العالم، الذي أخرجت منه الفتاة المنتحرة. شاهد الجميع المشهد بانتباه لأن من المحتمل في يوم غدٍ أن يوضع أيّ من هؤلاء في العربة السوداء، وسبب الموت: اختناق...

سمع الآن فجأة في الشارع صراخ غامض اهتزّ له متعهد الدفن من وراء ساتر ما أو من مدخل بناية، صرخ أحدهم شيئاً لم يفهمه منظّم المآتم، لكن الصوت هدر في الشارع المزدحم على نحو آمر جعل يانوش سيفرا يبدأ بالتململ، وسأل السائق والشرطي: «ألم تسمعا شيئاً؟»، لكنهما نظرا إليه وهما يهزّان رأسيهما.

- قفا! - صرخ يانوش سيفرا - يجب أن أنزل...

قلق السائق. أعلن أنه لا يجوز التوقف في الشارع بعربة نقل الموتى، ولا بعربة نقل البريد في الشارع العام، خوفاً من عمليات السطو.

وعندئذٍ لمح متعهد الدفن ذاتَ نفسهِ إلى جانب سياج. كان بعيداً عن فوانيس الشارع، والجلبة المهرجانية. وقف هناك في الظلمة بلباسه نفسه، ووجهه، وقبعته التي - منذ الآن فصاعداً - صارت لن تفارق الغريب، المجهول الذي لم يره حتى الآن... لم يستطع مقاومة صوته الآمر. انتظر يانوش سيفرا جانب السياج وانتظر، في حين كان يانوش سيفرا يقترب منه بخطى صغيرة.

الفصل الخامس

وفيه يلتقي المواطن المسالم بـ «حلم».

عاينه جيداً.

كان رجلاً خريفيّاً.

كان وجهه مكسوّاً بلون الأوراق الساقطة الذابلة. خطوط وتجاعيد تتقدم ببطء نحو غاياتها الغامضة، كمسارات الحزن. لم يكن على هذا الوجه أيّ أثر لذلك الشاب السابق العهد كما تخيل متعهد الدفن نفسه قبل ساعة من الآن. إن الشاب القوي الواثق المتألّق الذي كان يتسلّل في حفل الزفاف بين تنورات السيدات، وما إن بلغ شارع (فرانك يارمياش وزوجته) حتى صار كحذاء بالٍ. كان محيّاه حزيناً وشاحباً كأنه نهض لتوّه من مرض طويل. أبقى غليونه في فمه. بدا شخصاً بائساً يسير على الدوام إلى جانب جدران المنازل. لم يعكر صفو كثير من الماء في حياته. أنصت كثيراً، ومشى بهدوء. نظر متعهد الدفن إلى ذاته مصعوقاً. «أتراه يمتهن مهنتي نفسها» - برقت الفكرة في ذهنه.

ظلّ الرجل الحزين واقفاً جانب السياج. لماذا يا تُرى جاء إلى هذا الشارع الصغير، شارع السيدات حيث قد لا تكون هناك حاجة ماسّة له؟ هل قاده الضجر، أو المصادفة إلى هنا؟ بماذا سيجيب إذا ما خاطبه متعهد الدفن، وأخضعه للمساءلة عن مظهره؟ أتراه يعرف أن هناك شخصاً معيناً يعيش هنا في ضاحية فرنتسڤاروش يدعى يانوش سيفرا، يشبهه تماماً في كلّ تفاصيله؟

فكر يانوش سيفرا لبعض الوقت بأيّة طريقة سيدخل في الحديث. فقال أخيراً:

– أليس هذا شارع فرانك يارمياش وزوجته، وأنا لستُ بعيداً عن المنزل الثاني عشر؟

رفع الغريب بكلّ تهذيب قبعته القشّ الدائرية، كمتعهد الدفن، وأجاب بصوت حذر متحفّظ، شبيه بصوت يانوش سيفرا:

– حقّاً يا سيدي، هذا هو شارع فرانك يارمياش وزوجته ونحن على مقربة من المنزل رقم اثني عشر.

تلقّى متعهد الدفن الردّ. رفع قبعته القشّ الدائرية مجدّداً، وردّ الشخص الآخر التحية، كمواطنَين متحضّرين مهذّبين محترمين، وتأهّبا للانصراف.

– شكراً سيدي.

– العفو سيدي.

غير أن فكرة مستجدّة دهمت متعهد الدفن لمتابعة الحديث.

– هل لي، يا سيدي، أن أعرف كم الساعة الآن؟

– بكلّ سرور – أجاب الغريب، وبحركة طقسية، بطيئة، دسّ يده في جيبه، وأخرج ساعته الذهبية. كانت هذه الساعة الأخت الشقيقة لساعة متعهد الدفن. ولعلّ في داخلها أيضاً اسم المصنّع السويسري نفسه.

– الساعة التاسعة – أجاب الغريب، وأرجع ساعته إلى جيب سترته.

انقطع الحديث مرة أخرى. ارتفعت القبعتان مرة أخرى، وافترق المواطنان. اتجه متعهد الدفن نحو اليمين، والغريب نحو اليسار. ولكن ما إن خطا كلّ منهما بعض الخطوات حتى توقفا. كان بينهما مصباح شارع. توقفا وراحا يرمقان بعضهما بعضاً بانتباه على ضوئه الأزرق الشاحب في شارع فرانك يارمياش وزوجته.

مرّت نساء بتنورات صيفية على الحجارة الغرانتية. دخلت الريح في ثيابهن وحركتها كالأشرعة. سمع صوت بيانو في مكان ما. امرأة بدينة سقت أصص أزهارها في أحد الطوابق، وتقطر الماء منسكباً على الرصيف.

فكّر متعهد الدفن في أنه ربما صادف الآن أخاه المجهول الذي لم يعرفه، ولم يره قط. لكن كيف حصل أنهما حتى الآن لم يريا بعضهما بعضاً، ولم يتعارفا؟

وقف المواطنان، ونظرا ماذا يفعلان الآن، ماذا سيقولان بعضهما لبعض؟ كيف سيتابعان حياتهما؟ من الأسهل على متشردين في غابة كثيفة أو على طريق البلد السريع، أن يتعرّفا بعضهما على بعض، من أن يتعرف مواطنان أنيقان في شوارع بودابست.

كأن الغريب قد اكتشف ما يفكر به متعهد الدفن:

- حضرتك غريب في هذا الشارع، يا سيدي. أما أنا فهنا كلّ يوم. هل لي أن أرشدك إلى وجهتك؟ - قال بكلّ أنس.

احمرّ متعهد الدفن.

- لقد ضللت طريقي، وليس لي ما أقصده هنا. لكن قل لي أرجوك لماذا صحت بي حين جلست في العربة؟

أجاب الغريب بصدق:

- أنت تتوهّم يا سيدي. وليس لي ما أقصده هنا. ليس الصياح من عادتي على الإطلاق. أنا شخص في منتهى الهدوء.

- توهّمت... - غمغم متعهد الدفن - لقد سمعت بوضوح أن شخصاً يناديني باسمي، بل وبلهجة جعلتني مرغماً على الترجل من العربة.

استاء الغريب بسهولة (مثل يانوش سيفرا)

- سيدي، لا تتهمني بهذار طفولي. أكرّر القول إن الصياح ليس من عادتي. والآن دعني وشأني، ولا تتبعني.

- أنا لا أتبعك. بل العكس أنت من وقف في طريقي. الأمر لا يستأهل أن أستمرّ في هذه المشادة الكلامية في الشارع - أجاب متعهد الدفن.

رفع قبعته، ومضى مرة أخرى.

ما إن قطع عشر خطوات حتى اصطدم بالشخص الغريب.

- بات الأمر نكداً - صرخ يانوش سيفرا - لكن قل لي من تكون أنت حتى تظلّ تثقل عليَّ؟

عندئذٍ تبسّم الغريب بحزن ورقّة:

- ما زلتَ لا تعرفني؟ أنا حُلُمك.

- حماقة...

أمسك الغريب يد متعهد الدفن.

- لا تزعل، ولا تغضب. لقد التقينا لأننا عمّا قريب سنفترق نهائيّاً. سنموت كلانا. البشر، قبل أن يموتوا يلتقون بأحلامهم الحية. أنا ذلك الشخص الذي يفعل كلّ ما تعتقده في الصباح حلماً. أنا من اقترف كلّ ذلك الشذوذ الكثير، والجنونيات، والطرائف، والأعمال الإجرامية، والفواحش، والشهوات، والعري، ومصارعات الحيوانات البرية، وأكلات العدس، والقبل، وقتال العمالقة والأقزام. أنا سرت على قمة البرج، وفي عمق البئر، وصارعت اللصوص، لمّا كنت أنت تضطجع في السرير.

كان متعهد الدفن شخصاً ضئيل الحجم، لم يحتمل مواصلة سماع ثرثرات الغريب. رفع يده وكال للغريب صفعة اصطفقت على وجهه.

تراجع الغريب بحزن وهدوء، وغمغم بلهجة موبخة هادئة:

- هل جننت، يا يانوش سيفرا؟ تهينني؟ تهين نفسك؟ لقد تناسيت تماماً سني شبابك حين كلانا كنا نتمتع بالبراءة والنقاء، وكنا نذهب معاً إلى الأعـراس، وكنائس الضواحي حيث ركعت العرائس عند المذبح وهن في حالة خارج أنفسهن، أو وقفن على السلّم في وهج الظهيرة، وقد بانت تنانيرهن الداخلية فوق أحذيتهن البيضاء، والآس يكلّل رؤوسهن كتاج أجمل الملكات؛ كانت باقات زهور العروس من زنبق الوادي الذي رشّه الكاهن بالماء المقدس، وتوقف قائد فرقة التراتيل عن العزف على الأرغن (بناء على إشارة من الكاهن) دافناً رأسه الضخم الحزين الكثيف الشعر براحتيه على منصة الفرقة الموسيقية، في حين عند المذبح كان القس الحليق الوجه بعباءته الحريرية، يشير بيديه، ويغمض عينيه تارة، ويفتحهما واسعتين تارة أخرى، متقمصاً القديس والساحر، مبتسّماً بذكاء للأذكياء، مبدياً إيماناً متشدّداً للمؤمنين بالخرافة، وبصوت متشرّد طيب راح يضرب أمثالاً عن قداسة الزواج. أوو كم أنصتنا إلى طقوس الأعراس في الكنيسة - ربما بقدر ما أنصتت ابنة قائد جوقة التراتيل التي تجلس إلى جانب أبيها على المنصة، وتلاحق بعينيها تصرفات العرائس أمام المذبح... كم مرة كنا عرساناً وقطفات زهرة الوادي على معاطفنا، كم مرة بعد الانتهاء من الطقوس

تبادلنا قُبلاً مع صديقات قلقات شاحبات، مع أعمام برائحة الثوم، مع عمات لأنفاسهن رائحة الخزام، والعفن، مع مشاهدين حاضرين، مع غرباء لاذعين! كم مرة جلسنا في عربات مزينة بالورود إلى جانب العذراوات اللواتي، بعد خروجنا من التدابير الكنسية مضينا بهن كي نريهنّ في الواقع أنواع الآلام والأفراح، دواخل السفن المتهادية على البحر، الدم الأرجواني النازف عند انشقاق الفجر فوق الوسائد الناصعة البياض، سباقات المتعة والألم، السلّم الرائع للصراخ، الويل الجمريّ الملمس، تساقط الآس، دوران بياض العيون، القمة المهمازية للرجولة، الحفلة الهاربة للعش العندليبي الذي ليست منطقته أوسع من منطقة خاتم الزفاف:

نقضي ليالي الزفاف التي يعلن العريس المتديِّن بدايتها برسم الصليب مرتين، وتردّد العروس بصمت صلاة كانت تردّدها في الطفولة، ثم تسقط الثياب والجوارب كبتلات الزهر، ويتخذ الجسد الصغير الذي ينتظر مرتجفاً الرداء الأحمر للمحقّق، يتّخذ ذلك اللون عندما يسرح ضوء القمر الأصفر حالماً عبر بياض زبد البحر... هذا على الأقل ما فكّرنا به نحن، وهنّ في ليالي السهر المقمرة في معهد ماريا، ودير مارنميت قد نسجْنَ لأنفسهن صوراً تناسب أفكارهن. - تذكر أيّها المتعهد المأتمي العنيد أن عروساً موشحةً قد أقسمت لك ذات يوم في كنيسة ساحة باكاتش!

تسكّعنا في شارع جيب تحت نوافذ البيوت الأرضية حيث كانت النساء في الأماسي الصيفية يفتشن عن البراغيث في ملابسهن الداخلية. وجلسنا في حانة شارع ڤيولا حيث عزفت مقطوعات كوشوت بالتناوب مع فاتحة النشيد الوطني النمساوي، وشربنا نخب الصداقة مع مواطنين يخافون زوجاتهم، وبمنتهى الابتهاج اجترعنا معهم المشروب الذي يجعل المرء يفضح بعض الأسرار العائلية. أوو، حتى السيدات المدنيّات لَسْنَ متشابهات وراء الأبواب المغلقة لغرف النوم! مكابدات فريدة - أشبه بعروض سيرك - في أثناء النهار هنالك حاجات جسدية إنسانية تذكر بازدراء، تتجلّى في الصمت، في الوحدة- يركب القرد على الطبل - يشاهد الجزار المتغطرس وجهه في المرآة ذات القوائم. تتلاعب النساء بالماء الراكد بالعرق، بلسان الأفعى، فيما الرجال السكارى يختبئون تحت السرير هرباً من غضب

زوجاتهم، وعنفهن، وصراخهن. لو لم نعرف إلّا قصص غرف النوم في شارع ڤيولا، لما بقي أمامنا سرّ من أسرار الحياة، أو سلوك إنساني إلّا وعرفناه. ما أكثر الحوادث في شارع ڤيولا، وما أشدها تنوعاً - في شارع أنجال صرخت العروس كأنهم يقطعون حنجرتها، ورمق قمر الليل الصيفي البيوت في الطوابق الأرضية بنظرات رقيقة متسامحة. في شارع باڤا أطلقت السيدة شتائمها في ليلة دخلتها كقائد حرس على الرغم من كونها تزوجت هذا اليوم، ولم يؤدِّ الزوج واجبه على نحو ملائم. صراخات متعة، غمغمات سعيدة، آهات مكبوتة، كلمات مهدئة متوترة سمعت وراء نوافذ شارع ليليوم حين كان زفاف في الشارع... حتى النساء المترملات مرتين خجولات... والرجال بائسون كالأسماك على اليابسة.

- أجل - قال متعهد الدفن - كنتُ على الدوام شخصاً طيب القلب، وأشفقت على المخلوقات النسائية الضعيفة بسبب الرجال المتوحشين.

لوّح «حلم» بهدوء:

- دعنا من هذا الرياء، يا سيد سيفرا، كلّ منا يعرف الآخر. ففي حين كنا خلال النهار نرتدي ملابس عملنا السوداء بوجوه متأثرة، مهيبة، حزينة، شبكنا أيادينا كخادمي الكنيسة، ونظرنا إلى السماء كالقس في المآتم: كان كلّ منا ليل نهار، في حياته الآخرة كعصفور دوري ذكر بربطة عنق سوداء، فوق السقف القرميدي يرقص رقصته المستحيلة حول أنثاه الصغيرة الرمادية. كيف وقفنا بعضنا ضد بعض، كيف شحنّا نفسينا، وكدّرنا بعضنا بعضاً! ركبنا فرساً بريّة ببنطال أبيض ضيق: على مرأى من سيّدتنا. كنا شاعرين نقضم الريشة بنهم فوق الورق الأبيض. لَعْلَعْنا، وفرقعنا على طريقة الديكة السود. صدحت في قلبنا أنغام الأرغن، وغرفنا المال كالطحين من كيس النقود. دعنا من هذا الرياء، لأنه ما الذي سيحصل إذا ما تشبثت النساء بالوعود التي قطعتها لهن في حلمك. تذكر فقط كم مرة نمت عند قدمي الخيّاطة الصغيرة، وهي تحرك برتابة، وحياد، آلة الخياطة برجليها بالجوربين الأبيضين! تذكر زوجة الجزار ذات العنق الأحمر التي كثيراً ما هربتْ في الليل من جانب زوجها. فكر بالكلمات التي أعطيتها في حلمك للنساء المشبوهات. يمكن أن تقيم في السجن طوال حياتك، بسبب ممارساتك الغرامية العنيفة التي

قمت بها وأنت تأخذ غفوة، وفي أحلام يقظتك... لا أحد سرق لحماً أجنبيّاً مقدّداً من المداخن، كما سرقت أنت يا سيد سيفرا.

نظر متعهد الدفن إلى ساعته الذهبية ذات الغطاء المزدوج:

- لا أدري لمَ أصغي إلى ثرثراتك اللامجدية. المنطقة كلّها تشهد بأنني كنت دائماً شخصاً محترماً. منحت الجميع ما ينبغي من الاحترام، برفع القبعة، وحسن الخلق.- لا أحد رفع قبعته بقدر ما رفعتها - لكني في الوقت نفسه طالبت بأن أكسب الاعتراف الواجب. اعتنيت بمظهري: كنت أول من يقصد الحلاق كلّ يوم، ولم أمضِ ليلة قلق واحدة بسبب دينٍ ترتب عليَّ. لم أتعهد مأتماً عن طريق الكفارات الائتمانية لأنني أكره المضايقات - كنت أفضل أن آخذ تعهداً، مجوهرة عائلية أو معطفاً وكنت أرجعها بدقة، ومن دون نقصان... كنت في حاجة إلى مثل هذا التعهد فقط لأنني أعرف البشر. يحبّون موتاهم حتى لحظة مواراتهم الثرى فقط. من سيدفع من أجل عجوز مضى أسابيع على دفنه؟ لا معنى إذن لأية كلمة أسمعها منك وتقلّل من احترامي. أنا على الدوام أقف بكلّ طمأنينة أمام القاضي. يانوش سيفرا شخص محترم ونزيه طوال حياته.

«حلم» لم يعلّق. أمسك بذراع متعهد الدفن، وحدّق بعمق إلى عينيه. وهمس له بسرّيّة:

- تُرى، ما الذي يبحث عنه يانوش سيفرا هذا المساء في شارع فرانك يارمياش وزوجته؟ أنا أقول ليانوش سيفرا إن كان لا يدري. متعهد الدفن يفتش هنا عن عروس كما جرت العادة عند المواطنين الذين أكلوا حفل الزفاف، وشربوه، وكانوا شهوداً على الرقّة السرية، وخسارات الذات، وبذاءات الأعراس، والأحاديث المبهرة، والنظرات المقلقة. عادة قديمة للمواطنين أنهم بعد حفل الزفاف يتوجّهون إلى شارع فرانك يارمياش وزوجته، ويأتي إلى هنا ذوو الأعصاب الضعيفة من المآتم، ومن جلسات المحاكم، وبعد محاكمات الطلاق، وفي أعقاب الأحزان والملمّات العائلية. يظهر هنا الأزواج المخدوعون بعد أن شهدوا بأم أعينهم خيانات زوجاتهم وهم تحت الأسرّة، أو من خلال شقوق ستائر النوافذ غير المسدلة

جيداً... وإلى هنا يأتي المشيّعون الذين عند وقت العصر دفنوا كلّ سعادتهم تحت التراب. وهنا أيضاً يمكن العثور على المساجين ذوي الوجوه الرمادية الأشبه بلون شبكة العنكبوت الذين جاؤوا خفيةً وبهدوء بعد أن أطلق سراحهم صباحاً من السجن حيث أمضوا سنوات لارتكابهم جرماً ما باتوا لا يتذكرونه أساساً. لخطوات الشرطي وقع مخيف في هذا الشارع أكثر من أيّ مكان آخر. متوارون يختلسون النظر من وراء أطراف ستائر النوافذ. سكّير يغني بكسل، لصّ يأخذ نفساً عميقاً وينام، المجرم هنا سيد نبيل يخدم السيدة التي جرفتها المصادفة إلى حضنه. هذه الجدران التي نادراً ما يقومون بطلائها - حيث لا أحد يقطن لمدة طويلة في هذا الشارع - هذه المفروشات التي تخدم راحة الناس وترفهم، المرايا التي وقف أمامها كلّ صباح كثير من الوجوه العكرة. أقفال الأبواب، ناظرو الأبنية، المتواطئون الذين يسمحون بالدخول للمترنحين والسكارى، والزناة المتسللين، والذين طعنتهم الحياة في قلوبهم، الممرات المعتمة التي تلتصق على كلّ حجر من حجارتها وردة مسحوقة وذابلة للشباب الراحل. نغمة الأرغن اليدوي التي تصدح هنا عصر كلّ يوم كأغنية موت موصى عليها مسبقاً من بين الأموات... أليست هذه الأشياء تملأ بالقرف الشخص الشديد النزاهة من أمثالك سيد سيفرا؟ ومع ذلك تتخفّى هنا تحت غطاء الليل... تسترق النظرات في الظلام إلى أطراف الأثواب النسائية... تنتظر تحت مصباح الشارع نظرة صارخة من امرأة تتعثر بها... تلاحق السيقان المتهادية ذات الجوارب البيضاء... على الرغم من أنك ذات مرة حين دخلت إلى أحد المنازل عاشقاً مفلساً سكيراً في ريعان شبابك، قد أشبعوك ضرباً وشتائم، وطاردوك بالمكانس القذرة مع ناظر البناية حتى قبضوا عليك عند الناصية وسلّموك للشرطي ذي الشوارب الضخمة... والآن، وقد صرت عجوزاً، تكرّر انجرافك إلى هنا، يا يانوش سيفرا، وما أنت سوى ورقة ذابلة بائسة؟

وضع متعهد الدفن يده على ذراع «حلم»:

- لا جدوى من كلامك أيّها العجوز. لقد سمعت في حياتي ما يكفي من المواعظ. لا معنى لكثرة الحديث. يجب عليَّ أن أنزل الميت إلى القبر. مهنتي شهيرة بالسرعة. إطباق التابوت، ثم حمله بسرعة لكي لا يتوافر

لأفراد العائلة الوقت الطويل للوداع، وإلّا فسوف يظلّون يبكون، ويولولون، ويتشبثون بالتابوت... هيّا نذهب! - كنت أصرخ دوماً. هيّا نذهب إلى ذلك المنزل حيث تسمع أصوات مشاجرة ضخمة. أتراهم الآن يغتالون أحداً ما؟

هكذا تكلّم متعهد الدفن، ورمى بقبعته الدائرية بوقاحة. ازدادت حالته المعنوية الحازمة بعد النقاش الذي أجري مع الحلم. مضى إلى الأمام بخطوات مرنة بمجرد أن خطا فوق العتبة المهترئة.

الفصل السادس

وفيه: المرأة ذات الثلاثة آلاف عام تعامل الرجل العجوز المذنب كما يستحق.

كان المنزل - كأيّ منزل في شارع فرانك يارمياش وزوجته- معتم الفناء، عفناً، متداعياً، وكأن مَنْ قام ببنائه قد خطّط له منذ إنشائه ليبدو قديماً، ورثّاً. لقد تقشّر ملاطه، وكانت النوافذ قذرة كالوجوه التي ألفت النظر إليها. وبدت السلالم كأنها مبنية خصيصاً لكي يحطم رجل ثمل عنقه على درجاتها، بعد أن تكون قد سحبته ودفعته، وجرّته إلى الأعلى لكي يجرّد من ساعته، ومحفظة نقوده في غرفة معتمة... كان منزلاً كأنه مقتطع من رواية لتشارلز ديكنز، أمّا هو فلم يكن يعرف ذلك.

كان يحصل في الفناء عراك مسائي كبير.

ومركز العراك كان ناظر البناية، وهو شاب فارع الطول، نحيل، مبثور الوجه، له هيئة سجين، لم يكن يحبّ شيئاً في العالم قدر محبّته للإكرامية. اختصم مع فتاة يبدو أنها قلّلت الإكرامية. اندفع سكان المبنى إلى النوافذ، وحمل بعض منهم عشاءه إلى عتبة النافذة (اللحم المقدّد، السمك المخلل، النقانق المثوّمة، والبيرة التي لا مفرّ منها) لكيلا يفوتهم أيّ شيء من تفاصيل العراك. وقفوا هناك، وجلسوا، وشكّل بعض منهم وردة على شعره، واعتمر آخرون القبعات (حتى قبل أن يرتدوا قمصانهم)، وقبع بعضهم بالعباءات المنزلية التي اعتادوا قضاء الليل بها.

كان كلّ شيء مكتظّاً بالأبخرة الحارة كحمّام ساونا يعمل في الليل ويستحمّ فيه الرجال والنساء معاً.

تعرّق زجاج النوافذ، تلولب اللهب الكحولي أخضرَ كاللهب في مطبخ الساحرة حيث يتمّ طهي العيون البارقة السوداء، والشفاه المحمرّة الخاطئة، والآذان المتوردة، ويتمّ تجعيد خصلات الشعر، وتشذيب الأظافر وطلاؤها بالأحمر. التفتت من المرايا، الألسنة المتورمة الحمراء كالدم، والعيون المحمومة، والأكتاف البيضاء، وطار المسحوق والحرير كما في غرف الملابس في دور المسرح، يبرّدن هنا أداة تصفيف الشعر برسالة غرامية، يقفن بعناد بأحذية ذات كعوب عالية إلى جانب الجدار في الغرفة الأولية كخيول السباق في الإسطبل؛ الدانتيل الخفيف يخفي برقة ندوب الأعناق؛ طلاء الوجوه يتدحرج بزجاجته إلى تحت الطاولة كأنما لن تكون له ضرورة مطلقاً بعد هذه الليلة.

راح الشاب الذي سكن في الشقة - بكونه تحت رحمة امرأة ناضجة لم تبلغ الشيخوخة بعد - يضرب الباب في الطابق الأول من الداخل بعصا كبيرة. صمت ناظر البناية للطرق العالي، وانسحب إلى مخبئه مغمغماً شاتماً. وهكذا انتهت المشاجرة.

- لماذا تقفون فاغري الأفواه؟ لينصرف كلّ منكم إلى عمله.

وبهذا عمّ الهدوء في المنزل.

السيدة الناضجة بيلا لم تكتسب سلطانها من ثرائها وحضورها فحسب، بل من كونها على صلة قربى مع المالك فرانك يارمياش وزوجته.

إلى هنا سعى يانوش سيفرا وصديقه «حلم».

- جئت في وقت غير مناسب، مأتمي بعيد - قالت السيدة بيلا حين رأت متعهد الدفن - أهتمّ حالياً بجمع الجواهر. أحجار، وفتيات. أتريد أن تبيع أو تشتري، يا يانوش سيفرا.

أجلست بيلا الزائرين في المطبخ، كصديقين سرّيين قديمين. (كانت قد تعرّفت على يانوش سيفرا من خلال المآتم التي نظّمها لبعض من معارفها النساء. في الشارع، كانت بيلا تحترم الميت فتذهب إلى مأتمه بالحنطور). كانت المرأة تحضّر العشاء لتوّها لأنها هي من زوّدت بالطعام تلك الفتيات اللواتي لا يملكن مالاً كافياً. لقد سكنت عندها على الدوام فتاتان أو ثلاث،

تكفّلت بأعبائهن، وحمّمتهنّ بالحليب والزبدة. أن تتمكن إحداهنّ من السكن لدى ييلا، فذلك بحدّ ذاته تكريم، ومصداقية. إن التاجر المدعو (روزنباوم وكويت) في هذا الشارع يبعث بكلّ سرور أجمل المجوهرات، وأفضل الثياب «لفتيات ييلا».

كان العشاء إوزّاً محمّراً.

وضعت المرأة فخذ الإوز أمام يانوش سيفرا وصديقه، وقطعت الخبز الأبيض الهشّ، وفتحت زجاجة شمبانيا، وتابعت انهماكها في المطبخ.

- يجب أن تقتنعا بالأكل بالأيدي. لا وقت لديَّ لإقامة عشاءات ضخمة، لأن أشغالي كثيرة. أنا أعمل طوال الوقت لأنني امرأة محترمة طوال حياتي. لا يعيبني العمل. أشطف الغرفة بكلّ سرور. لكن الغضب يركبني إذا وجد في المدينة رجل يتكلّم عني بسوء. أجل، ييلا تغسل، وتكوي، وتطهو، وتشطف، وتجمّع الكرايتسارات(*) بعضها إلى جانب بعض، وتبتهج إذا ما قدمت لها أبسط الهدايا، لأن عليها أن تعوّض أموراً كثيرة. أخذت المهراتُ ثروة كبيرة.

- المهرات؟ - سألها يانوش سيفرا مندهشاً.

- أنت طبعاً، بوصفك مواطناً محترماً، ألا تدري أن سباقاً للخيول يقام في بودابست؟ - غضبت ييلا- طالما قلت إن الأجلاف هم السعداء في هذه المدينة فقط. في صباي، حين قدمت لي الحياة كلّ شيء على طبق من ذهب، كان الحنطور يقلّني وكأنني مجنونة: الكونتات، والسادة، وساسة الخيل هم من كانوا أصدقائي. عرفني الجميع في حلبة سباق الخيل. لوّح لي أليمير باتياني ما إن رآني من بعيد. جاء يانك ليتعشى عندي. اهتزّت لحية سيميري من الضحك حين كنت أروي له النكات. كان حبيبي أجمل الشبان وكنا نحبّ بعضنا بعضاً كثيراً. كان نقيّاً كطفل السكر... ثم صرت ألعب لحظّي الرديء. خسرت كلّ شيء. كان لديَّ حوالي مئة ألف فورنت... أطهو الآن في المطبخ لأستردّ المئة ألف فورنت خاصتي. لم تعد تنقص كثيراً.

سال دهن الإوز على شفتي متعهد الدفن. أعطى الحق في سرّه لأولئك الذين يثنون على طبخ ييلا.

---

*. الكرايتسار: نقود معدنية صغيرة - المترجم.

- تناولا القثاء المخلّل، أنا خلّلته في الأسبوع الماضي.

أكل منظّم المآتم من كلّ شيء. جلس على الكرسي الخشبي في المطبخ بمهابة وجدية كما يليق برجل محترم.

- لديك وجه صادق - قالت وهي تقيس زائرها بعين واحدة - يجعلني أقبلك بكلّ سرور مشرف عملٍ لديَّ. تحمل المناشف، تصبّ حوض الغسيل، تفتح الباب للزوار... هذا سيكون عملك، ألديك المزاج لذلك؟

رفع متعهد الدفن غطاء طنجرة فوق الطبّاخ، ونظر بفضول إلى ما بداخلها.

ضربت بيلا بملعقة الطبخ على يده.

- أنفك مثوّم منها.

كان حساءً بلحم البقر وعظمه، وكثيراً من الخضار، وفاحت رائحة الفلفل، والقرنبيط، والجزر، والكرفس. وبان أيضاً في الحساء قطعة من لحم الديكة.

- حتى يوجف فرنتس لم يأكل مثل هذا الطعام - غمغم متعهد الدفن.

- أعتقد ذلك - أجابت بيلا- هذا الحساء لمليكي أنا. كلّ يوم حين يستيقظ يأكل لحم البقر المطهي.

- يؤسفني أنني لم أكن في يوم صديقاً للنساء. أظنّها أجمل المهن في العالم - قال متعهد الدفن متأملاً.

- كلّ حبيب لي كان في أفضل حال معي ما دام وفيّاً لي. صحيح أنني لم أحتمل مكالمتهم للنساء، لكنني كنت أرعاهم، وأغذّيهم. معزّتهم في قلبي تفوق محبّة أمهاتهم لهم. سهرت على أحلامهم، نظفت أحذيتهم، غسلت جواربهم، وسراويلهم، وكويتها، واعتنيت بهندامهم، حتى إنني حلقت ذقونهم إذا ما كان دكان الحلاقة مغلقاً... حبيبي أنا كان المتأنق الأول في المنطقة. حتى إنني منحته مصروف جيب إن لم يكن يملك النقود. عطّرت منديل جيبه بأروع البارفانات، حتى إن الأحياء المجاورة كانت تتعرّف على عطوري، التي لا مثيل لها، ولا يحوز عليها أيّ شخص كان في بودابست.

كانت بيلا تتكلّم، وكان متعهد الدفن يراقب بانتباه السيدة المكتنزة، عضلات جسدها الصلبة، وجهها الهادئ الحازم، عينيها الباردتين، جبينها

البارد، شعرها المسرّح إلى الخلف. لم يبدُ على هذه المرأة ما هو متكلّف، إلّا أنها كانت غاضبة كتلك السيدات صاحبات الأملاك اللواتي يحلم بهن الرجل وهو في سرير مرضه. لعلّ المرء إلى جانب مثل هذه المرأة يتعذّر عليه أن يموت. يا له من نظام تقيمه في منزلها...

- إذا ما فرغ المكان ذات مرة، اقبليني دميةً لك - قال يانوش سيفرا ضاحكاً، ولعلّه كان يفكر جديّاً بما نطق به.

لم تستهجن بيلا عرض متعهد الدفن.

- لا يمرّ يوم إلّا وأسمع ما يكفي من العروض حين أذهب إلى السوق بالصندل، حاسرة الرأس، ومعي السلة، قاصدة بائعة الخضار، أو الكشك لأرى رقم بطاقة اليانصيب إن كان رابحاً. في الطريق، كم يمتدح الرجال خصري، وساقيّ، وكتفيّ. لكن هؤلاء الرجال يخطئون. دمي بارد كالبحيرة. لن أقوم بعد الآن بأيّ عمل مجنون فيما بقي من حياتي. أنا امرأة جادّة.

- وأنا أيضاً رجل جادّ - التقط يانوش سيفرا الكلمة.

- لا اعتراض لديَّ من ناحية سنّك. أحبّ الرجال الكهول.

صديقتي أسعد النساء منذ أن تزوجت قبطاناً متقاعداً. القبطان رجل نظيف ومريح، يقارب الستين من العمر، كقرب يوم السبت من الأحد. باعتقادنا نحن أن الرجل النقي لا يمكن أن يشيخ. لا يكنْ سميناً جدّاً فقط، لا يبصقْ، لا يكذبْ، لا يشخر، لا يتحامق. ويجب عليه بانتظام أن يزور الخلاق، والخياط، وبائع الملابس الداخلية، والإسكافي، وألّا ينسى نفسه في أثناء السكر، وألّا يأخذ قيلولة بعد الغداء. ولتكن أسنانه، ويداه نظيفة وفمه طيب الرائحة، وأخلاقه عالية، ويبتعد عن الشتائم، ويزور حمامات البخار ما أمكنه ذلك، ولا يلوّث ثيابه بالأطعمة، ولا يرمي حذاءه، ولا تتعرق يداه ورجلاه... وليكن متديّناً لأني أؤمن بالله الخيّر الذي أعانني في كلّ خطوبي حتى الآن.

سمعت في هذه اللحظة شتائم قوية مختلطة بصوت انسكاب الماء المنبعث من الحمّام.

- هنريك لم يجد المنشفة - صاحت المرأة وخرجت راكضة من المطبخ.

أشعل متعهد الدفن سيجاراً، وطاف في المنزل. اشتعل الفانوس بخفّة في

الغرفة الأولية المعتمة. انفتحت من اليمين واليسار الأبواب التي يعيش وراءها الناس أغرب أشكال الحياة. تضطجع النساء ربما على الأرائك، ضجرات يشاهدن زخرفات السقف بعيون جوفاء. تتزحلق نظراتهن بلامبالاة فوق الصور العارية التي شاهدنها مئات المرات. وكم مرة رحن يبحثن عن حياتهن في خطوط السجادة حين يبزغ القمر من خلال النافذة. ثمة حياة هنا، بتنوع ونوم، باقتضاب وغرابة، ببكاء وغرابة... تحلّق تحت سقوف الأسرّة، أطياف الملابس الجديدة، والأحذية الجديدة، والمجوهرات الرخيصة، متماوجة مع الشوارب الرجالية المشمّعة، والوجوه المتهورة الحليقة، وتسريحات ذيل البطة. تتقدم الأرجل على رؤوس الأصابع مقتربة بكسل من النافذة لتلقي من خلال شقوق مصراعيها نظرة إلى وقت ما بعد الظهيرة الحارّ. يتابع عقرب الساعة دورانه النعسان خلال النهار - ينشط على الأكثر عند وقت الغداء - وعلى السجادة في العتمة تتربّع النساء قارئات البخت بورق الشدة، والنساء الشاخصات العيون، والخياطات، والجارات، ويروين الحكايات الطويلة كما في ألف ليلة وليلة. أيّ سعادة تمنحها الحياة هنا - فكر متعهد الدفن- وما أجمل ألّا يعرف المرء عن الحياة الواقعية الشاقة إلّا ما يقرؤه بشكل خاطف في جريدة ما بعد الظهيرة. الرجال هم كثرة من الفرسان الذين يرجعون صاخبين إلى المنزل الهادئ، وكأنهم لم يأتوا من الشارع، بل من بلد أجنبي على الأقل. والنساء هنّ سيدات الدير اللواتي يصغين بآذان متعطشة لافتراءات الرجال المتنوعة.

رجعت ييلا.

كان وجهها أكثر احمراراً من عادته، وعيناها تقدحان شرراً.

وبعد قليل خرج من الغرفة الأولية رجل أنيق طويل القامة، كاد لشدة غضبه أن يخلع قفل الباب.

- قلت له ما لديّ. يجب عليه ألّا يطلق الشتائم في منزلي - غمغمت ييلا وهي تتابع الخطى الخابطة النازلة على الدرج.

- تختصمان كثيراً؟ - سألها يانوش سيفرا بفضول.

- وما علاقتك أنت - فرقعت ييلا- أودّ لو تقول لي ما الذي أتى بك إلى هنا مع هذه السمكة، صديقك الأخرس؟

ضحك متعهد الدفن:

- أتينا دونما سبب، مثلنا مثل الآخرين. مررنا من هنا بالمصادفة.

قطّبت بيلا جبينها:

- من جهتي، يمكنكما البقاء هنا. لكنني أكرّر أنني لا أحبّ الأشخاص الذين يحشرون أنوفهم في كلّ شيء. ممنوع هنا التلصص، والتنقيب، والفضول، فلن يجدي ذلك نفعاً على الإطلاق. مسموح هنا المجيء والذهاب، ولا شيء آخر. أنا لا أطيق الزبائن الذين يطيلون زياراتهم. كان سيّدي قبطان السفينة طويل الزيارة بما يكفي. طفح كيلي منه. اذهبا إلى الصالون.

نهض يانوش سيفرا مبدياً انحناءات كبيرة، ودخل مع صديقه إلى الغرفة المشار إليها. ما إن انغلق الباب حتى قال التاجر الرزين لصديقه:

- إذا استمرّت المرأة عدة سنوات أخرى تطهو مثل هذا الطعام، فسيكون قليلاً عليها (بونتوس)(*) الأعظم الذي كان في حيازة أنترابريز.

لكن (حُلُم) لم يصغِ إلى متعهد الدفن، بل تربّع حالاً على السجادة ليفتش عن شقّ الباب المفتوح على الغرفة المجاورة، الذي يتيح له التلصص على سيدات المنزل. عثر حُلُم على ثقب التجسس، فاستقام ظهره كقطّ الكوندور فوق سقف البيت.

استقر يانوش سيفرا على الكرسي، وأسند يديه إلى ركبتيه كأنما أراد بالدرجة الأولى أن يريح يديه الصغيرتين اللتين أرهقتا في الطريق الطويل. طاف بعينيه بهدوء في الغرفة. كان هادئاً وكأنه وصل إلى المنزل بعد انتهاء مأتم، وأخرج على الفور من محفظة أوراقه لائحة الأسعار. كان على الطاولة التي أمامه شتّى أنواع تماثيل الزينة من الزجاج والبورسلان والبرونز كما يبيعونها في الأسواق.

توضع هناك قزم بقمعِه، ومندرين صيني بمظلّته الشمسية، وتمثال برونزي لإنسان مقرفص، ومرمدة السجائر البورسلانية كان على صفحتها

---

* بونتوس: اسم منطقة تطلّ على البحر الأسود، واتخذت في العهود اليونانية اسمه نفسه: أي البحر المضياف - المترجم.

العليا ضابط ألماني يتنزه ممسكاً بيد فتاته ليوم الأحد التي تعتمر قبعة أزهار على رأسها، ووجهها أحمر كالنقانق في حوانيت الجزارين. فيما بان في قاع المرمدة من الخلف الثنائي المتنزّه نفسه، لكن بأيّة وضعية مميتة! سيف السيد الضابط علق بطرف تنورة السيدة، فارتفعت التنورة عالياً وأظهرت إضافة إلى رباط الجوارب، ذلك الجزء من الفخذ الذي اعتادت أكثر السيدات تميّزاً أن تجلس عليه. تصور متعهد الدفن أن العابرين يمكن أن يهزؤوا من شارع under den Linden(*) حينما يشاهدون الثنائي الفريد من الخلف. بومة من البرونز تجلس على ركبة امرأة عارية. قطط عقفت أذيالها، وكلاب صغيرة زجاجية ذات أعين ذهبية تعاونت بعضها مع بعض.

على الجدار الصورة العارية المألوفة: سيدة تضطجع عارية على الصوفا. لكن صورة متميزة أخرى أيضاً كانت هنا. صورة سباق الخيول: خيول رؤوسها صغيرة، أرجلها رفيعة، أعناقها طويلة، تعدو ممتلئة الظهور، وتقفز في الميدان الأخضر، ويسوطها فوق السروج حوذيّو حناطير في داخلها نساء بدينات ونحيلات بعيون محدّقة بأقصى اتساع لها وبتنانير واسعة، وقبعات مربوطة تحت الذقن، ومتأنقون بقبعات أسطوانية رمادية، وحشود بشرية في المدرج المليء حتى آخره، والراية ترفرف بفخر في أعلاه. وكتب تحت الصورة: سباق ليفربول الكبير للحواجز 1836 - لو تسنّى لمتعهد الدفن قراءة بقية اللافتات لتعرّف على الأشكال الواقفة في الحناطير، ولتعرّف على كثير من الأمراء، واللوردات، والليديات. إلامَ استحالت العيون الجميلة لهذه النساء منذ ذلك الوقت؟

- نرغب في أن نشرب شيئاً؟ - قال حلم الذي عاد محمرّ الوجه من عند ثقب التلصص.

- حفّارو القبور يشربون فقط، وإلّا فإنهم لن يحتملوا مهنتهم القاسية- أجاب يانوش سيفرا.

غير أن (حلم) بلا كحول بوسعه أن يفعل ما يشاء مع المتعهد. تناول التماثيل البورسلانية والزجاجية واحداً واحداً عن الطاولة، وأعاد وضعها

---

*. شارع شهير في برلين (ترجمته: تحت أشجار الزيزفون) - المترجم.

على المفرش: صار هؤلاء على قيد الحياة. سعى تمثال الإنسان المقرفص أن يحرك وجهه البرونزي مرحاً ليشكل أطول ما يمكن من شريط الرماد، وأخذ القزم يعانق قمعه، وراح المندرين يتجول متباهياً فوق الطاولة، وغادر الثنائي البرليني المرمدة، وأدارت المرأة ذات القبعة الوردية رجليها العاريتين نحو متعهد الدفن. كما نفخت روح الحياة في الصور المعلقة على الجدار. وشيئاً فشيئاً أدلّت المرأة المضطجعة يدها ذات الخواتم، وأخرجتها من إطار اللوحة، وتحركت الهيئات في سباق الخيول مهتزّة يمنة ويسرة كأن رياحاً مفاجئة هبّت في الميدان الأخضر، وفغرت الأفواه دائريةً، ولوّحت الأذرع، ومدّ جنتلمان ذو قبعة زرقاء يده على رباط جوارب امرأة تقف على سلّم العربة، وجرت الخيول الطويلة القوائم، واختفت وراء الجدار، لتبرز من جديد على الطرف الآخر من اللوحة.

- سأريك الآن المرأة ذات الثلاثة آلاف عام - قال حلم لمتعهد الدفن، وسحبه إلى عند الباب حيث أمكن من شقّه رؤية الغرفة المجاورة بكلّ وضوح.

ألصق منظّم الدفن عينه على الشق وشاهد الآتي:

جلست امرأة ذاوية على أريكة النوم، هامدة كأنها ميتة. عيناها مطبقتان، ذراعاها متدليتان، ساقاها مرتخيتان تفتقدان القوة. بدت على جسدها آثار كلل لا حدود له كأنها قطعت أطول المسافات، وفقدت خلال الطريق احمرار وجهها، ولون أظافرها الوردي، وحياة شفتيها، كما فقدت ملامحها. كانت هامدة كالذبابة العالقة في اللبلاب. تجرجرت ثيابها، تغيّر شعرها وصار غريباً كأنه التصق بفروة رأسها كشعر الدمى. لا وجود لحاجبيها إلّا في الظنون. كان لحمها متجعداً، وثدياها متهدّلين كمحفظتين فارغتين. بطنها مقعر كأنه تضرّر منذ مدة طويلة، وكأنه كان بطناً من ورق، من قشّ، من بقايا فضلات. بدت الحياة كأنها انتقلت من حولها، ولم تعد تتنفس إلّا بمنتهى الهدوء كتلك النباتات ذوات فم البوق الذي يبتلع الذباب المقترب منه. كانت بالأحرى أشبه بسمكة عبرت بحراً عميقاً وقطعت مسافات طويلة حتى وصلت إلى هذا الشاطئ كليلة فاقدة الحياة، ونشأ المدّ البحري وما عاد باستطاعتها بعد الآن الإحساس بأرجوحة الأمواج المانحة للحياة. قد تقرع

الأجراس فوق المياه، ولا تخرج السمكة رأسها في شفق الفجر لتسمع بفم فاغر صوت الجرس الرائع. قد تهبّ ريح ذات بريق ذهبي وتعزف بمهمازها فوق قمم الأمواج، وفوق الزبد: فلا تستطيع السمكة بعد الآن القفز إلى الأعلى وتشقلب نفسها برشاقة، مقلّدة رقصات النوارس. أينما خرقت أشعة الشمس أعماق المياه الغامقة الاخضرار ليس بوسع السمكة أن تتسلّل بثيابها الفضية إلى الأشعة الضوئية إلى العالم الآخر. ماتت السمكة...

- كيف عرفت أن عمرها ثلاثة آلاف عام؟ - سأله يانوش سيفرا هامساً.

أجاب حلم:

- ستراها تستيقظ في الحال. مرّ عليها ثلاثة آلاف حلم على الأقل.

وسرعان ما انشقّ الباب، وراحت بيلا تنادي إلى الداخل بصوت ناظر البناية:

- أفيقي يا ماريتسا، جاءك زائر.

وبسماع الصوت، والنداء، وانشقاق الباب سرت على طول الجسد النسائي العاري رعشة خفيفة أشبه بهبوب الريح في الفلاة.

حرّكت رجليها أولاً كأن ميتاً يتهيأ للخروج من تابوته. ثم فتحت ذراعيها أشبه بحركة خنفساء في فصل الربيع. ارتعش خصرها، حضنها، وامتدّت الرعشة على كامل جذعها. وفتحت عينيها تدريجيّاً كتمثال الشمع في المتحف. اهتزّت كتفاها، وما لبثت أن وقفت على رجليها. حركت يديها كأنها تسبح، وكأن الحلم يسعى للخروج من بئره إلى السطح. اهتزّت وهي واقفة وكادت تعود إلى مكانها من شدة الإنهاك القاتل، لكن المرأة المصرية الضئيلة القدّ تمكنت من البقاء واقفة.

عيناها الخوخيتان، أنفها المستقيم كالسيف، جبينها المربع. حاجباها الممدودان كالبجع الطائر. شفتاها السهميّتان. كانت صغيرة ومربعة الشكل كأنها خرجت من جدار هرم تخطو بحركة جانبية خرقاء.

المصباح المعلّق الذي غطته زجاجة زرقاء ذات نجمة ذهبية جعل أنحاء جسدها مغبشة كشبح تشكّل مع حركة الجسد. دسّت مشطاً في شعرها، وسكبت في راحتيها سائلاً من زجاجة وراحت تدهن فخذيها وثدييها. تناولت من الركن ثوباً فضفاضاً وغطّت جسدها بحركة واحدة منها.

- أَلَمْ تكن المرأة هكذا قبل ثلاثة آلاف عام؟ - همس حلم.

وافق متعهد الدفن بصوت خفيض، وتابع ما سيحصل بعينين مفتوحتين إلى أقصاهما.

وقفت المرأة للحظة وسط الغرفة بخمول، وسأم الحياة. مدّت ذراعيها إلى الخلف، ونقلت شعرها بقرف مرير إلى الأمام ونظرت إلى الباب كممثلة تنظر من وراء ستائر المسرح.

ثم دخل الزائر، وخلال ثانية واحدة كانت المرأة قد قاسته من رأسه حتى قدميه. وبقفزة فهد، على رؤوس أصابع رجليها، كانت أمامه.

كان سيد عجوز صغير يتقدم إلى تحت المصباح الأزرق.

وبكلّ احترام البنوّة للأبوّة، قامت ابنة كليوباترا بتقبيل يد السيد الصغير صاحب الثلاث أرجل.

كان الزائر شخصاً ضئيل الحجم غريباً كأنه خرج من كتاب حكايات بعد أن قام بتسلية الأطفال خلال النهار وأتى إلى هذه الليلة بشكله الغريب. كان ذا أنف مدبب، ويرتدي نظارات وقبعة ذات حافة دائرية كبيرة، وملابس صالونات. ربما كان يعاني من قصر النظر لأنه في هذه العتمة قد اصطدم بالكرسي مرتين. كان من أولئك السادة العجائز الفريدين الذين خلال النهار يجلسون غاضبين في أماكن النزهات ويقذفون بمظلّاتهم المطرية وراء الأطفال. يسيرون في شوارع بودا برؤوس مطرقة، ولا يموتون أبداً، أو على الأقل يهربون من أمام الموت بالبحث عن الأشياء القديمة، حيث يتصفحون بلا كلل الكتب البالية أو يشاهدون بالعدسات المكبرة، شتى أنواع الرسائل القديمة، والشرفات، وقطع الأثاث. لا أحد يدري أين يقيمون، وأنّى يتوجهون. يتصور المرء أنهم كلّ مساء يجلسون في الكرسي الهزّاز بعد أن يهيئوا الساعة الرنانة فقط، وتكون زوجاتهم العجائز قد جهّزن كلّ مستلزمات النوم. مع أن رغبات العجائز هي نفسها رغبات الشبان، ومن الخطأ الاعتقاد بأن العجائز يفكرون بطريقة تختلف عن الشبان بالمرأة الشابة الجميلة... لا بل إنهم إلى حدٍّ ما أكثر سطحية، وتسامحاً.

تعرّفا على «السيد الأستاذ» في شارع يارمياش فرانك وزوجته. كان في

البداية يقصد مرة كلّ أسبوع (كارولين) الحمراء - التي كان لديها أحد عشر ولداً حيّاً، وكان يأتيها «بهدايا العم» يحملها تحت إبطه، وفي مظلّته المطرية، وفي قبعته - ثم ماتت المرأة الحمراء وحضر السيد الأستاذ مأتمها، قام من المقبرة مباشرة رجع إلى البيت برفقة ماريتسا التي زارها العم فاعل الخير مرة كلّ أسبوعين.

ليس عبثاً أن ماريتسا كانت ذات ثلاثة آلاف عام، فلقد عرفت نقاط ضعف السيد العجوز. بلا مقدمات بدأت تشتم مجمّعي الطوابع والأثريات بتلك التعابير التي لا تصدر إلّا عن امرأة «ذات كعب مكسور». كانت تقولها لرجال يبصقون في أكياس ورقية، ولذوي القمصان السوداء، والعيون البليدة والأعناق الذابلة، والآذان الكثيفة الشعر، وذوي الأجساد والنفوس العدوانية، وذوي الأرجل القذرة، ولكل الرجال الكريهي الملمس كضفادع المستنقعات.

خلال ذلك لمست برؤوس أصابعها وجه السيد العجوز ذا الطلاء الأحمر، وكافة الألوان التي كانت على وجهه، ودهنتها على وجهها. كأن هذا الرجل العجوز الغريب الأطوار قد طلى نفسه حقّاً لهذه الأمسية، فانتقل لون وجهه الأحمر كطيفٍ إلى رؤوس أصابع ماريتسا، ومن الأصابع إلى وجه المرأة ذات الثلاثة آلاف عام. كما يحصل لشجرة كمثرى عجوز صغيرة حين تتطاير أوراقها الحمر بفعل الرياح الخريفية. إن حمرة الشفتين والأذنين، وكل ما كان يتمتع به الرجل العجوز من دلائل الحياة قد انتقلت على نحو خاطف، منسلّة إلى المرأة ذات الثلاثة آلاف عام التي بهذه الحياة المستعارة، قد تجدّدت، وانتعشت، وصارت جميلة، مكتنزة، في حين آل السيد العجوز كطيفٍ إلى التلاشي كدمّلة منفقئة.

وبعد ذلك كان منظّم المآتم شاهداً على مشهد أكثر غرابة.

ركع السيد العجوز أمام المرأة ذات الثلاثة آلاف عام، وتعبيراً عن خضوعه قام بنزع أنفه وقدمه للمرأة. وبعد قليل نزع إحدى رجليه من مكانها ووضعها في حضن المرأة. كان العجوز بلا أنف، وبلا رجل مشهداً مذهلاً حقّاً. وفيما بعد حين خلع معطفه، بدأ يتقدم بهيئته المركّبة تركيباً، ويخرج

من واجهة بائع الأعضاء الاصطناعية، هارباً من تحت الزجاجة قادماً إلى هذه الليلة.

وخلال ذلك طلب من المرأة بصوت متوسل باكٍ أن تسامحه على ما ارتكب من ذنوب. كان في الحقيقة سيئاً جدّاً في التعامل مع أسرته. لقد تخلّى عن دمائه بأنانيته الشريرة. طرد بناته من البيت وطاردهنّ إلى الشارع. وبات أبناؤه أزهاراً مفروشة في الحانة. وصارت زوجته تمزق شعرها كمجنونة. واعترف أن سبب كلّ هذا هو الحبّ الآثم الذي يشعر به تجاه ماريتسا، ولا ينطفئ.

- عد إلى أسرتك، لست في حاجة إليك. ما الذي سأفعله ببائس مثلك؟

- صرخت به ماريتسا بلهجة قاسية.

لكن السيد العجوز لم ينبس بحرف. ألقى بنفسه أرضاً، وراح يقبل بجنون رجلي المرأة ذات الثلاثة آلاف عام.

- عاقبيني، لكن أحبّيني - قال العجوز البائس مجهشاً ببكاء مرير.

- حسناً، سأعاقبك - قالت ماريتسا، ونهضت من مكانها، وذهبت إلى الركن حيث أخرجت من هناك عصا من شجر البندق. كالت له بعض الضربات، لكن العجوز وجد أن العقاب قليل لأنه كان بيديه المتشابكتين يشير إلى العارضة الخشبية السقفية.

- تعرف أنني لا أقوى عليك وحدي أيّها الشرير العجوز - برّرت ماريتسا.

لكن العجوز ظلّ يتوسل إليها حتى شقّت المرأة ذات الثلاثة آلاف عام الباب ونادت إلى الخارج:

- تعالي يا سيدة رجاءً.

دخلت ييلا مشمّرة عن ذراعيها، محمرّة كزوجة جزار. وقالت لماريتسا:

- دعينا نسرع، لأن الدوق الأعور أيضاً هنا.

لم تضع ماريتسا الوقت. أخرجت قميصاً سكريّاً من الخزانة، وربطت به إحدى يدي العجوز مع رجله، وفتلت يده الأخرى إلى ما وراء ظهره وربطتها بكعبه، وأحاطت خصره بحزام، ثم علقت حبلاً بالعارضة الخشبية السقفية.

- دقت ساعتك أيّها المذنب العجوز - قالت للعجوز.

ثم بمساعدة بيلا، رفعت العجوز الضئيل في الهواء، ورفعتاه إلى السقف، ببطء أول الأمر ثم قامتا بضربه.

- لِنترك العجوز الذي نال ما يستحقه من عقاب تكفيراً عن ذنوبه القديمة. دعنا الآن نلقِ نظرة في مكان آخر - قال حلم لمتعهد الدفن.

الفصل السابع

وفيه تتبدل السيدات، والسادة كأوراق الشدة

مكتبة
t.me/soramnqraa

في يدي العرّافة.

– أنا القديس أوغستين – قال الشاب في داخل الغرفة حيث ذهب متعهد الدفن للتلصص بصحبة حلم.

كان شابّاً بتسريحة ذيل البطة، وبنطال أبيض، وحذاء أبيض كذلك، منهمكاً الآن بحلاقة ذقنه أمام المرآة. كان قميصه من الحرير، وجواربه شفافة، وربطة عنقه وردية اللون، لعلّها كانت من قبل رباط جورب نسائي. وكان أمامه مراهم وجه ومطرّيات أيدي، وزجاجات عطور، وكانت إصبعه الصغيرة ذات ظفر طويل، وخاتم ذي فصّ. حلق ذقنه بحرص شديد، وكشّر في المرآة عن أسنان ناصعة البياض.

– أرجوك يا هنريك – قالت المرأة وسط الأريكة بصوت شاكٍ – ابقَ هذا المساء في البيت. يراودني إحساس بأن شيئاً ما سيحدث هذه الليلة. لا أريد أن أستعين بصاحبة البيت، هذه الشمطاء الساحرة، إذا ما دهمتني الأوجاع.

المرأة التي تكلّمت في حالة من الوداعة، ربما كانت من ذي قبل امرأة جميلة محبّبة، لكن مفاجآت القدر التي تقبّح أيّة امرأة حاملٍ، قد طالتها أيضاً. كان وجهها مثل رأس الميت، بهتت ملامحه، وبرقت عيناها محمومتين تعبّران عن حيرة ومعاناة لا حدود لهما.

من المحتمل أن هذه المرأة كانت جميلة قبل أشهر– رقصت في مكان ما، وفتحت له زجاجات الشمبانيا، وكانت بهجة الرجال، وصانعةَ الأجواء،

والمزاج المرح، وحورية اللحظات الفاتنة - غير أنها قد تبشعت مع تقدم حَمْلِها، وغدت مفلطحة القوام، مرعبة في قبحها، كأنما لحقت بها لعنة تلك النساء الحاسدات ولم يُجْدِها نفعاً مهما صلّت لنيل البركات.

- يوم أمس أخذتَ آخر أساوري. أعلم أنك اليوم ستبيعها يا هنريك. أنا هنا من دون رجل. ابقَ على الأقل إلى جانبي عندما تأخذني سيارة الإسعاف إلى المشفى في روكوش.

- هذا بالضبط ما أريد أن أتفاداه - أجاب هنريك وهو يشذّب بشفرة الحلاقة تحت أنفه - لا أحبّ المشاهد الأليمة غير المجدية. أنا طفل، أنا رديء فكيف نقيم معاً؟ ثم إن المسعفين قد يوجهون إليَّ أسئلة حمقاء مشابهة. لا تقلقي، سوف تتدبر العجوز أمرك في وجودهم. لديها خبرة في أمور كهذه. انتظريني حتى أصبح عجوزاً، وعندئذٍ سأكون رجلاً قديساً، وسأبقى في البيت كلّ مساء. أما الآن فأنا شاب مثلما كان القديس أوغستين الذي أمضى فترة شبابه بقطع الطرقات، والنهب. ومع ذلك فإن النساء يقبّلن قدميه حين صار عجوزاً متقدماً في السنّ.

ثم سكت هنريك، ولم يكلّم عشيقته بحرف. غسل وجهه وهو ينفّ بأنفه مرحاً، ثم دهن ملامح وجهه وسوّى شعره بالضغط الخفيف على خصلاته براحتي كفّيه... فيما جلست المرأة، مطرقة أمامها بقنوط.

وفي النهاية دسّ هنريك شفرة الحلاقة في جيبه:

- إيّاك أن تفكري في الأمر - قال غامزاً - لا أحبّ أن أزور مخفر الشرطة بسببك. والآن. إلى اللقاء.

جلست المرأة مطرقة الرأس، ولم تأتِ بحركة. هزّ هنريك كتفيه:

- ألا يكفي ما أمضيت معك من الوقت؟ أيّ رجل آخر كان سيتخلّى عنك منذ مدة طويلة. لكني كنت مجنونك.

- لأنني امتلكت المجوهرات - أجابت المرأة - بحزن.

لم يولِها هنريك مزيداً من الاهتمام. اعتمر قبعته القش بتثاقل، وغادر الغرفة وهو يصفّر.

- تبّاً لك، أيّها السارق الجميل! - صرخت المرأة وانفجرت بالبكاء، لكن هنريك لم يكن ليلتفت وراءه مهما ولولت النساء.

استرجعت المرأة هدوءها، وراحت تذرع الغرفة بخطوات ذليلة. جمعت الجرائد الرياضية الملقاة أرضاً والتي قرأها هنريك عند استيقاظه، وكنست أعقاب السجائر، ورتبت السرير وتمدّدت عليه لبعض الوقت والألم يعتصرها... شخصت بعينيها وراحت تصلّي بصوت مرتفع، وكان بطنها المتضخم يرتجّ على نحو واضح.

سُمع في الخارج صوت بيلا المجلجل:

- ناتاليا! ماذا عن الغرفة؟ ينبغي القيام بالترتيب. ليس من العادة أن ترمى الثياب القذرة على طرف السرير.

- كانت لهجتها مختلفة في الصيف الماضي - تنهّدت البطة الصغيرة البشعة، واستمرت تذرع الغرفة التي ستكون في الليل مطرحاً يمارس فيه آخرون متعتهم الخمريّة الحمراء، في حين هي في أوقات النهار مأوى لمكابدة العذاب. تلك الصور العائلية على الجدران - شيوخ يهود بقبعات محلّية، ونساء مسنّات بالباروكات، والملابس الحريرية السوداء، والقفازات الصوفية، أطفال بعيون دائرية سارحة حزينة، عرسان وعرائس جنباً إلى جنب، وكيل الأرض الريفي (خطيب بيلا السابق)، رجال شاحبو الوجوه بأزياء مجرية، كانوا قد أرسلوا صورهم حين أعلنت بيلا في الجرائد بحثها عن رجل مناسب - كم عساهم عايشوا المعاناة، والمتعة في هذه الغرفة، وأيّ ذهول! حين تأتي الخطيبة «التلميذة» بخطى وئيدة، وتحت إبطها كتب تعليمية، ودفاتر لم تفتح مطلقاً، ويتبعها المتأنق المغامر الذي تعرّفت عليه في الشارع لتوّها. أيّ ذعر! أيّ شقة! كلّ هؤلاء النساء اللواتي يقصدن هذا المكان لم يعتدن رؤية الدانوب في نزهاتهن على ضفة النهر، ولا رؤية الربيع أو الخريف في جزيرة مارغيت، ولا ظلال الأشجار الوارفة في الغوطة، ولا انسياب القمر الرومانسي فوق ليل الشارع. كلّ ما تشاهده هؤلاء النسوة هو المصباح عند ناصية الشارع، والرجال العجائز الضجرين والشبان المارين في دائرة ضوئه الذين يجهلون إلى أين يتجهون، ومن أين يأتون، وأيديهم متسخة بالسرقة وارتكاب الجريمة، وما تزال قبلة العروس العذراء مطبوعة على جباههم؛ قبلة الحبّ المقدسة التي حصلوا عليها لتوّهم على الشرفة.

استعدّت المرأة الحامل لتنظيف المنزل، سوّت الغطاء على أريكة النوم، وجهّزت الماء في دلو الشطف، ورتبت المنشفة والوسادة، ثم ركعت وسط الغرفة، وأدارت رأسها الميت القبيح نحو السقف، وردّدت بخفوت الصلاة الآتية:

– فلتحبط يا رب كلّ شيء، وكل شخص يطأ في هذه الليلة عتبة هذه الغرفة، حين أضطر إلى مخاض طفلي مع الكلب في بيته. اقضِ على الفاسقات، والغبيات الطمّاعات، وبائعات أجسادهن، وشاريات الأجساد، والمرابيات بشفاههن، والمتاجرات بأثدائهن، وبائعات سيقانهن، وَمَنْ قبلاتهن كاوية، وأنانيات القلوب، وذوات الشعور الكثيفة، والصلعان، والفتيان، والعجائز بدءاً من أماندا وصولاً إلى زيفي، وكل فتاة في المدينة لأنهن جميعاً سيبعثن بي هذه الليلة الأليمة إلى بيت الكلب... عاقبهن يا رب بالعمى، وقرحة الوجه، زوّد أرجلهنّ بالدمامل، لكي لا يتمكنّ من اللحاق بحبيبي، وحبيب أيّة واحدة أخرى. انزع اللحم عن أسنانهن لكي لا يتمكنّ من القهقهة، وأنا أعاني مع الكلب. مزّق شعورهنّ ليصبحن صلعاوات فيوقعن الذعر بالرجال. واجعل أصواتهن نهيقاً كصوت الأتان. ولْيَسِل الصديد لا الدمع من عيونهن، والماء النتن من آذانهنّ، والدود من أنوفهن. ربِّ اجعلهن لا يعثرن في الصيدلية على دواء يخفين به رائحة أجسادهن القذرة. آمين.

ثم بمنتهى التقوى رسمت المرأة الحامل إشارة الصليب.

– دعنا من هذه البلهاء – همس حلم في أذن متعهد الدفن– لقد أفقدتها الغيرة على حبيبها عقلها بعد أن غادرها. دعنا نلقِ نظرة على أرجاء المنزل الأكثر مرحاً.

هكذا تكلّم حلم وهو يمسك بذراع متعهد الدفن، وقاده إلى مكان يمكن من النافذة رؤية غرفة فيها مجموعة مرحة: النساء عند طاولات مفروشة جاءت لزيارتهن سيدات بودابستيات ثريات من المجتمع الراقي لكي تسلّي هؤلاء النساء بحكاياهن، وشتائمهن، وشهوانيتهن. تنحدر إحدى هذه السيدات من عائلة شفارتش الشهيرة، التي تمتلك محلاً لتجارة الصوف في شارع شاش. كانت أليسي منذ أيّام صباها ذات شعر أحمر، أو أسود، لا بل كان شعرها

أشقر رماديّاً أحياناً. وأليسي الآن ذات شعر أشقر. كان رأسها كرأس الحصان المجنّح بيغاسوس(*) لكن أليسي أخفت هذا بتسريحتها الماهرة.

أنفها المنحني الطويل الرفيع: ورثته عن جدّتها وتتشمم به، وهي سارحة بفسوق في أحلام اليقظة، الروائح الفائحة من الحدائق الإسبانية، كما تتشمم به الأغاني التي تصدح تحت الشرفات من شفاه الفرسان المسيحيين. كان ذلك حين كانوا ما يزالون يطلقون على ربّ العائلة اسم روبين، ثم هرب بصندوق المجوهرات على ظهر بغل مغادراً الأرض الإسبانية.

كان فمها واسعاً كأن عليها بهذا الفم أن تنطق فيضاً من الكلمات المدينة بها لجدّتها الثانية في غيتو غاليسيا حيث ترعرعت وشاخت. كان ذلك حين أطلقوا على رب العائلة اسم روبينوڤيتش، وكان بعينين واسعتين ينتظر الفائدة الدموية لأمواله المقترضة.

كانت ساقاها صغيرتين كأمها التي كانت ترفرف بثوب الكرينولين في بودابست القديمة، والتي سنة بعد سنة كانت في الحفلات الموسيقية، تحتل المقاعد الأولى، وتوزع ابتسامة عمومية، وتمنح الجنود البسطاء المصافحات الشديدة لتبقى معهم للذكرى. كان ذلك حين أطلقوا على ربّ العائلة اسم شڤارتش، وكان ينقل للجيش لحم العجل.

وكانت يداها صغيرتين لكنهما قويتان كما لتلك المرأة اليهودية التي لم تدعها في البدء تقصّ شعرها في يوم زفافها، واغتسلت مرة أخرى بعد الحمّام الذي تفرضه الطقوس، وتشرّبت بقلب مرتجف الثقافة الفاسقة التي تحضّها على التخلي عن عبادات الأجداد.

كانت عيناها زرقاوين كمياه بحيرة بلاتون(**)، لكنهما عينان كانتا تخضرّان أحياناً كأنما تلقنتا حقّاً لعبة الألوان من البحيرة التي كثيراً ما حلّقت بها أحلام اليقظة على ضفتها في أيّام الصبا، وكثيراً ما عزفت في فصل الصيف أحلامها على البيانو هناك، والرياح الوحشية تزأر حول الڤيلا المهجورة. كان جذعها أطول من رجليها المشوّهتين. لم تكن جميلة لكن ذكاء دنيويّاً أنانيّاً

---

*. بيغاسوس: اسم حصان مجنّح في الميثيولوجيا الإغريقية - المترجم.

**. بلاتون: بحيرة واسعة في المجر - المترجم.

بلا روح كان يشعّ من جبينها، ومن خطّها الكتابي الذي ينمّ عن ذكاء كخطّ تاجر. وكما كان دارجاً فقد حصلت آنذاك على شهادة معلّمة، ودخلت إلى المدرسة الثانوية، وسافرت كثيراً إلى البلدان الأجنبية بالقطار السريع، وبعربة البريد، وقرأت الكتب الفرنسية، وكانت تعرف من هم أهم الشعراء والممثلين الدارجين. وباختصار: كانت شقراء كالشمبانيا التي شربنا منها أكثر من اللزوم. تزوجت ثلاث مرات، لكنها لم تحظَ بالسعادة بالرغم من ثراء أزواجها، لأنها كانت ميّالة إلى ما يسمى عالم «البوهيمية» فكانت تنجذب نحو الممثلين الغنائيين أو الكتّاب الصحفيين البودابستيين، ولم يغب عن حفلات الشاي التي أقامتها، صحفي دارج، أو ممثل كوميدي على الأقل. هذه المرأة الشابة التي سئمت حياة المجتمع الراقي الذي لم يمنحها السعادة، انفصلت بسبب هؤلاء الممثلين، والكتّاب عن أزواجها الذين لم تكن صالوناتهم وغرفهم الواسعة كصالات الرقص، وشرفاتهم العالية، تساوي لها شيئاً ما دامت أحبّت السكن في كابينات الملابس المسرحية الصغيرة، أو قريبة من السماء في الغرف الملحقة على الأسطح كما قد يُشاهد في أوبرا (الحياة البوهيمية) في دار الأوبرا. وبهذا الدافع فقد أقدمت مرة على تلك الطرفة، فارتدت كملابس زوجها، ووضعت شارباً، وألصقت على رأسها باروكة، وقصدت ذات مساء أحد الملاهي حيث اعتاد ضباط عابرون، وغرباء، وسادة عجائز فاسقون أن يجلسوا ويشربوا قهوتهم. اكتشف زوجها الثاني الأمر وانفصل عنها على الرغم من قسمها بأنها لم تراقص الفتيات هناك، ولم تدخل إلى أيّ من غرف الملهى وكانت تكتفي بالنظر إلى داخلها من العتبة. وهكذا تزوجت أليسي للمرة الثالثة، واستأنفت إلى جانب زوجها مدير المصنع الحياة الجادة الكئيبة الوضيعة كما تراها. نادراً ما سمحت لنفسها أن تمارس شيئاً من التسلية واللهو- لكي لا تضع نفسها محطّ ثرثرة الآخرين مرة أخرى. واقتصرت تسليتها المتواضعة بزيارة منزل مدام بيلا في بعض الأحيان، وليس بمفردها! بل برفقة صديقتها مانسي هوسار التي كانت أوفى مرافقات سيدات بودابست الثريات، اللواتي طالما كنّ «يفاجئنها» بثيابهن، وقبعاتهن، وتفاصيلهن الصغيرة. كانت مانسي هوسار ترتدي تلك القبعات والثياب التي قالت عنها على الدوام بأنها قبعات وملابس «لا تليق» لصديقتها. مسكينة مانسي، لقد

كانت هكذا تضحي في واقع الأمر بنفسها، فكانت نفساً طيبة طوال حياتها. كان شعر مانسي أسود وهي ذات وجه توّاق. كانت توّاقة على الدوام. تاقت إلى رجل عجوز ثري، إلى فارس متفانٍ، إلى ليلة مرح، مغامرة حمقاء، نداء في الشارع، دعوة شهوانية من رجل رثّ على ضفة الدانوب المهجورة، نجاح مسرحي، ثياب صديقتها، حبّ طليق، فضيحة، زوج محترم. تاقت... ولعلّها كانت حسودة. وبسبب حسدها الدائم لم تحقّق ذاتها، لم تصل إلى ساعة من الرضا، لم تصل إلى فارس حبيب، ولا حتى إلى قبلة تستطيع أن تصل إليها كلّ امرأة لا تتجمد عيناها على قبعة صديقتها. لم يغب طبعاً عن المجموعة حتى الكاتب الصحفي الضخم الشاربين، إلّا أنه كان يحضر متستراً، لأن مدير المصنع لم يكن يطيق صاحب الشاربين الضخمين هذا، وكان يسميه دائماً «المخلوق القذر». غير أن أليسي عرفت الكراهية التي يكنّها زوجها للصحفي الضخم الشاربين، فكانت مضطرة لأخذه معها إلى نزهاتها الشبيهة بالنزهات في هذه الأيام. من جهة لأن سيدة من المجتمع الراقي لم يكن آنذاك من المناسب أن تقصد منزل مدام بيلا بلا رجل مرافق (بسبب سوء الفهم، والثرثرات)، ومن جهة أخرى لأنها وجدت في صاحب الشاربين الضخمين كثيراً من الفائدة في جولات كهذه. كان (ليهيل) - هكذا كانوا يسمونه صاحب الشاربين الضخمين - يعرف أسماء كلّ السيدات في الصالات، والعالم العلوي، والسفلي. كان ليهيل يمتلك تذاكر مجانية لكلّ ملاهي شارع فرانك يارمياش وزوجته. «السيد المحرّر». هكذا خاطبه ناظرو الأبنية، وصاحبات البيوت، مع أن ليهيل لم يكن يحرك قلمه إلّا في فصل الشتاء ليغطي بعض الحفلات ويرسلها إلى الجريدة الألمانية الصغيرة، التي يعمل لديها. ليهيل إذن، كان مرافقاً ممتازاً، يكيل امتنانه كما ينبغي من أجل الوجبات الخفيفة التي اعتاد أن يتناولها إلى طاولة أليسي في غياب زوجها، وعلى مرأى الخادمة المأمونة الجانب... إضافة إلى ذلك، فقد حصلت في السابق بعض اللحظات الرقيقة بين ليهيل وأليسي حين لم يكن ليهيل بعدُ قد أعلن عن مبادئه الفوضوية إزاء عالم المرأة. كان ليهيل يسعى للفوز- وحده حصراً - بوقت أليسي ومشاعرها. كان غيوراً، ومبتزّاً، حتى إنه هدّد بالانتحار... إذن، لقد أتاحت أليسي لبعض الوقت «للفوضويّ» أن يأخذ دوره، إلى أن نسي كلاهما الأمر.

انضمّ إلى المجموعة كلّ من المرأتين الصغيرتين لوتيو، ورابات شاركي المومستان اللتان يكفي أن تقول عنهما إنهما تقبضان النقود لقاء تسلية المجموعة. وزوج أليسي؟ للأسف، لم يكن بوسع المسكين أن يحضر. لقد دعي لمغادرة العاصمة ليوم واحد من أجل مصالح تجارية مهمة.

وفي حالة من السكر ضرب ليهيل الطاولة بعصاه:

- يهودي، مهلاً، يهودي! - صرخ.

دخلت مدام ييلا لتقول:

- لا وجود هنا ليهودي.

- الجميع يهود من أجل نقودي! - أجاب ليهيل.

أدّى كلّ من ييلا وصاحب الشاربين الضخمين، هذا المشهد على نحو عادي، وكامل، كما يؤدي مهرّجو السيرك دورهم المطلوب.

- هاتوا الشمبانيا! - قال ليهيل بلهجة آمرة.

- عندي أنا يمكنك أن ترجو في طلبك فقط - أجابت ييلا بصوت حادّ - أملك نقوداً أكثر من المجموعة بكاملها. أفقأ عيون الجميع بأوراق نقدية من ذات الألف.

لوّحت ييلا بقبضة من النقود الورقية.

كانت الضرورة تستدعي مثل هذه اللقطة لكي يرى الزائر أنه لم يأتِ إلى وجهة للمتسولين حيث يجاد عليهم بنقود معدنية صغيرة.

فتحت الشمبانيا. أشرق وجها لوتيو، ورابات شاركي، ليس لأنهما تشربان الشمبانيا لأول مرة، بل لأن لفتح الشمبانيا سحرها الخاص المهيب بالنسبة لأشخاص معينين في الدرجة السفلى من المجتمع. ألَمْ تلاحظوا النادل الليلي النحيل الضجر العجوز، وقد التمع في أعماق عينيه ضوء غامض وهو يفرك عنق زجاجة الشمبانيا؟ محاسبة الصندوق الملولة، وشيوعيّ المطبخ المستاء، والنادل الفتى المرهق من السهاد، وطاهي القهوة ذا الوجه الصقري، وبائعة الأزهار التي لم تشاهد الربيع قطّ، وكل من له علاقة ما بهذه الليلة. كلّ أولئك يشعرون باحترام معين تجاه هذه الزجاجة المزبدة،

المفرقعة، قد انبثقت منها للتوّ وخلال ثانية واحدة كلّ من الحياة، والمزاج اللذين يفتقدانه طوال الوقت. الشمبانيا طفل الليلة المليء بالوعود، والذي يأتي بكلّ براءة من عالم آخر إلى هذا العالم؛ قد يجلب معه ضحكاً رناناً، ولم يسمع صوتاً صدّاحاً قطّ، وسقسقة عصافير مجهولة، لكنهم قد يصدرون به صوتاً صنجيّاً يجعل الموت المتلصص الكامن تحت النافذة يسحب العجائز والشبان نحو حفر القبور.

انتظرت لوتيو ورابات شاركي حتى لامس كأس ليهيل كأسيهما قبل شرب النخب، ثم انفجرتا بمزاجهما المرح كأنما خطر لهما أن كلّ ما يجري الآن هو من أجلهما. توارت أليسي، ومانسي هوسار في زاوية الكنبة كتلميذتين ذاهبتين إلى الدير في قطار. دندن ليهيل أغاني دارجة، وبدأت الفتاتان الغناء.

- بخفوت أكثر، هناك آخرون أيضاً في المنزل - نادت ييلا عند الباب.

سكتت الفتاتان، وساد الهدوء لفترة في الغرفة.

كانت غرفة واسعة مطلّة على الفناء، بأرائك من شعر الخيل، ومفروشات مكحوتة، وسقف داكن كأنما قذفوا إلى هنا بمن سكروا أو ماتوا عند المنزل. في أحد الأركان ولدت قطّة في علبة قبعة كتب عليها بأحرف ذهبية دلّت على أنها تعود لمرسم فيري كارساي. حدّقت القطّة الأم بثبات أبي الهول إلى النسوة اللاتي التهبت وجوههنّ شيئاً فشيئاً كماسورة المسدس. القبعة المريشة التي وُضعت سابقاً في العلبة، قد تمزقت منذ مدة طويلة نتيجة مشاجرة ليلية. أضاء مصباح معلّق كان مسلطاً فوق بطاقات بريدية مصورة كان قد أرسلها رجال مجانين راحلون، لم يتمكنوا من نسيان رائحة المنزل. كشّرت جمجمة على سقف خزانة، لعلّ طالب طبّ تركها هنا رهناً بعد عجزه عن الدفع.

نفدت الشمبانيا، لكن ليهيل شجع الفتاتين:

- وفي وقت آخر لا يتوقف لسانك عن اللعلعة، يا لوتيو. أما الآن فتسكتين كسمكة الرمح.

لم تنتظر لوتيو مزيداً من التشجيع. اجترعت ما في كأسها دفعة واحدة وقالت:

- حسناً. أسمعتم ما قاله السمكريّ الذي دعوناه مرة إلى الشارع ليصلح

لنا الأواني. قال: إن مقاطعة آرڤا بأسرها لا تملك ما يكفي من المواد لسمكرة أوانينا.

لم يضحك أحد للنكتة. لوتيو إذن قالتها على نحو أكثر خشونة. لقد تهدّلت عن شفتيها حوافّ الأكـواخ، وحوافّ الحانات والإسطبلات، وقاعات انتظار السكك الحديدية، ومطابخ مطاعم الطرقات كشريط ورقي لامتناهي الطول رسمت عليه هيئة قذرة. سار هنا يمشي على أربع الرجل - زينة الوجود، وتخبطت في الوحل المرأة، وزهرة الحياة. الدخان المرّ للأكواخ الغجرية، عصارة مجاري التصريف لأكواخ أطراف المدينة، الممرات الزلقة لأماكن المتسولين، صور الجوالين التائهين النائمين في الخنادق على طول الطريق العام، آلام الرجال العجائز الثملين، أفكار الناسك الذي يهزّ بجرسه، قذارة الطسوت، حلم المآوي، أغنية آبار النُّزُل، بهجة معارض الخيول، مياه المواخير، العادة السرية للسائقين، ثغاء الرعاة، غناء المزمار، مواء سيقان الخزامى الجافة، خبرة الفانوس الليلي، الشتائم القذرة للعجوز الشمطاء وهي تطارد بالمكنسة فتاة عذراء، قهقهة المراهقين الخضراء، أعمال التوليد التي تقوم بها القوّادات الريفيات، نوم السجين، ما يشي به صدع اللوح الخشبي في النُّزُل الريفية... كلّ ذلك كان في هذه الحوافّ. الفتاة رابات شاركي، بعد أن لم تتمكن من إقناع صديقتها بتجاوز الحالة: قامت بحركة - حركتين منها بخلع ثوبها الملكي، ولم تترك عليها سوى قبعتها الحمراء، وحذائها الأبيض، وراحت تركض في الغرفة بوحشية.

بهذا أقدمت أليسي على رمي قبعتها القش أرضاً بحيث لم تتمكن مانسي هوسار من انتشالها إلّا بمشقة، (فكّرت في الوقت نفسه بأنها سوف تبخس من قيمة القبعة القش أمام صديقتها، فقد تحصل هي عليها يوم غدٍ).

حالة غير متوقعة حالت دون استمرار هذا المرح.

سمع صوت شجار في الخارج. قامت مدام بيلا بصفع أحدهم بكلّ ما لديها من قوة، وهي تصرخ عالياً:

- ناظر المبنى. في أيّ جهنم ناظر البناية في مثل هذا الوقت؟

اقترب صوت الشجار من الباب.

زعقت أليسي:

- يا للخسارة، زوجي...

لم يُغمَ عليها جديّاً، لكنها قد تكون قامت بهذه اللقطة بكلّ رحابة صدر.

- البوليس - قال ليهيل بفوقية، وأخرج هوية الكاتب الصحفي- لا تخافي سيدتي سأنقذك.

وضعت مانسي هوسار قبعة أليسي على رأسها، وانسلّت نحو الباب.

- لا تشركوني في أيّما شيء. أنا بريئة من كلّ شيء. لم أنخرط في مثل هذه الحماقات قط - قالت بحزم ولهجة ازدراء ووضعت قبضتها على قفل الباب.

لوتيو ورابات شاركي لم ترتعدا كثيراً لأصوات الشجار الآتية من الخارج. لقد ألفتا أصوات المدام العالية، كثيراً ما كان لها مشاكلها في المطبخ التي كانت تنهيها بيديها ورجليها إن لم تتمكن من ذلك بالكلمات.

لكن الباب ما لبث أن انفتح بقوة، وقفز إلى الغرفة متجاوزاً المدام فتى منفعل ذو وجه غوريلا بلباس البحارة، وقبل أن يجول بنظره في المكان، قفز على لوتيو، وراح يكيل اللكمات على رأسها حتى اكتفى من الضرب، التفت حوله، واعتمر قبعته، وألقى التحية العسكرية بيده:

- عفواً. هذا كلّ ما لديَّ من عمل هنا - قال ودار على عقبيه، وخرج وسط شتائم المدام.

لم تنبس لوتيو بكلمة طوال الوقت، حتى إنها لم تدافع عن نفسها، وتلقت الضربات كقطعة خشبية، وفيما بعد أجابت بعبوس، ردّاً على كلمات ليهيل المواسية:

- أستحق ذلك - وتنهدت سعيدة.

- من كان هذا الشاب الوقح؟ - سألت مانسي هوسار، بلهجة مزدرية خرجت من أنفها، بعد أن أنزلت عن رأسها قبعة أليسي، ووضعت على كعكة شعرها بدلاً منها قبعتها من «السنة الفائتة».

رمقت لوتيو مانسي بعينين كالبرق. ضغطت على أسنانها، ذارفة دموعاً وغضباً، وبدلاً منها قامت رابات شاركي بقياس مانسي من أعلاها إلى أسفلها حتى كادت أن تشعل الثياب على جسد مانسي.

– لنرحل من هنا. هذا المقهى ليس لأمثالنا – أضافت الصديقة الوفية ممسكة بذراع لوتيو.

لزم ما تبقى من المجموعة مكانه في جوّ مضغوط. راح السيد ليهيل يوضح الحالة بما تيسر له ذلك:

– لا تلام هذه المخلوقات الساقطة التعيسة إن اتخذت لنفسها عشيقات. يقوم هؤلاء الشبان بضربكنّ لأن سعادتهم غير مكتملة. إنهم منبوذو الحياة. سخّر كثير من الكتّاب الأقلام لكتابة مصائرهم. لكن أيّاً كانت كتاباتهم فإن المجتمع لا يستوي إلّا بأخيار البشرية، وبالدعارة. ما الذي عسى أن يفعله الشبان العزّاب من أمثالي؟

– اسمع – قاطعته مانسي هوسار ساخطة – هل هناك في هذا العالم ملاك ساقطة أو سيدة راقية، **حصلت** منك على أبخس هدية؟

(انتظرت مانسي هوسار من صديقاتها الحميمات أن يلتفتن إليها بشيء من الاهتمام. كانت تَقبل بكلّ سرور حتى لو قطعة سكر، أو جوروباً، إلّا أنها كانت تفضل على الدوام بطاقة لحضور العرض الرئيس في المسرح الضاحك.)

– سيدتي – أجاب الصحفي ليهيل بمرارة– لو كانت لنا في يوم علاقة معاً، لكان من حقك أن تتكلمي...

– أنا أزدريك كرجل مثلما أزدريك كأستاذ جمباز – أجابت مانسي هوسار بعبارة مقتبسة من مسرحية دارجة آنذاك في بودابست.

انبتّتْ حالة الجوّ المشحون بحضور مدام ييلا.

رأت السيدة النبيلة أن شرف منزلها قد أهين بحضور البحار، ولذلك فقد أعلنت باختصار، أنها كلّفت ناظر البناية بعدم السماح للبحّار وكافة أصدقائه بدخول المبنى من الآن فصاعداً. وعلى أيّة حال فإنها ستطرد ناظر البناية، هذا الرجل السكير زائر سباقات الخيل، وقد تحدثت بأمره مع فرانك يارمياش وزوجته. يأخذ إلى سباق الخيل أموال الآخرين وليس نقود المنزل فقط. فهل يا ترى كان أفضل منه كيندولوفيتش هذا الذي يزوّده المنزل بالطعام، والنقود، والتبغ، والملابس الداخلية، وكل ما يجده من قمصان نوم، وأطواق، وسلاسل معصمية، كان الأسياد قد نسوها هنا بعد ليالي المرح.

- على أيّة حال أنا أعرف ما تحتاجونه هنا - أنهت مدام بيلا حديثها - يوجد هنا فتاتان تحبّان بعضاً حبّاً قاتلاً. سترون لاحقاً أيّ حماقة يعني حبّ النساء بعضهن لبعض.

مانسي هوسار (التي اشتبهوا بها في دوائر أفضل أنها ترهق صديقاتها بالغيرة والحبّ) احتجت بشدة:

- لا أحد يمتلك الفضول لمعرفة هذه الحماقة.

- لكني أرسلت ناظر البناية من أجلهما - أجابت مدام بيلا بحزم.

التفتت مانسي هوسار إلى صديقتها وقالت:

- نريد أن نرى البحّار.

- البحار! - كرّرت الفتاة شفارتس بعد أن بدت عليها الثمالة.

هزّت مدام بيلا كتفيها وخرجت من الغرفة.

عندئذٍ نهض ليهيل فجأة من مكانه، وقفل الباب. ركع أمام أليسي وقبّل يدها.

- أريد منك القليل الذي يخدمني ويعبدني - كرّرتْ أليسي بلهجة قد فرغ صبرها.

- لك ذلك - أجاب ليهيل - ستتحقّق كلّ رغباتك يا حبّي الوحيد.

أنا عبدك الأوفى. أنا الرجل الكهل الذي يطبق عينيه ويخصك بالمحبّة، أنا الفتى الوسيم الذي يسعد زوجته الشابة كأنها أقرب المقربين له. أنا ذلك الرجل المريض الذي يلهو بمرضه الخاص، بمنتهى التعاسة. أنت مرضي، وأنت جحيمي المعذّب منذ أن عرفتك وغدوتِ لي في غابة كامرا كاسي، وقرصني النمل.

- أرفض أن تتحدث عن هذا يا ليهيل - قالت أليسي بحزم واربدّت عيناها.

- أنت أيّام حياتي الأكثر بهجة، والأكثر تعاسة. مرّت السنون كما تتساقط الأوراق الصفراء بفعل الرياح في شهر آب، ولم أتوقف عن حبّك، ولم تغيبي عن ذاكرتي لحظة واحدة. لقد فتنتني وجعلتني أسيرك من دون أن يسلّيَك الأمر حتى. كنت مغامرتك الصغيرة السهلة مع أنني ضحيت بحياتي كلّها.

- وأنا ضحيت بشرفي كامرأة.

- قفزت عابراً الحلقة كالبهلوان إذا ما رغبت نزوتك بأن أقوم بذلك، قبعت أمام محلّات القبعات، وفي صالات الملابس حتى هزئت مني المدينة بكاملها، ووضعت ريش الطاووس على قبعتي، وارتديت سترة حمراء من تنورتك الداخلية القديمة، وامتلأت محفظة نقودي بأوراق الشجر، وشوك الحمار التي كنا قد قطفناها معاً، واحتفظت بأعوادك من المسواك، وأعواد كبريتك كذكريات سعيدة في رحلة جبلية، وكنت لأقبّل حذاءك طوال النهار، ويصيبني الجنون إذا ما لمحت أطراف تنورتك، وتسكعت ليلاً شارد الذهن أمام بابك، ورأيتك من خلال أوراق الشجر في ردائك الليلي الطويل، وكنت سعيداً إذا ما سمعت نعيق زوجك عن الشرفة، وليس ثرثرة العشاق الحذرة. كنت أتصور أن عشيق السيدة النبيلة لا يذهب إلى الموعد إلّا بحنطور بحصانين، ولذلك كنت أشعر بالنقص؛ لم ألعب القمار، ولم أحضر سباقات الخيل، وتغاضيت عن دعوات معارفي من العائلات القديمة لأنني في كلّ لحظة كنت أنتظر صوتك الملول على الهاتف. لم يكن لديَّ إلّا أوقات العصر لأنك عندئذٍ يمكنك أن تخصصي لي بعض اللحظات أحياناً فقط، لنتناول شيئاً من الحلويات في محل للحلوى في شارع ثانوي، أو لنقوم معاً بنزهة سرية سريعة تحت أشجار القلعة، أو عند الكنيسة اليهودية بعد القداس، أو في شارع ستيفانيا في حنطور مغلق عند الأصيل الخريفي... وفي بعض الأحيان النادرة لمدة ساعة أو ساعتين بين أجنحة المسبح القيصري حيث أشرعت نافذتنا على غرفة الغسيل، وكانت الغرفة الصغيرة ذات الرقم 100 حيث دخلت بمنتهى الخفوت، محتجبة بوشاح كثيف، مخلّفة وراءك عطراً طيباً في الممشى... أوو، كم كنت ماهرة في المواعيد - تزوجت ثلاث مرات، وكنت في الحفلات الموسيقية تشيحين برأسك بقلب رقيق، وتغضّين الطرف عن تحياتي. كان برودك لا يؤلم أحداً سواي. عدا عن أنك كنت تبوحين لي بأسرارك، وأسرار صديقاتك: وكنتُ على أهبة الاستعداد لمساعدتك حين أجهضت جَنينَيْن في عملية إجهاض أجراها لك طبيب في أطراف المدينة، وكم رافقتك إلى العرّافة في بودا... عرفت كلّ شيء، ولم أعرف شيئاً، لأنك كنت تخونينني على الدوام.

- سيدي، لا تنسَ أنك تكلّم امرأة متزوجة نبيلة...

- كان لي شرف التعرف على زوجين من أزواجك، والتجسس على كافة تحركاتهما، وعشيقاتهما، وأسرارهما...

- حضرتك تستغلّ ثقتي.

- أحبّك. هذا كلّ ما في الأمر. اليوم أحبّك أكثر من أيّ وقت مضى. أثرت فضولك المريض، وسحبتك إلى موضع حيث قد تتأجج مشاعرك كالراقصة بتأثير الشمبانيا. لكن أملي خاب، فأنت لم تعودي ترغبين بي على الرغم من أني أموت شوقاً.

- سيدي، لعلّك تريد أن تدنّسني في هذا المكان القذر؟ أولاً وأخيراً أنا امرأة نبيلة.

أخذ حلم بذراع متعهد الدفن.

دعنا نشاهد لقطات أخرى. هذا الشخصان المريضان عصبيّاً، الرتيبان اللامباليان لا يجدان مكاناً آخر سوى مأوى مدام بيلا يناقشان فيه مشاكلهما الغرامية. لعلّهما أحبّا بعضهما بعضاً مجدّداً، أو قرفا بشكل نهائي. سيّان. لا داعي للقلق عليهما. هؤلاء السيدات الصغيرات اللواتي يجرين وراء الموضة يبدّلن مشاعرهن مثلما يبدّلن قبعاتهن. مسكين ليهيل. عبثاً يجهد نفسه لأنه بالتأكيد قد خرج قليلاً عن الموضة. ليس لديه سوى طريق واحد لاسترداد حبيبته، هو أن تشكّ أليسي بإحدى صديقاتها الحميمات، وبغير ذلك قد يطلق الرصاص على نفسه، ولا يجد أذناً صاغية. أنا أعرف ليهيل المسكين في أيّام صباه حين كانت له حقّاً نجاحاته الباهرة مع النساء. كان يكفي في الحفلات المحلية أن يدعو إحداهن للرقص، حتى تتبادله الصديقات الحميمات بينهن، وتفتتن بمرآه الأمهات وبناتهنّ. لكن الزمن يمضي، ولم تعد رقصة المجر الدائرية دارجة.

أومأ متعهد الدفن بالموافقة. تذكّر أحد مستخدمي المآتم وكان شابّاً أشقر أزرق العينين يظهر دائماً أمام النساء الباكيات تحت أوشحة الحداد، وكان يفاخر بأن السيدات الأرامل كنّ يدعونه إلى حفل عشاء ما بعد الدفن، وإلى زيارتهن. لكن المخلوق بدّل مهنته، وصار منجّداً، فلم تعد النساء يكترثن به.

تابع «حلم» على النحو الآتي:

– الليل يمضي. دعنا نشاهد – ليس من واجهات محلات شارع ڤاتسي فقط – من يعرفون أن الخريف يقترب، وأن أوراق الشجر أخذت بالاحمرار، وأن السماء تربدّ والرياح تصفّر... دعنا نشاهد من هم حقّاً أصدقاء الضحك، والربيع والحياة.

بعد ذلك قاد «حلم» متعهد الدفن إلى المطبخ حيث ضمن مجموعة مدام بيلا، جلس شاب كأنه خرج من روايات والتر سكوت، طويل حزين العينين، ذو شعر طويل مستعار مدهون ومفروق حتى من الخلف كسائقي الحناطير في ڤيينا. كان محنيّ الرقبة كأنها لا تقوى على ثقل رأسه الحزين المحشوّ بالأعباء، وذقنه كذقن الجاموس. عنقه ثخينة كفنّان قوي في سيرك يرتدي ثياب المهرّج ويشارك بعد انتهاء العرض في الألعاب الصامتة. كان هو بطل الأحلام الذي ينتشل جثث الأطفال الرضّع من مياه الترع الجبلية، ويقوم بكلّ شجاعة لا تهاب الموت بإنقاذ الأطفال من القرى المغمورة بالفيضانات، خائضاً في دوامات المياه وزبدها مرة بعد أخرى حاملاً أطفالاً ورضّعاً جدداً يجدّف بهم نحو الضفة. هو من في أثناء الحريق كان يمسك بالقماشة ويشجع بصوته الجهير السيدات على القفز من الطابق الرابع بقمصانهن الداخلية من ارتفاع المجمّع الباريسي الكبير. هو من كان يؤجل أعماله المهمة إذا ما لمح في الشارع الدائري خيول عربة جامحة، أو حادثة ترام كهربائي، أو مشاجرة عائلية، أو امرأة مظلومة. هو من انخرط بلا أيّ تفكير في المظاهرات إلى جانب الحكومة أو ضدّها، وشارك على الفور في الشجارات، وساعد الشرطي في كبح المجموعات الثملة الصارخة في الشوارع، أو حاصر غرفة الحراسة لإطلاق سراح شخص لم يره قَطّ. هو من ساعد ناظر البناية في إقفال مدخل المبنى إذا ما حصلت مشكلة في المبنى، ووصلت سيارة الإسعاف. هو من كتب قصائد يوجف كيش. كان لديه أحذية أمريكية مبوّزة من النوع الدارج في المدينة، حيث تقام الألعاب والأفراح التي يرتادها منتعل الحذاء بصمت وحزم. كان الشاب الخارج من روايات والتر سكوت قليل الكلام على العموم، لأنه لا يرغب في إجهاد نفسه بثرثرات لا معنى لها. كان يزن كلّ كلمة بدقة كالملح. لقد أحبّت بيلا هذا الشاب الصموت محبّةَ الطفل لدميته الكبيرة، يفكّها لاحقاً متى استاء منها...

طهت ييلا العشاء للشاب الصموت، وهي تتشاجر. كانت ظاهريّاً توجّه كلامها للأطباق والقدور، فيما كان الشاب يجترع بصمت جرعات كبيرة من البيرة التي جلبها ناظر البناية من الحانة إلى عنوان العمّ ميشكا ڤيغ.

– هو – حدّثت ييلا قدور الطبخ – لا يأخذني إلى أيّ مكان. أكاد أجنّ من ضجري، ووحدتي، لا أكلم أحداً، لا امرأة تافهة، ولا رجلاً أكثر تفاهة، لأنه لا يسمح لي بالخروج إلى أيّ مكان. ينبغي وضع حدّ لحياة كهذه... كم مرة رجوته أن يصطحبني مساءً إلى حديقة الحيوانات حيث يقف ويسندورف القائد الكبير الكرش وسط أفراد فرقته الموسيقية بعصاه الصغيرة ويرمقني دائماً عبر نظارتيه كلّما عزف الموسيقيون مقطوعة من أوبرا المرأة الخاطئة. ومن بعيد مع انتهاء الموسيقا يرفع لي كأس البيرة شارباً نخبي، قائلاً بكلّ ثقة: Gruss aus Thiergarten für Jolan!. كم مرة رجوته أن يصطحبني في الأول من أيّار إلى الغابة لمشاهدة كثير من الأمور الكافية لعام كامل! كم مرة رجوته أن نتمشى إلى الغابات بين جبال بودا ونأكل فوق المرج الإوز البارد ثم نشرب البيرة عند (الطاووس)، أو نقطف الأزهار البرية في الحقل... هو يقول مع كلّ هذا: إنه بعيد. أعترف أنه لا يمكنه اصطحابي معه إلى الحفلات الموسيقية. فهناك عند المدخل سوف يعرفني البواب بوبوفيتش. أعترف أننا لا يمكننا الذهاب معاً إلى سباق الخيل لأن كثيراً من معارفي القدامى هناك على المرج. ولكي أمتنع عن رؤية المسرح على الدوام، فقد جلست في طفولتي ما يكفي في جناح خاص، وكانت السيدات اليهوديات ينظرن إلى مأساتي. ولا أرغب في الذهاب إلى المطاعم لأن طعامنا في المنزل أفضل مما تحتويه غرفة الصياد في غراند هوتيل رويال. لكنني حقّاً لا أعترف ولا أفهم لماذا لا يأخذني مرة إلى قرية سينكوتا إلى ناجيسي حيث لا تعرفني حتى الكلاب.

– سوف نذهب إلى القرية فيما بعد– أجاب الشاب الصموت بصوت عميق – متى يا ترى سيجهز هذا الحساء.

– يعدني منذ ثلاث سنوات بزيارة القرية. بتنا نعرف وعوده. فيما بعد في يوم لا وجود له. مع أني امرأة ريفية، وأكره حياة المدينة، سأموت ذات يوم من شدة شوقي وحنيني للبلد، إذا ما رأيت في شارع في بودابست عروساً

فلاحة بتنورة مجعّدة. في الربيع حين كلاب المدينة تغازل بعضها بعضاً في الشوارع، تخطر لي القرية بكلابها الكوماندور الوحشية اللاهثة التي تقفز فوق الأسيجة، وبكلاب الحراسة النابحة. كلّما هطل المطر يدور في خلدي: كم سيكون مطراً مختلفاً قرب شايو حيث يهطل على بتلات زهرة الراعي، والكونزوليدا التي غرسها أبي. هو لا يفهم هذا. هو يريد أن أقضي أجمل سنوات عمري بين الجدران الأربعة اللعينة، إلى أن يحملوني إلى المقبرة.

لوّح الشاب الصموت بإحدى يديه، فيما كان بيده الثانية يتذوق الحساء الساخن بملعقة، وقال:

- ما جدوى كلّ هذا الكلام! لا أعثر على الكرنب في الحساء.

- هو يحمّل الفاكهاني المسؤولية لأنه لا يبيع الكرنب. هو ينبغي له أن يكون بمنتهى السعادة لأنه وجد مثل هذه المرأة التي لا تضمر في رأسها أيّ سوء، وتعمل منذ الصباح حتى المساء كالدابة عسى أن تتمكن من شراء منزل صغير مع حديقة لشيخوختها وتزرع فيها الخضروات في مدينة ميشكولتس. ميشكولتس! تلك مدينة، وليس هذه البودابست البشعة. هو فيما بعد سوف يدخن بغليون (شيلمسي) طويل، وسيرتاد السراديب لتذوق النبيذ، وهو يمكنه أن يساعد في نحر الخنزير. هو ما عليه إلّا أن يبلي حسناً، وسيتمتّع بشيخوخة لا تصحّ إلّا لقلة قليلة في بلاد المجر.

«هو» التهم الحساء، وانكبّ على لحم البقر. أبلى حسناً، ثم ردّ على الشكاوي:

- مع أنني على موعد في المقهى مع بعض أصدقائي، إلّا أنني سأستجيب لطلبك. عند منتصف الليل سنذهب للتجوال في شارع ستيفانيا... لكن حتى تمثال رودولف فقط... ولا خطوة بعد...

كانت بيلا واسعة الصدر:

- أوو، لا مانع لديَّ شرط أن نبلغ أيضاً ضفة البحيرة. نجلس على الضفة، وأغمض عينيّ وأتصور نفسي شابة من جديد، وأنا أخوض في الماء حتى ركبتي بقصد الانتحار.

- دعيني أرَ إذن سلطة الخيار، هل كانت منقوعة بالملح منذ البارحة؟

– منذ مساء أمس – أجابت بيلا بصوت مضطرب، وانفجرت بالبكاء من فرحها بالنزهة الليلية الوشيكة – لكنني أقول منذ البداية إنني لن أرتدي مشدّاً لأنني لم ألبسه منذ عام. لن أُبلي ملابسي الجديدة. سأذهب كما أنا الآن، بثوب النوم، وبقرطي الماسيّ على الأكثر، فإذا ما متّ خلال الطريق، سيكون هناك ما يفي بتكاليف مأتمي.

– طالما اقترحت بيع قرطك الماسي – قال الشاب الصموت بصوت متأنٍّ مقنع – لنشارك بثمنه في رهان بسباق الخيل. نربح ونشتري قرطين ماسيين. قرطاً للنهار، وقرطاً لليل.

خبّ الحوذيّ فيشر مع أحصنته ومع السيدات الفضوليات. بمعنى أن السيدات هنّ من رأين معطفَ فيشر الرمادي ذا الأزرار المعرّقة، وقبعته ذات لون الحمام القاسي الصغير الحافة فقط. تحت القبعة قبع رأس الموت بكلّ جلالته ممسكاً بالعنان ليقود أحصنة العربة البديعة.

ربما أرادت أليسي أن تدعو فيشر إلى العشاء وكأس من الشمبانيا في منزلها كأرملة. لتنتقم لنفسها من الصحفي ذي الشاربين الضخمين الذي نجح في إفساد جوّ المرح، ولكن كم كان ذعرها شديداً حين كشّرت جمجمة الموت من تحت القبعة الرمادية المعروفة. استلقت في سريرها وقد بلغت بها الحمى درجة حرارتها «41 – بعد أن لم تعرف كيف وصلت إلى الطابق الأول – فأحضروا لها في اليوم التالي أشهر الأطباء وأكثرهم مهارة، لكن أليسي لم تستجب لعلاجات السادة الأطباء الكبار، وظلّت درجة حرارتها مرتفعة، وعايشت في أحلامها معايشات رائعة لم تستطع تحقيقها طوال حياتها. من أمثلة هذه المعايشات أنها كانت امرأة أميرة في دير حيث تجوّلت جميع الراهبات بثياب بيضاء، ولاح الخليج البحري الأزرق في الأفق، وقرع الجرس الصغير في البرج بصوته البديع، وكان كاهن الاعتراف في الدير هو إيمره سيرماي في مشهد صعوده إلى المسرح في أوبرا (زهرة البلسم) بملابس ضابط فرنسي. ثم بعد ساعة كانت فتاة بريئة بلون الزنبق ذهبت للمرة الأولى في عيد العنصرة إلى جزيرة مارغيت(*)، إلى الأنقاض

---

*. جزيرة مارغيت: جزيرة صغيرة في بودابست بين فرعي الدانوب – المترجم.

المقدّسة حيث ارتكبت النساء البودابستيات حماقات لا حصر لها لا تتسع الجدران القديمة لتدوين حوادثها. كانت هناك للتوّ مراسم زفاف في الكنيسة الصغيرة، وكان العروسان يركعان بكلّ تقوى على وقع كلمات وحركات يدي الكاهن في بودا القديمة.

في هذه اللحظة دخلت أليسي. عرفت العروسين الشابين على الفور. لم يتعمّدا إلّا منذ أيّام قليلة لكي يتمكنّا من إقامة زفافهما في كنيسة مارغيت بعد أن تعرّفا على بعضهما من أعلى رأسيهما، حتى أقدامهما بين أنقاض الدير.

لم يجدِ نفعاً ما أشاعه السادة العجائز الحاسدون عن وجود أفاعي الثيبرا المختبئة تحت الأحجار القديمة، وهي أفاعٍ تترقب الفرصة السانحة للدخول في النساء المنسيات.

كان أكثر ما تفعله النساء هو حرصهن على تجنّب دخول أفاعي الثيبرا إلى داخلهنّ. وعلى العموم إن هذه النواحي في جزيرة مارغيت تحتفظ بكثير من ذكريات العار الصيفية والخريفية من عالم سيدات بودابست الراقيات. أمضت أليسي صيفاً وحيداً في جزيرة مارغيت، لكن باتزان، وباحمرار وجه كانت تسترجع ذكريات الأماسي المقمرة والمعتمة. حياة المرأة محض عار- إن كانت تعرف العار حقّاً.

وفي مساء يوم غدٍ نُقلت أليسي على زلّاجة فوق جبل شفاب، بمرافقة موظفي بنك يتمتعون بروح المبادرة، ورحلت نهائيّاً من شارع شارس. حضرت قلّة قليلة مأتمها لأنها توفيت بمرضٍ معدٍ. يا للخسارة! كان من الجائز أن تتزوج للمرة الرابعة! لفّ الصحفيّ الضخم الشاربين لفترة قصيرة شارة حداد حول معصمه كعادة الحجّاب الملكيين في فترة الحداد داخل البلاط. ثم نسي الأمر بدوره. أما مانسي هوسار فقد بدأت تقصد صالة الخيّالة في شارع أسترهازي، وتعلمت ركوب الخيل، وحظيت بصديقات جديدات. آنذاك، للأسف، لم تكن تؤمّ تلك الصالة إلّا السيدات الثريّات: مدام ڤايس زوجة السيد الشهير بكونه يمدّد زوجته في النعش ويقوم بعبادتها. بذلت ماتسي كلّ ما تملكه من جهد كي تتمكن من اختراق مجموعة الصديقات الحسودات لتصل إلى مدام ڤايس صاحبة النعش الثرية؛ لكن لا ينبغي الخوف على ماتسي.

الفصل الثامن

وفيه ظبيتان من باكوني تتجولان في بست

وعند منتصف الليل إذن صار المنزل فارغاً لبعض الوقت، فيتمكن متعهد الدفن و«حلم» من الجلوس أخيراً في الصالون، ويتحدثان على راحتهما.

قال حلم لمتعهد الدفن:

- ألا تسمع الأنين، والعويل اللذين ينبعثان من تحت الأرض في هذه الغرفة؟

هزّ متعهد الدفن رأسه نافياً.

- شيء ما يحصل هنا. إن لم أكن مخدوعاً فإن ناتاليا تستعد لولادة طفلها. هيّا نذهب لنراها. أسمع آلام ولادة شديدة - قال حلم وأمسك بذراع متعهد الدفن.

عبرا إلى فناء صغير استخدم كبيت مناسب لكلب مدام بيلا. وصل الضوء إلى الفناء من ارتفاع طابقين كما يصل إلى بئر عميقة. أمكن الآن في الأعلى رؤية غيوم مسرعة، سعى مصباح القمر الهلالي يتيماً بينها. فتحت في الأعلى نوافذ لا يطل منها أحد إلى الخارج. تقيأت فتاة في الجدار. قذارة خادمة مهملة سقطت من الطابق:

إنه الفناء المضيء الحزين للماخور البودابستي. إلى هنا سحبت ناتاليا في مخاض الولادة. نظر الكلب الضخم يشاهد المرأة المسحوبة، ووقف فوقها بقوائمه الأربع. استقبل الكلب الزائرين بعينين ذليلين شاكيتين، وخرج من فوره عبر الباب ليختلق في هذه الليلة كثيراً من المشاكل في شارع فرانك يارمياش وزوجته.

كان لناتاليا آلامها الشديدة حقّاً. لو أنها تمكنت من التشبّث بشيء ما لجلبت طفلها إلى العالم، لكنها على حالها هذه اكتفت تتخبط بآلامها، التي كانت تهدأ كلّ عشرين دقيقة، وفي فترة هدوء الآلام هذه كان يمرّ أمام عينيها الواسعتين شريط حياتها كاملة كألعاب خيال الظلّ على الجدار في بلدان الشرق.

حلُم الذي قرأ ما بين السطور الهيروغليفية في قزحيّتي العينين، شاهد ما يلي:

قرية صغيرة في منطقة باكوني حيث يتعرج الطريق العام بين الجبل والوادي، والأشجار تتبع الطريق المتعرجة مثله كأنها حريصة على ألّا يفلت نهائيّاً من بينها، وحيث تعزف الرياح الأنغام نفسها بين الأشجار عابرة ثلاث مقاطعات أو أربعاً، وكأن الأشجار عندئذٍ تبثّ الأحاسيس التي عانتها وخبأتها في أعماقها في أيّام الخريف المتأملة. تضمحل فروع الأشجار بفعل العاصفة كشعر الإنسان. قصر إقطاعي قديم وسط البلدة كذكرى من الأزمنة الماضية، وكحارس لأسرارها، حين كان راعي القطعان المجدول الشعر يطلّ على الطريق العام عبر نافذة البرج ذي الغطاء الخشبي المربع الشكل، وكانت الحناطير تقرقع بين نقع الغبار، والنساء ذوات المظهر النبيل بقبعاتهن ذوات الأوشحة، يدخلن على ظهور الخيل التي تخبّ داخلة من مدخل القصر، والنساء اللاتي يشوين الخنازير فوق النار المشتعلة في الفناء. وتمدّدت سيقان السيدات التي تعاني باكراً من مرض النقرس فوق الأسرّة الريفية المصنوعة من شجر الجوز، على أكياس من القش المخلوط بنبات المريمية، وفوق شعر الجِمال، والقماش التشيكي: في حين كان الرجال الذين يعانون من صعوبة في التنفس يجلسون على الكراسي ذوات المساند العالية تحت أغطية جلد النمر يتفرجون طوال العام وهم يدخنون الغلايين، من خلال لحاهم، وشواربهم إذا ما كانت تلك النساء قد غدون أكثر شفافية، وإذا ما كنّ يُقرِئن التلميذ المسافر الكتاب المقدّس، ويجعلن قائد جوقة التراتيل الثمل يمشي على أربع، ويُطللن عبر النافذة هازّات برؤوسهن لأن عربة الصديق لم تظهر بعد بين حشد الناس. هؤلاء الإقطاعيون، أسياد القصر لم يرغبوا في الموت قط. وزوجاتهم العجائز يسخّرن فتيات شابات ليكنّ في متناول أيديهن على الدوام من أجل أن ينقلن دماءهن الفتية إلى عروقهن الشائخة.

تقدم شبح الموت المتجهم بخطواته المرعبة، وأضيئت الشموع ليلاً في أنحاء الممرات، وحمل حارس ساذج الفانوس حتى طلوع الفجر، وكان يبعث الطمأنينة في النفوس إذا ما عبر حارس القصر بمفاتيحه المخشخشة في الممرات في فترات الليل، وإذا ما شدّ سلاسل الساعات التي تصدر الأنغام في الصالونات. في حين لم تجدِ نفعاً في الحماية ضد الرياح، والرعب، لا الجدران الضخمة، ولا وقع خطوات الخدم، ولا مطواعية الخادمات الحافيات، ولا نباح الكلاب الوفيّة في الفناء، ولا لعلعة أسلحة الحراس عند المدخل، ولا القس العفن الرائحة الذي غالباً ما أيقظوه ليلاً من فراشه إذا ما زار نذير الموت أحداً ما في القلعة، ولا مساعد الطبيب الذي تمسَّكوا طوال الليل بيده كملاك ربّاني. عبثاً كان جرس الروح مربوطاً في البرج، فقد قرعته العاصفة، فصرخ سيد القلعة المبلّل بالعرق البارد... في هذا البيت أمضت ناتاليا فترة طفولتها تخدم حافية إلى جانب سيدة القصر، وترافقها إلى القداس كلّ يوم أحد، وتجلس في المقعد إلى جانبها، وتفتح بالمفتاح الفضي الدرج المقفل على كتب صلوات خرافية تتضمن أدعية لصنع الأعاجيب. لكن المثير للدهشة أن كلّ أولئك الذين قرؤوا هذه الصلوات في فترة ما بأفواه ملهوفة حتى الاختناق، قد ماتوا على الرغم من كلّ شيء.

قطنت ناتاليا في هذا القصر ذي الأماسي الكئيبة المليء بالرياح والظلال. هنا ترعرعت، ومن هنا ألقي بها إلى المصير المجهول. ترى أيّ مصير يمكن أن تنتظره فتاة خادمة؟ تتعلم القبالة عسى أن تساعد ذات يوم سيّدتها الشابة إذا ما ولدت أطفالاً، أو عساها أن تتزوج يوماً من شاب صيّاد فتمضي حياتها في غابة تفحّ فيها الرياح ناقلة صوت بندقية زوجها من الوادي البعيد... لم يكن لها أهل، ولا أقارب، ولم يخاطبها أحد، وكانت سيدتها الشابة غير آبهة لها وكأنها قطعة من الخشب، مع أنها تذعر ليلاً من الأشباح... لكن ناتاليا كانت تخلد إلى النوم مطمئنة البال لأنها سمعت من الخادمات أن الموت لا يقصد إلّا الأسياد. كان الصقيع يغطي النوافذ شتاءً، أما في الصيف فكان يمكنها أن ترى المناطق والسهوب المرتعشة تحت أشعة الشمس، وترى الطرقات العامة البيضاء، والقرى ذات الكنائس الحمراء، وبحر الغابات الذي قد يجيء منه أحدهم نحو عش البوم... أما في فصل الخريف فطالما

تثاءبت، لكنها تعلمت اللغة الفرنسية في وقت أسرع من سيّدتها الشابة التي تقوم بتعليمها امرأة مسنّة.

ولكنها كم كانت سعيدة في هذا المنزل المضجر، حيث كان الدوق العجوز يصيح كديك صغير، وكان على الدوام ينظر إلى ساقي الدوقة العجوز اللتين، في رأيه، تنخرها الخنفساء على نحو مسموع، وحيث ناظر القصر ثمل ليل نهار، وكان أسعد القاطنين في المنزل، وكانت الخادمات يعبثن مع الحراس ذوي الشوارب ويضعن القش على رؤوسهم، والنار لا تتوقف في المساء عن الاشتعال في المطبخ إكراماً للشاب المتجول الذي لا يكف عن قصّ الحكايات الكاذبة عن عجائب البلدان والمدن البعيدة!

ثم تذكرت المرأة وهي في مخاضها مدينة بست. قصر في جوار حديقة المتحف انتقلت إليه عائلة الحزن بكونه ميراثاً حظيت به. سرعان ما أقاموا فيه وكأنهم يهربون من أمام الموت. يقف بوّاب عجوز قصير القامة على رؤوس الخيل ريثما يتخذ الضيوف أمكنتهم في الحنطور. وهناك إلى جانب القصر حديقة خريفية أمكن فيها رؤية ناس غرباء لم يلحظهم أحد من قبل. سجاجيد لا يسمع فوقها وقع الخطوات، ولا أصوات الأجراس. نوافذ بحجم الأبواب. فناء مرصوف بحجارة زاهية مغطاة بزجاج ملوّن، انفتحت عليه من اليمين واليسار قاعات الرقص والغرف الصغيرة. نافورة ينبثق منها الماء اللمّاع عالياً. صور بأطر ذهبية لنساء ورجال في منتهى الجمال والوسامة في الغرف، تنام زوجة الدوق تحت سقف ذي عمدان. يجلس الدوق عند طاولة مكتبه طوال النهار، ويفتش في أدراجه السريّة. تجلس المرأة الشابة عند النافذة تنظر إلى هنريك الذي يقف في حديقة المتحف طيلة اليوم ببنطاله الرمادي وسترته البيضاء. إنه فصل الخريف. يشعر هنريك بالبرد على نحو واضح... لكن آلام مخاض «شديدة» تبدأ مجدّداً. تشخص عينا المرأة الولّادة، كانت تشدّ كأن عليها أن تزيح جبلاً من مكانه، ولم تستطع فعل شيء إلّا أن تقول: «ارحميني يا مريم، كلّك رحمة» قالتها بسرعة وكأنها بهذا الدعاء السحري سوف تقضي على هذه الآلام الطاحنة التي تمزقها.

تدحرجت إذن هذه الكلمات بسرعة من شفتي المرأة الولّادة. الغريب أن هذا الدعاء لم يلامس شفتيها منذ أن كانت طفلة صغيرة. ولكنها الآن

وقد تخبطت في الألم فإن هذه الكلمات التعبدية قد فعلت فعلها السحري، وسكّنت أوجاعها في الحال، لتفسح المجال لصور جديدة مرّت في ذاكرة ناتاليا.

نسق من أشجار الحور التي تتخلّلها أشعة الشمس الصفراء. أرجل بجوارب بيضاء، النساء بمعاطف خضراء، وتنانير بيضاء مهتزّة، تقترب كالصباح البديع. طريق مغبرّ تحت حوافر جواد رمادي، ويتدحرج بشكل صحيح وسهولة ترام سكة الحديد الذي يجرّه الجواد. يعدو كلب صغير أسود بعينين بيضاوين. تنتصب صفصافة حزينة ضخمة الرأس إلى جانب بئر المضخة القديمة. ينظر رجل عجوز مكتئب من النافذة المحطمة لقصر قديم تتسلق عليه الطحالب، والعنب البري. الفراشة البيضاء ما تزال تطير مع أوراق الشجر الشبيهة بالنقود الذهبية. الصباح في جزيرة مارغيت. هنا تنتظر المرأة الشابة، برفقة ناتاليا، هنريك. يصل هنريك. ينحرفان عن دروب المشاة المعتادة المهجورة، ويصيران بين الأغصان النائمة، والحجارة المنفية من الحياة، والحفر العميقة، وخلجان الضفة حيث المياه تنسكب فيها دونما انقطاع. هنالك مدينة بودا في الجهة الأخرى من الضفة، حيث تنتصب ڤيلات روجا دومب بكلّ غطرسة بين الأشجار الخضراء، بين الأبخرة المتصاعدة من صفحة الدانوب، تحت غيوم الخراف المرحة، وكأن سكان هذه البيوت لا يعرفون الحزن والمتاعب. خلف الشرفات ذات المظلّات الحمراء يصدح صوت البيانو طوال اليوم. يقرأ هنريك «أحدث قصائده» التي ما تزال ناتاليا تتذكرها.

هيّا نقصد الوادي وراء المرج
عبر الطاحونة القديمة الطنانة.
انظري، انظري، المساء يلقي بوشاحه الأرجواني
على الأرض والسماء
نافذتك تشتعل ككرة نارية،
والأشعة ترتعش فوق البحيرة
وعلى الصخرة البيضاء لا يزال العشب غير مندّى.
هيّا، هيّا، يا ملاكي.

كانت المرأة الشابة وخادمتها الوفية غرّتين في عالم الشعر كظبيتين ضالتين قادمتين من باكوني إلى بست. كيف لهما أن تعرفا أن القصيدة قد سرقها هنريك - كما يفعل العديد من الشعراء - من سيّد إنكليزي يدعى ألفريد تنسون! إنها حكاية قديمة - هذا ما يحصل في العالم دائماً - أن القصيدة لا تمنح ثمارها لمن نظمها، بل لأحد آخر يسمعها من بعيد مع صوت الناي في الليل المقمر أو وهو يمرّ مصادفة عند الأصيل جانب الكوخ الصغير حيث تقوم رياح الغابة بنقل صوت المغني الأعمى الذي يعزفها على قيثارته ويغنّيها.

الظبيتان الباكونيتان، كما سمّاهما السيد هنريك، قد تسللتا من قصر حديقة المتحف في وقت آخر أيضاً تلبية لدعوة هنريك. لم تكونا بعد خبيرتين على نحو كافٍ بالتجوال في العاصمة، وكانتا ستتيهان فيها من دون هنريك. كثيراً ما شعرتا بالسأم في القصر الأصم حيث كانت الحياة ناعمة ومقولبة على الدوام كما في معهد للتربية. كانت الكونتيسه في السادسة عشرة من العمر، وخادمتها الصغيرة ناتاليا في السابعة عشرة. لكنهما معاً لم يملكا من العقل ما يعادل قفل باب. قصّ لهما هنريك روايات سيئة قديمة، وكان يكذب كثيراً في رواياته لأفعال البطل، وكان شعره إلى الخلف ويظهر نفسه بأنه أتعس شاب على وجه الأرض لا يتوقع لنفسه سوى العذاب والآلام، وهكذا بعد فترة قصيرة تخلّت عنه صديقتاه الصغيرتان. لو تعامل هنريك معهما بشيء من المهارة لتمكن من التعامل بسهولة مع الفتاتين القرويتين الصغيرتين. لكنه تلقى مساعدة كبيرة في عملياته من قِبل شخص يدعى بالاتسكي الذي لم يعد شاباً فتيّاً، وكان ذا شعر صدئ مهترئ كأنما كان يكثر من فركه بفرشاة ثياب قديمة. كان يرتدي ثياباً مخططة، وينتعل حذاء ضخماً، ولا يتوقف عن النظر متوتراً إلى ساعته كأنما قد تأخر عن موعد ما. كان يستطيع تحريك يديه ورجليه معاً في الوقت نفسه كأنه يسرع نحو هدف بعيد، ويستطيع تحريك قبعته القش على رأسه من دون أن يلمسها بيده. استخدم كلمات لم تعرف المرأتان معناها. وكان أول ما طلبه منهما أن تريا إذا ما كان في المنزل معطف قديم من جلد الأيل، أو قفازات، أو ربطة عنق لم يعد الكونت العجوز يستخدمها، وهو سيرتديها بكلّ سرور. فكان ينبغي عليهما دائماً في طريقهما

إلى اللقاءات أن يحملا شيئاً لبالاتسكي الذي كان غاضباً، وصموتاً، ومتذمّراً على الدوام. كان يخصّ وقته بقيمة كبيرة، فلم يشأ أن يمضيه عبثاً قطّ. كان في أثناء الليل يقلّد مواء القطط في حديقة المتحف: أُخبرت الآنسة الشابة وخادمتها بأن بالاتسكي وصديقه يقيمان حول المنزل. وفيما بعد لم يكتفِ بالاتسكي برؤية القصر من الخارج فقط. حاك خطة سرية، فكر فيها طوال اليوم وهو يتسكع ذهاباً وإياباً حاسر الرأس بلا قبعة... «لا معنى لكل هذه القصة. يجب تهريب السيّدتين». قال بالاتسكي مرة حين كانوا يتنزهون في بودا القديمة حول مصنع السفن، وانفصل بالاتسكي عن المجموعة «لدقيقة واحدة» كي يعرّج على حانة ويرى إن كانت البيرة طازجة أو النبيذ بالصودا بارداً. «يجب احترام الحظّ». «من يدري ما الذي يخبئه المستقبل؟» «كلّ فضيحة لا تدوم إلّا يوماً واحداً». «قلب الوالدين أطرى من الزبدة الطازجة». كانت هذه أمثال بالاتسكي العادية، وحقائقه الذهبية التي نطق بها بأهمية، وكأنه من أبدعها. وطلب مفتاح باب الحديقة (التي اعتادت الفتاتان أن تعبراه)، وعمل منه نسخة. «لا يدري المرء كيف ينفعه وجود مفتاح معه».

كانت ليالي سهر قصيرة. استندت كلّ من الفتاتين بمرفقيها إلى عتبة النافذة تنظران إلى الحديقة، فلمحتا أشباحاً في عباءات الأشجار العميقة. قرابة منتصف الليل رسمت الريح فوق ماء النافورة حكايات موت سحرية فريدة. كلاب قذرة ضخمة عرضت ظهورها الرمادية وهي تعبر الدروب المرصوفة بالحجارة، وتشمّمت مرات عدة حوضاً انتصبت فيه شجرة غار. الليل: سرّ. الطريق معتم، الرياح تعمل بلا توقف كعامل مجدّ. ترى ما الذي يحدث الآن في هذه الكثافة من الأغصان حيث العين البشرية لا ترى شيئاً بجلاء؟

لم تجرؤ الكونتيسه وخادمتها على النوم في الليالي. عسى أن يحدث شيء هناك في الحديقة، وهما تغلقان مصراعي النافذة الخضراوين... ربما يخرج من بين الأغصان الرجل العاري ويتسلّق كالقرد ساق النبات المعرّش. ربما تغدو مرئية لجزء من الثانية فقط تلك الأشباح التي تنسلّ في الدروب الصامتة، وتختفي على الفور. ربما تتكلم هناك الزهور الحمراء، والورود البرية الحزينة، وتروي قصة حياتها دفعة واحدة. الليل: ينبغي للملوك

المجانين الشبّان التجوال في الحديقة بأيادٍ معقودة وراء الظهور، وينبغي للكونتيسات المزينات بالمساحيق بتنانيرهن الزهرية القصيرة، وكعوبهن العالية أن يخرجن خائرات القوى بابتساماتهن المضلّلة من تحت فروع الدغل الطويلة الأصابع. وهنا لا يحدث شيء إلّا إشارات الريح، وصوت عربة الأجرة التي تقرقع في البعيد مقلّة رجالاً سعداء يمضون وراء عطور الليل وروائعه، وسيداته بثيابهن الضيقة التي تُرى تحتها بجلاء الصدفة التي جاءتها هديةً من البحر الخالد. هكذا نظرت المرأتان بعيون متوسعة كأن ساعةً تدقّ الآن في برج بعيد، ويرجع صداها معلناً مصيرهما النهائي على وجه الأرض. لكن بالاتسكي وهنريك لم يأتيا.

هما لم تنتظرا دائماً سوى بالاتسكي وهنريك، وخطر لهما أن للسيدات شيئاً آخر يفعلانه في العالم. وأن بوسعهن أن يجلسن كالطواويس في الحناطير بقبعات بيضاء، وبشعر أشقر كالباريسيات، وبملامح رقيقة تعبّر عن وجع القلب تحت الوشاح الليلكي. بوسعهن التجوال بثياب بيضاء وبأحذية نقية كملائكة، متهاديات في طرقات النزهات، بوسعهن الإصغاء لمعاناة الرجال وهنّ على الكراسي الهزّازة في اليخوت المضاءة. وعلى رؤوس الأصابع، وبأرجل رشيقة كأنهن في رقصة سعيدة يمكنهن السير جانب حفر القبور ممسكات بذراع الفارس المهذب - في موعد في المقبرة - حيث يقومون في وقت العصر بإنزال تابوت امرأة ماتت في سرير الولادة قبل أن تمنح قبلتها الأولى رضيعها الذي ماتت من أجله. يمكنهن التأرجح في الأرجوحة بأرجل مشدودة كاليعاسيب، ويمكن الجلوس في شرفات المسارح ودور الأوبرا والتلويح بالمراوح اليدوية إلى الطابق الأرضي، ويمكن شرب الشمبانيا ومتابعة أحاديث الرجال الكاذبة بأفواه فاغرة، ويمكن الذهاب إلى بودا القديمة برؤوس مطرقة حين يقرع جرس معلناً بدء الابتهالات، والإطلالة من النوافذ ورؤية النساء الخياطات مرضى الصدور والرئات وهنّ يكتبن رسائل غرامية لذاك الذي يغني وسط الزقاق ليلاً بملء حنجرته على طريقة الحلّاقين... يمكن، ويمكن... لكن انتظار بالاتسكي وهنريك طوال النهار والليل... ما الذي تستطيع أن تفعله تلك النساء... ماذا يعني أن تعاني النساء من أجل الحبّ.

بمعنى: منذ أن تسلّم بالاتسكي قيادة الأمور، لم تُخَصّ الظبيتان الباكونيتان بالاهتمام والأشعار قطّ كما من ذي قبل. لم يقم بالاتسكي باختلاس قصيدة واحدة من أجلهما. لا بل لقد كان يسلّي الآنستين الصغيرتين بأشياء لا تفقهان فيها إطلاقاً. على سبيل المثال، أقام ذات مرة محاضرة مطوّلة عن أنواع النبيذ:

للنبيذ أسماء مختلفة كما للبشر: إذا أطلق على شخص اسم (إرميليك)(*) أو (هاجاي)(*) فلن تؤخذ عنه فكرة سيئة حتى عن بعد. للأسماء روائحها التي تصدم الأنوف حال سماعها. هل يمكن مثلاً تصور أحدهم يحمل اسم (باكاتور): شخص مصاب بفقر الدم، سائم للحياة يرتدي جوارب بيضاء كالأموات، وله أذنان حمراوان؟ على النقيض من ذلك فإذا ما طرقت أسماعنا أسماء مناطق تنتج النبيذ الجيد فسيخطر في أذهاننا أشخاص معافون، ممتلئون بالحياة، ذوو أصوات جهيرة، لا يكفّون عن العمل. نحن نعتقد أن هناك في منطقة(توكاي)(*) أشخاصاً صغار القامة يسيرون في الشارع برؤوس تشبه ختم الشمع، وذوي أشكال تشبه زجاجات نبيذ (أسّو)(*) وجذوعاً ذات يافطات ذهبية وحمراء، مع أننا حين نصل إلى (توكاي)(*) لن نرى سوى يهود عجائز على ضفة نهر تيسا. أو إذا ما أخذنا على سبيل المثال أسماء مناطق (مادو)(*)، (سراديني)(*)، (تارتسل)(*)، فيبدو للوهلة الأولى أن كلّ شخص هناك مدخّن بسبب ما تبعثه الأقبية من أدخنة من فتحات التهوية، وأن في (مادو) لا وجود لإنسان غير سعيد، أو يعاني من الفقر وأنهم في الأقبية يجترعون النبيذ في آنية للحساء، وأن فتات الخوخ واللحم المقدّد يعلق تحت شوارب الرجال. وأنهم بتأثيرالنبيذ يتحدثون دائماً عن فرنتس راكوتسي(**) صاحب الأملاك الشاسعة هناك، والذي جاء من أقبية أونغفار. أو على سبيل المثال يتذوق الإنسان نبيذ (باداتشوني) في حانة صغيرة معتمة عند وقت العصر الكئيب، ويأتي لزيارته الجبل المعلّم بصليب الأسقف، وخليج شبه جزيرة سيغليغت، والطريق العام البعيد الذي يقرقع عليه حنطور

---

*. كلّها أسماء مناطق تنتج النبيذ - المترجم.

**. فرنتس راكوتسي: نبيل مجري، وأمير مملكة المجر، وزعيم الانتفاضة ضد هايسبورغ. يعتبر اليوم بطلاً قومياً في المجر - المترجم.

السيد كيشفالودي الأصلع هارباً من المشاجرات المنزلية إلى قبو النبيذ. أنا لست من المجندين الكبار لنبيذ منطقة بالاتون. لم أتقبل نبيذ كرمة آنيوش التي تزرع قرب قمة باداتشوني الشاهقة، ولا عصير عنب تشوباك الذي داسته حورية البحر... طالما بعد شربها قد زارتني خصور الفتيات المتعرقة في حفلة آنّا البعيدة القديمة، وموسيقيّوها الليليّون، وأربطة الجوارب المدلّاة، والكواحل التي تدور راقصة فوق الكعوب البيضاء، ونساء القمر، إلى تحت نافذتي، وراء المصاريع... حتى نبيذ بونياڤاس الأحمر لم يكن مشروبي بعد أن تذوقته للمرة الأولى، لقد جاءني بنساء ذوات عيون وامضة كخنجر، وبنساء ناريّات عنيفات تحت مساحيق وجه بيضاء، وزوجات بمخالب نمر، وجلب معه نساء مسنّات، وشابات بشفاه تزفر النار والحرارة، وصدور وأكتاف لاهثة، كما تجلب الرياح الجنوبية عاصفة الحرائق النارية. لم أكن يوماً من محبّذي الحبّ الصارخ، حبّ نسيان الذات من شدة الرغبة، كنت دائماً أحبّ أن أتسكع بهدوء في الأزقة المتعرجة تحت أضواء المنازل، والتلصص على النساء حين يعتقدن أن لا أحد يسترق النظر إليهن. لهذا السبب أفضّل الحفلات غير الكبيرة ذات الأضواء الخافتة، وسكب نبيذ الحدائق الممزوج بمياه مقاطعة باراد في أقداح صغيرة في أثناء شرب الأنخاب، والركون طويلاً، طويلاً جدّاً للإصغاء إلى الأحاديث الهادئة قرب النبيذ... دخان نار شجرة الخوخ العجوز يتسكع تحت شجرة الجوز، وتقبع في الطنجرة حورية هي التي تغلي حساء اللحم المفروم في الطنجرة، وبياض الملح ومنديل المائدة فوق العشب الخريفي، وطائر النهس يتهادى فوق رمل الكرمة، الصياح، الأغاني الصادحة طويلاً كالحياة الهنيئة الممتدة إلى البعيد، أما أنا فكنت أحرك عينيّ بكسل إذا ما اقتربت الخادمات المفلطحات ممسكات بأطراف تنانيرهن الرفرافة، من رأسي المسند إلى شجرة التفاح... في مثل هذه الحالات كان يخطر لي جدّي، وعجائز آخرون عفنون.

هكذا تكلّم بالاتسكي، ولم تكن الآنستان لتقدّران كثيراً الشاعرية الكامنة في كلمات بالاتسكي. اندهشت الشابتان بسذاجتهما لأن بالاتسكي العجوز الأصلع ما زال يمتلك الجرأة للحديث عن الحبّ. كانتا ما تزالان تعتقدان أن الرجال في سنّ معينة، في حالة الصلع، وإطالة اللحية، والشيب، يكفّون

عن الحبّ، كتفاهة من تفاهات الشباب. لقد استهجنتا إذن أن يجري هنريك خلال نزهاتهم ككلب صغير يريد اختطاف القمر المتدلّي فوق ممشى النزهة في القلعة، وأن يلفّ بالاتسكي بذراعه الفتاتين فجأة، ويضغط عليهما كحبّة جوز، أو بندق، وأن يمسك خصر الكونتيسه، ويغريهما بالذهاب إلى الفندق الصغير قرب ضفة النهر.

وذات يوم لاحظوا شيئاً ما في المنزل الذي تعمل فيه ناتاليا، فسدّدوا الحساب للخادمة غير الوفية وطردوها، ولم تتمكن بعد ذلك من لقاء الكونتيسه. لجأت إذن إلى هنريك الذي ابتهج كثيراً في الأيام الأولى لرقة صباها، ولبعض الشعرات البيضاء في شعر ناتاليا المتموج، لكن هنريك كان يفكر دائماً بشيء مختلف عما ينبغي أن يدور بذهنه. أحياناً كان هنريك يغادر بودا القديمة ويوصد على ناتاليا لأيام في الغرفة الصغيرة التي استأجراها. كانت ناتاليا تنتظر قدوم حبيبها بتعطش وشغف، فكانت من خلف شقوق الستارة تراقب المارة من سكان بودا القديمة المحنيي الظهور المثقلين بالأعباء، والسيدات بالقبعات المريشة، والفتيات المنكوشات الشعر، والأطفال الذين يحبون على الأرض، والنسوة العجائز اللواتي يتسلّين بالأحاديث الطويلة، (ترى عمّ يستطعن الحديث مطولاً ما دام الشتاء سيقضي عليهنّ حتماً؟ - فكرت ناتاليا في نفسها). سمعت وهي في الغرفة الموصدة صوت الجرس المعلن بدء التراتيل، ورأت من خلال النافذة القندلفت بثوبه الأزرق، جالساً بيدين معقودتين، لكنه سرعان ما نهض واقفاً لما رأى المرأة البدينة تذهب، فقلبت ناتاليا عينيها التقيتين. كان عند تمثال فلوريان جنود في إجازة، والوغد يقف ويداه في جيبيه، المرأة العجوز تتثاقل في مشيتها كببغاء، الفتيات الشابات في ساحة فلوريان يتمشين وبأيديهن عصيّ ركوب الخيل التي استعرنها من البحّار في بودا القديمة. آه كم مرة راقبت ناتاليا من غرفتها الموصدة مزاج النساء المحليات الشغوف بالحياة، ونهمهنّ التطفّلي، وعيونهن التواقة إلى الحبّ، والثياب، والأحذية والجوارب بعدما كنّ يزرن كثيراً مدرسة الرقص (ألدار زيروس) عند ناصية الشارع، ويذهبن إلى الحفلات الموسيقية في بودا القديمة وهنّ في غاية النشاط والابتسام، والقهقهة وكأنهن لم يجئن من تلك الأكواخ الصغيرة الشديدة البؤس والقذارة، عابرات

الأزقة المتعرجة، بل قَدِمنَ مباشرة من سيڤيلا أو من نابولي. وفي حين كانت مداخن البيوت الصغيرة تطلق تحت قبة السماء دخانها بجبن ينمّ عن تواضع، وقلق، وثقل الأعباء، كانت الفتاة القصيرة الثوب تسند إلى ذراع بحّارها إلى الوراء رأسها الحليق الشعر لكي لا تضطر إلى تسريحه كلّ يوم؛ حين كانت الفتيات الشابات المتعطشات للصخب، والتسليات، متيّمات، على نحو عاطفي سوقي بشلاندر الوسيم ببزّته (الفراك)، أو بالموسيقى، أو بمساعد القبطان الذي كان ملموساً، وبمنتاول اليد، وكانت الفتيات يطوفن جوار الكنيس اليهودي، بأصواتهن، وحيويتهن، وخصورهن المثنية، وأحذيتهن بلا جوارب، كان الآباء والأمهات الذين يعملون طوال النهار، وطوال حياتهم بالغسيل، وتنظيف القذارات، لا تسري على شفاههم سوى الشتائم، ويقومون بضرب بناتهم إذا ما رجعن إلى البيت من مدرسة الرقص في وقت متأخر، أو من الحفلة الموسيقية الكبيرة في ساحة فلوريان.

هكذا كان الشارع، وهذه مشاهده التي رأتها ناتاليا ملتصقة وراء الستارة، ولم تكن بعد تعرف المصير الذي ينتظرها.

جاء صحفيون لزيارة هنريك... طبعاً، صحفيون شبان طوال الشعور، حليقو الذقون، ذوو قبّات قمصان كبيرة، وبآخر صرعات الأزياء: شبّان جسمانيون على الطريقة الأمريكية، يمجّون غلايين قصيرة، وسجائر يتبادلونها بعضهم مع بعض، ويلعبون القمار، ويمزقون ستارة النافذة لمجرد شغفهم. بدوا شديدي الذكاء، تكلموا بلغة غريبة، وكالنشالين سألوا هنريك لمَ لا يبيع متاعه ما دام لحم الدجاج باهظ الثمن بما يكفي. كان يطلق عليهم أسماء: بوك (خشبة الزان)، هال (سمكة)، ميه (نحلة)، أكاتس (أكاسيا)، وكانوا يضجّون بلا سبب واضح كأن تنافساً أبديّاً لا ينتهي قائم بينهم: من منهم يتفوق على زملائه بنطق أكثر العبارات تهكماً، وقباحة... تفاخر أحدهم بأنه كان لديه علاقة غرامية مع جدّته، وتحدث الآخر عن الثوب الداخلي الكريه الرائحة لممثلات، وثالثهم عن أنه قام بتعرية زوجة الكانتور اليهودي التي تمارس حياة تقيّة قديسة، والرابع- وكان فتى صغيراً كأنه هرب يوم أمس من مركز رعاية الأحداث في (أسود)- أفاد بأنه لا يريد أن يتعرف إلّا على سيّدات أعمال عجوزات ثريات ما أمكن يخبئن مفتاح دروج النقود في ثنايا فساتينهن.

الفصل التاسع

وفيه يبدأ دوبلي قصته.

الصحفي الخامس لصّ ذو وجه لافت للنظر بلا أسنان، رمادي الشعر، روى الحادثة الآتية ذات مساء حين كانت المجموعة في زيارة لهنريك:

- أنا لا أحبّذ سوى النساء السجينات سابقاً، صحيح أن لهن رائحة الخميرة، لكن لا وجود للخبز بلا خميرة...

- أوو، أيّها الوغد، لعلّك تريد أن تقص مغامرات عن ماريشكا هاڤيردا قاتلة أمها التي كانت بعد إطلاق سراحها أشهر نساء مقهى أمكه؟(*) - قاطعه أحد العارفين.

لوّح صاحب الشعر الرمادي بيده هازئاً:

- الصحافة هي التي صنعت ماريشكا امرأة عظيمة. لم أكن في يوم أحبّ تلك النساء اللواتي ذاع صيتهن من لاشيء بسبب سمعة الكتاب الصحفيون. لقد حصل الزملاء على ما يسمى أمراض الحبّ الممكن علاجها لفترة طويلة، حصلوا عليها من الكاتبات، والممثلات ومن سيدات أخريات غالباً ما نقرأ أسماءهن في الجرائد. في رأيي إن من الجدير إقامة علاقات الصداقة مع هؤلاء النساء اللواتي يلقّبن بالشهيرات، ليتمكن المرء من عقد الصفقات معهن إذا ما سنحت الفرصة.

- أيّة صفقات تقصد، يا دوبلي؟ - سأل هنريك باعتباره صاحب البيت المضيف.

---

*. أمكه: أشهر مقاهي بودابست، ما زالت حتى الآن - المترجم.

الشاب الرمادي الشعر المدعو دوبلي مدّ ساقيه بعيداً وهو يخرج من الغرفة الصغيرة. رمق السائل بضحكة ذات دلالة.

- صفقة جيدة! - أجاب من دون أن يشدّد على كلماته - صفقة جيدة يا صاح، كأيّ صفقة عادية ينصح بها الشيوخ أولادهم الناشئين: دكّ عنق المرأة، وستتمكن من العيش طويلاً فوق الأرض. في عيد القديس إستفان كنت على الدوام أقدّم مغنيات الأوبرا لمعارفي الريفيين الذين عرفتهم من خلال الدراما، أو الأوبرا، لكي يقطعوا أعناقهنّ.

- اقتل المرأة! دوبلي محق- صاحت المجموعة ضاحكة، وزائرة، صاخبة، بينما أطبق هنريك عينيه من شدة ارتباكه.

كان دوبلي الرمادي الشعر ثملاً بعض الشيء على الدوام- لم يكن يتمكن من الخروج في نزهة خارج بست- إلى بودا القديمة مثلاً - إلّا بعد أن يشرب ما يكفي - ثم يعود من النزهة إلى بست برأس ضبابي مشوش حالماً بروعة الحياة الريفية- النجاح الذي حصدته كلماته شحنه فقال:

- وأكثر من ذلك. لا ينبغي قتل امرأة واحدة فقط، بل جميع النساء. أستغرب من هنريك أنه حتى الآن يستضيف ذلك الشاب وينترشتاين ذا قبعة القش السوداء، وعصا النزهة الفضية الذي يشحن اللحم إلى أمريكا الجنوبية. كم شاهدت في رواحي وغدوّي كثيراً من السيدات الشابات العاطلات، المتسكعات بلا هدف يتجولن هنا في بودا القديمة، وعندئذٍ لم يخطر ببالي طوال رحلتي إلّا وينترشتاين. لمَ لا يأتي هذا إلى هنا حتى الآن؟ هؤلاء السيدات الضجرات الوضيعات القدر يتمنين أن يعملنَ في مصنع كونسروه مثلاً في بوينس آيرس، في حين لا يملكن هنا إلّا أن ينتظرن الموت، ويحصلن على طفل، ويتلقين كثيراً من الضرب، وهنّ سعيدات إذا ما تزوجن في نهاية المطاف عامل خراطة من جنسية أجنبية. كم جنيه استرليني، وكم من ذهبيات ڤيكتوريا الحقيقية تذهب هدراً في بودا القديمة بسبب السينما الرخيصة، ومدرسة الرقص المكتظة برائحة العرق! سأنقلب في شيخوختي إلى تاجر لحوم، وما بوسعي أن أكون غير ذلك بعد أن أفقد رغبة النساء بي؟ كم هو منغّص وأليم أن أبتعد عن أكثر الميادين رجولة وأهمية ابتعاد

جندي عجوز عن ميدان الشرف. أنا لمَ يجب عليّ أن أخاف من أن تخونني النساء، ويتلاعبن بي، ويعطين نقودي لأحد آخر... لأن النساء لم يحببنني على الإطلاق.

بعد أن كانت مجموعة الصحفيين قد سمعت غير مرة قصة حياة السيد دوبلي الشخصية، إضافة إلى تحلّي هذه المجموعة بعادة جيدة هي عدم الإصغاء إلى أيّ كان يقوم بتمجيد شخصه - فلقد أعطت إيحاء بالأيدي والأعين، وحتى بالإيضاح المباشر، بأنها لا تكترث لما يقول، ولا تنتبه إليه- رأى السيد دوبلي من الحسن أن يلتقط خيط القصة التي بدأها عن المرأة السجينة، بعد اعتقاده أنه إثر هذه الحكاية الناجحة سوف ينال اعترافاً نوعيّاً من زملائه:

- بالمصادفة دُعيَتْ مارغيت، كأغلب النساء في مدينة بست... رائحة الاسم نادراً ما تذكّر بالبلاطات الملكية، بل في أبعد تقدير بمحلات بيع الأجبان والليمون في شارع دوب، وبالصناديق المفكوكة في جوار المجمعات التجارية، وبأقفال السراديب التي بحجم رؤوس الأطفال، وبالمنازل ذات الأفنية الصغيرة حيث الفتيات الكثيفات والطويلات الشعور ذات العيون السوداء، والأعناق البيضاء، والبشرة الكعكية اللون، يقمنَ بغسل ثيابهن البيضاء، وكيّها، ونشر جواربهن مساء على أعتاب النوافذ، ويقمن في الصباح بتلوين أحذيتهنّ البيضاء بالطباشير استعداداً للطيران يوم الأحد أو السبت كفراشات بيضاء... يغسلن عن أجسادهن عرق المكاتب وورشات صناعة القبعات، ويصدح الصوت سعيداً على شفاههن كأنهن ولدن من جديد. فتاتي أنا التي اسمها مارغيت، هي أيضاً لم تكن ترتاد الكنيسة اليسوعية ذات البطن الأحمر، بل مكتب مونك ودافيدسون.

- هل أغويتها؟ - قاطعه شاب ذو وجه مجدور، قابضاً بشراسة على عنق دوبلي فكاد الأخير يختنق.

- أجل - أجاب منقطع الأنفاس.

- كفى إذن - تابع المجدور الصغير باستبداد ديكتاتوري- في هذه المجموعة لسنا متشوقين إلّا للقصص التي تقوم فيها النساء بإغواء الرجال:

القصص المأخوذة من الحياة بالمجان. أغلق فمك إن كنت لا تعرف شيئاً غير هذه القصص السيئة التي أعادها إليك محرّر الصحيفة.

- اسمع إذن قصتي هذه - صاح دوبلي بعد أن أبعد الفأرة الصغيرة عن عنقه، وحوّل عينيه مجدّداً إلى ناتاليا، وكأن المحاضرة برمّتها تُقدَّم على شرفها - مارغيت في الحقيقة، لم تكن تذهب إلى المكتب، بل كانت تبيع الزهور في ملهى يدعى باريزين. بقيت هذه الملاهي في بست منذ زمن معرض الألفيّة... في ذلك الوقت كانت السيدات ثريات، ولكن أحوالهن ساءت بعد المعرض، ووقعن في فقر مدقع لأن البستيّين لم يملكوا المال الكافي للإنفاق عليهنّ، وكمن أصابهنّ الإفلاس، أو كقطيع حيوانات رحّال توقف على الطريق العام، بقيت هنا في بست هذه المجموعة من النساء الغريبات الريفيات اللواتي جئن من كلّ أصقاع الكون إلى العاصمة. كانت هنا راقصات زنجيات من فلوريدا جئن ببعض الأغاني والرقصات من بلادهن، من مزارع قصب السكر، جِلْنَ أنحاء أوروبا، وقبعن مسترخيات لامباليات في «سوق لندن» يخشخشن بذهبهنّ، وفضّتهن ما إن يقترب متسوق، عندئذٍ ينهضن فجأة، ويركضن كالبلاشين السود قبل طيرانهم... وكأن هنا فتيات باريسيات راقصات هزيلات كالنوارس في فصل الشتاء، لا يتوقفن عن محادثة معارفهن من الرجال بما لا يحصى من الأحاديث والأسئلة، وغسلْن بعطفهن الخاص الرجلَ النازف الرأس الذي عالجوا مشكلته في أثناء حرارة حفلة الرقص، ثم طرنَ بسرعة، كسرب من الطيور وهنّ يدسسن الأوراق النقدية تحت كعكعة شعرهنّ الشقراء المستعارة... الفتيات الإنكليزيات، قطط الأنغور، الكثيرات العدد قمن بأدوارهن على خشبة المسرح أولاً بأول وبإتقان تامّ. «نجمة البلقان» بجواهرها الزائفة، السيدة الأمريكية تمدّدت باسترخاء وراحت تقذف الرجال بالبرتقال، وتصرخ كالببغاء بكلماتها الإسبانية التي يعيدها الرجال بغباء. أما النساء البستيات فكنّ ينافسن بحماقة، الغريب أن هنالك في أصقاع العالم ومدنه المختلفة تعيش سيدات عجائز حَلَّيْن ليالي هنا وهناك... أما في جزيرة مارغيت على مقعد تحت شجرة حور وحيدة متساقطة الأوراق قبل الأوان، ومورقة في وقت متأخر، عند وقت عصر يوم في أواخر آب، كم يحلو وصف الخريف في كتاباتي، وصفاً حزيناً أو سعيداً.

هذه الشجرة الوحيدة المبكرة المتأخرة كانت أنا. مثّلتني وأنا أقف بالقرب من ڤيلا الأمير يوجف القديمة ومثّلت حياتي الذابلة باكراً بأوراقها وفروعها الذابلة في منتصف الصيف... هذه الشجرة المتساقطة الأوراق سريعاً وهي في أوج السعادة والاخضرار. عبرت الرياح بين فروعها كالأفكار الحكيمة في رأس رجل كهل. - إذن لم يقرؤوا من أعمالي في جوار القصر القديم قطّ.

كانت مارغيت سيدة مجريّة. وقعت في حبّي، وكانت تشرب حتى الثمالة، وفي مثل هذه الحالة أرادت دوماً أن تقذف بنفسها في نهر الدانوب، وكنت أجد مشقة في اللحاق بها وإنقاذها من التيارات الشديدة في أوقات الفجر الشتائية. كم ركضنا في شوارع المدينة بحثاً عن اللهو والحفلات ثم خرجنا إلى الدانوب، وهناك تقذف بمحفظة نقودها، ومعطفها الشتائي، وقبعتها كي تغدو قفزتها الحاسمة في النهر أكثر سهولة. كم خطر لي ككاتب شاب (وهي قربي في الشارع تتخبط بأفكارها الانتحارية، ونوباتها الجنونية) أنني ذات يوم سأصبح عجوزاً مريحاً أحتسي النبيذ الأحمر بصندلي المنزلي إلى جانب مصباح بمظلّة خضراء، قرب هسيس نار المدفأة في الليالي اللامتناهية السكينة: فيما بعد سأخطّ على الورق قصة مارغيت الحزينة. وإذا ما رزقني القدر بامرأة تتأخر في الاستيقاظ، وتنام باكراً، فإنها لن تتمكن من مراقبة القصة على أوراقي، وهكذا فإن نغمة القيثارة يمكن أن تصدح عن مارغيت وذكراها وهي داخل قبرها في مقبرة كصفصافة باكية بمحاذاة الدانوب. أول ما يلاحظه الطحان في المدينة الكبرى هي مداخن الطاحونة، والكاتب في مخاضه التعيس ودرجة حرارته الأربعين لا يفكر إلّا بالطريقة التي تمكنّه من كتابة كلّ هذا على الورق. طفلي الصغير يصخب، ويلعب الكرة في الجوار، وأنا على مهل، والغليون في فمي أخطّ بمنتهى العفوية سيرة حياة مارغيت المسكينة.

ولكن مارغيت ليست هكذا... هي حقّاً أحبّتني، برقة ووحشية. كنت هواءها الذي تتنفسه، والماء الذي تشربه، لم تستطع النوم من دوني، وكانت، وهي تسرح شعرها في المرآة، تلتفت إلى الخلف لتتحقّق إن كنت وراءها حقّاً، وإلّا لا معنى لتسريح شعرها في غيابي. خطر لها ذات مرة أنني سوف أتخلّى عنها... يحدث مثل هذا لدى النساء المغرمات. حلمت، وأحسّت

بالأمر، ويوماً وراء يوم تعزّزت أحاسيسها وفتك بها الألم بسبب انفصالنا القريب. وهكذا ما كان لي أن أفارقها لحظة واحدة قطّ... أقمت عندها، ونمنا وأكلنا معاً برفقة أخيها الصغير الذي كان تلميذاً في الصف الثاني في المدرسة، وكنت أستذكر معه دروسه (كان اليتيم الصغير يدعى ألفريد إن لم تخني ذاكرتي، وكان أخوها الآخر كاروي قد أتمّ الخامسة عشرة من العمر، وعمل مستخدماً في مصنع المصابيح). هكذا عشنا نحن الأربعة. الصبيّان في غرفة، ونحن في الغرفة الأخرى، أسماني الولدان العم دوبلي، وجلبا لي السجائر والبيرة، وكان ألفريد الشخص التنفيذي الصغير الذي يحمل لأصدقائي رسائلي المتوسلة المقترضة، وذات يوم كتبت لبالاتسكي - كيف خطر لي هذا الرجل الوضيع المذلّ!

لم يرسل بالاتسكي نقوداً، بل على العكس من ذلك لقد جاءني شخصيّاً، وسعى إلى تعزيز ثقتنا بكلمات ماكرة لطيفة، وبعد انقضاء الحفلة في ملهى باريزين رافقنا في الصباح إلى البيت، ومددنا له سريراً للنوم، وهكذا انتقل بالاتسكي للإقامة عندنا.

في هذه الفترة حصلت من صداقة بالاتسكي على فوائد نوعية فكنت أرسله فجراً وراء مارغيت إذا ما جاءتها النوبة فجأة وأخذت تعدو في العاصفة الثلجية، وضباب الفجر نحو الدانوب. فيما بعد حطّم بالاتسكي البدين رقبته وهو ينقضّ ويلقي بنفسه وراء المخلوقة الصغيرة الراكضة بسرعة ورشاقة. دائماً كان يفلح بالقبض عليها على ضفة الدانوب.

أما لمَ لمْ أتخلَّ عن مارغيت؟

هنالك أسئلة لا يستطيع المرء الإجابة عنها.

يبدو أن الأمر كان حتميّاً، لأتعرف وأنا في سن التاسعة عشرة من شبابي على غرائب الحياة التي لا يمكن أن يعايشها أغلب الرجال على مدى حياتهم.

أكرّر القول: منذ أن وضعت مارغيت في رأسها أنني سأتخلّى عنها لم تدعني أفارقها لحظة واحدة. وبالطبع فقد نفدت نقودنا سريعاً، فكان بالاتسكي يأكل ويشرب بمنتهى الشهية، إضافة إلى حاجة الولدين لثياب شتائية جديدة. وبعدها لم يعد بوسعي الخروج إلى الشارع- لا بل وجب

عليَّ أن أواظب على حضوري في الملهى طوال فترة الحفلة من الساعة العاشرة ليلاً حتى الخامسة صباحاً، جالساً عند طاولة ركنية على مقربة من الفرقة الموسيقية، أحتسي البيرة برفقة بالاتسكي الذي طالما كنت أحسده لتمكنه من محادثة نساء الملهى، والمزاح معهن على مزاجه في حين لم يتسنّ لي- لم يكن مسموحاً لي- أن تطرف عيناي وتلمحا أيّ امرأة هناك، كأنما كانت مارغيت تراقبني من البعيد، ولا تتوانى عن الحضور، وتبرق عيناها كعيني النمر. في مثل هذه الظروف كان على مارغيت أن تقوم بأعباء عائلة بأكملها. أمّها، وأختها الصغرى كذلك اللتين كانتا في بودابست تعتاشان على ثمن الزهور التي تبيعها مارغيت التي كان محظراً عليها الحديث عنهما، ولم تكونا تزورانها بتاتاً. كان ألفريد هو ساعي البريد الذي كلّ صباح قبل ذهابه إلى المدرسة، ينقل الرسالة التي تحتوي جزءاً من مدخولها الليلي.

ليس غريباً بعد كلّ هذا أن تكون مارغيت مثقلة بكثير من الأعباء المدوّخة. لاحظتها وهي تستلقي إلى جانبي في السرير وعيناها مفتوحتان لساعات طوال، وكانت قد باعت ثيابها، وجواهرها. كنا أحياناً نمضي مساءاتنا في المنزل لأن ثوب مارغيت الحريري عند الخياطة التي لم تقم بإصلاحه في الوقت المحدّد.

مصادفة حمقاء سرّعت في أحداث القصة.

المنزل البودابستي الذي قطنّاه كان محاطاً بالأشجار العالية بارتفاع سقفه من جهة الشارع. أغصان الأشجار هنا كثيفة في فصل الصيف، وتغلفها في الشتاء الثلوج، وتفحّ بأصوات فريدة بفعل الرياح. نفدت مواد تدفئتنا، ومؤونتنا، فقام كلّ من كاروي، وألفريد في الليل- باقتراح رائع من بالاتسكي- بقصّ الشجرة المنتصبة أمام البيت، وقطّعاها كيفما اتفق. لم يبقَ الأمر خفيّاً. اقتيد الصبيان إلى الشرطة وحكم عليهما بالسجن مدة عشرة أيّام. جنّت مارغيت من شدة الألم فقد كانت تحبّ أخويها حتى العبادة. صارت تعامل بالاتسكي باستياء، وتخصّه بنظرات الازدراء وهو كان يهزّ كتفيه ضاحكاً ويقول: «لا بأس أن يقبعا قليلاً في السجن، لكنني أعلم أن مثل هذه الجنح يمكن استبدالها بمبلغ من المال». كانت مارغيت في هذه الفترة قد باعت آخر خواتمها... وعند المساء ارتدت ثيابها بكدر شديد وأجهشت

بالبكاء... وحاولت أن تتصنع ابتسامة على فمها وعينيها، لكن ثدييها كانا يهتزّان أحياناً وهي ما زالت تبكي. كانت كفدائية صغيرة تصعد إلى خشبة التعذيب. طلبت مني أن أتجنّب الملهى الليلي إن كنت أرغب في بقائها على قيد الحياة، وودعتني مطولاً، وبمرارة في ركن يجاور مدخل ملهى باريزين المنار، ويصلح لأن تضغط النساء هديةً في قبضة الرجال. أعطتني مارغيت كلّ ما تملك من نقود، كي لا أكون مفلساً خلال الليل. رمقتني طويلاً بنظرة منبعثة ممن يرغب في الموت، ودخلت عبر الباب المزخرف بصور راقصات على رؤوس أصابع أرجلهن، وراقصات باليه يرفرفن في الهواء، كالفراشات، حين قام البوّاب الآسيوي الضخم باستلام بطاقة دخول وخروج النساء المستخدمات في الملهى.

أطلقتُ صفرةً لبالاتسكي الذي انتظرني في ركن الشارع وفيما بعد كم احتقرت نفسي لأنني تركت مارغيت وحيدة في هذه الليلة، لأنها الليلة التي حدّدت مصيرنا نحن الاثنين. لكنني آنذئذٍ في الوقت نفسه كم سررت لحريتي غير المتوقعة، لنجوم السماء الشتائية الوامضة، لرجال الشرطة ذوي المعاطف، للموسيقا الغجرية المنسربة من المقاهي، للساعة الضخمة المضاءة فوق محطة القطارات الشرقية... منذ مدة طويلة لم أمضِ وقتي على النحو الذي أرغب فيه. رحت أعانق بالاتسكي، ونحن ندور على بعض المقاهي، ولم أعد الآن أقرف من نساء مقهى (أمكه) الرخيصات اللواتي يشربن البيرة حتى الثمالة إلى جوار ضباط في الجيش، وهنّ يغازلن قائد الفرقة الغجرية الملمّع الشعر، ويتلذذن بجنون بالأغاني الدارجة في بست، التي عند حوالي منتصف الليل يصدح بها الغجريون سويةً مع زوّار المقاهي. ولم يعد يقرف سيدات حيّ فرنتسڤاروش اللواتي يشربن شمبانيا (بودو)، ويمضغن اللوز المملح اللواتي تحصل بسببهن المشاجرات الدامية آخر الليل بعد أن يكنّ قد أثرن الرجال وقمن بالتلويح بكؤوس الشمبانيا نحو طاولات الغرباء، وتحميس الغرباء السذج الذين كان عليهم التصديق أنهم ليسوا ضحايا النظرات المغوية للسيدات والفتيات الفاضلات، بل من اصطفتهم السيدات الراقيات المتعطشات للمغامرة... وما إن يصار إلى فضّ المشاجرة حتى تكون الفرقة الموسيقية قد أنهكت، فيلملم الآباء الثملون أنفسهم للرحيل، وتبدأ الأمهات

يشعرن بتعب وجبة الغسيل الكبيرة يوم أمس، وتتنهد الفتيات كأنهن يودّعن عالماً سحريّاً حين يقول لهنّ البوّاب تصبحن على خير. لم أعد أقرف من صحفيي نيويورك الشبان الصفيقين الصاخبين الذين يصعدون وينزلون من الطابق مئة مرة في اليوم الواحد، وكأن لديهم أعمالاً في غاية الأهمية، وهم في واقع الحال ليسوا مهتمين سوى بفكرة: ترى من يحمل بيده الجريدة التي نشرت فيها آخر مقالاتهم. لم أعد أقرف من النساء اليهوديات الفاحمات العيون، المليئات السيقان، ذوات الشعر الفاتن بريش البلشون، اللواتي عن بعد يبدون في مقهى هنغاريا، وكيوسك عاطفيات كبطلات روايات حقيقية يحببن، ويكابدن، ويمتن بجدية، نظراتهن مكتظة بالأحلام والحزن كما في نظرات أعين النساء اللواتي لا ينضجن أبداً، ويعانين بصمت، يبدون كأنهن ينشدن دائماً كلّ ما هو أكثر رقة، وطرافة، ومتعة، ينشدن شيئاً آخر يختلف عما تقدمه لهن الحياة اليومية... يبدون عن بعد يترقبن بشغفِ الشفاهِ المتلهفةِ الفارسَ المنقذ، في حين هنّ عن قرب عاديات، ومملّات، ولا يتمتعن بثقافة، أشبه بالسكّير البودابستي الذي يربطن به حياتهنّ كباقي شجيرات الدفلى المغبّرة الكارهة للحياة.

حصل معي في السابق أنني فتنت بهذه الكعوب الصغيرة، وكشاكش التنانير التي مرّت طازجة رشيقة، ناعمة أمام الفنادق قرب ضفة الدانوب، وتوهمت كما لو أن أعجوبة ستحدث معي إذا ما، عن طريق المصادفة، وبخفة الرغوة، صعدت إلى قلبي قدمٌ صغيرة... ثم خلعت النساء أحذيتهن، وجواربهن فتلاشت الأوهام.

كان قد طلع الفجر حين غادرت وبالاتسكي مقهى الحفلة الموسيقية حيث تشغل النساء الأماكن بلا حراك وجلال وروعة كالطيور الزجاجية الأعين بقبعاتهن. تناسيت عتاب مارغيت، ولم ينتعش فيّ إلّا الامتنان والرغبة في أن أحقّق سعادة للمخلوقة البائسة المضحّية. تصوّرت وجهها الصغير الجميل وعينيها الحزينتين وفمها النزّاع للبكاء، مثلما لاح لي فيما بعد... وقفت أنا وبالاتسكي متربصين عند مدخل ملهى باريزين.

كانت المصابيح جثثاً بيضاء في الشارع المعتم، تشتعل وتخفت، وكانت تنبعث من تحت الأرض موسيقا الحفلة العاصفة كأنما كانوا يؤدون الرقصة

الأخيرة. تخيلت (فيدرا) الراقصة الفلوريدية الشهيرة بساقيها الغزاليين وثوبها الببغائي. تصوّرت النساء الڤيينياويات الشقراوات ببلوزاتهن البيض، وجواربهن المخطّطة ويحرّكن كشاكش تنانيرهن على إيقاع رقصة الڤالس. قد يكون أحد الأثرياء الغرباء وصل في هذه الليلة... كان سائقو الحناطير ذوو الأعين الصقرية ينتظرون في الشارع نائمين تحت أغطية الأحصنة المجعّدة. وفي الجهة الخلفية كانت سيدة صغيرة هزيلة تدفع عربة أطفال برفقة عذراء شابة طويلة القدّ، تذهبان إلى المطبعة من أجل الجريدة الصباحية التي لم أكتب فيها مجدّداً.

استيقظ البواب الآسيوي فجأة، وأعطى إشارة للسائقين وانفتح في الأسفل باب زجاجي. جلبوا أولاً جثة ميت... ثم قام أمناء الثياب بخلع أزيائهم الموحّدة الحمراء التي ألبسهم إيّاها المالك الطموح، ونقلوا طرداً ضخماً على السلم بسرعة كبيرة كأنهم في حالة سباق لنقل الجثة. كانت جثة السيدة ساور، وهي سيدة ڤيينية، كانت حتى الآن ممدّدة في أمانة الملابس بعد أن ساءت حالتها في أثناء الشرب، ورقص الڤالس. ذات مرة - قبل مارغيت- كرّست أمسية من أجلي، وحدثتني طوال الوقت: ما أروع قيادة العربات في الحديقة العامة لكن في شهر أيلول حين تبدأ أوراق الشجر بالتساقط فقط. أمر يدعو للحزن الشديد كونها لم تتمكن من الموت في وطنها، حيث يغنّون هناك عن الدانوب الأزرق، وتزدان جدران غرف العائلات بقطع خشبية عن يوهان شتراوس العجوز.

حمل خازنو الملابس الجثة إلى تحت مدخل منزل مجاور قام بفتحه ناظر البناية.

ثم فتح باب المدخل الزجاجي، فصدرت من العمق نحو الأعلى جلبة أشبه بصخب حفلة. أطلق الكثيرون الصفير، ودندن آخرون بالأغاني، وصرخ البعض بكلمات غير مفهومة، ونداح في الشارع جمهرة معربدة، قذارة صالة رقص تحت الأرض، حشد مستهتر في ليل المدينة الخانق. عرفت هذه الوجوه الشاحبة التي يعتريها الحزن والذبول. لقد رأيت كلّ ليلة هذه العيون المرسومة بالظلال، والشفاه القانية، والآذان الحمراء، والذقون الحليقة حديثاً، والياقات المجعدة، وسترات الفراك المتعرقة، وأحذية

الرقص الغبراء، وجزادين النقود ذات الأذن، الأزهار الذابلة كالموتى، الجواهر المطفأة اللمعان، واللآلئ، والتسريحات المفكوكة- وطالما كنت أفكر ترى ما هي وجهة هؤلاء، وأين تذهب هذه الوجوه، وكعوب الأحذية، والأمزجة والعيون، والجواهر، والتنانير البيضاء، أين تذهب لترتاح وتنتعش استعداداً للمساء... راح الحوذيون يصفقون الأبواب بأصوات عالية وفضول وراء الأزواج الصاعدة إلى الحناطير. إحدى النساء نادت الأخرى بصوت زاعق لتعطيها موعداً لوقت العصر، وتحدثت أخريات عن ترتيب المنزل. والآن ما تزال هذه الأجساد المنهكة، الرخوة، تضحي من أجل الحبّ، والأفواه النتنة والشوارب المتهدّلة تقبّل بعضها بعضاً. يقرقع الحنطور ماضياً بالعروس والعريس مبتعداً عن مصابيح (باريزين) بين الأبنية البودابستية القاتمة، الجهمة المثلجة. في طريقه إلى غرفة الفندق التي تترقب القفازات الذابلة، والتسريحات المفكوكة، وأحذية الرقص المرميّة؛ ويقوم الآن الخادم بإشعالها بعينيه الحمراوين، فيما يقوم النزلاء في الغرفة المجاورة بتوضيب المتاع ونقلها إلى القطار الصباحي. آهٍ... كم مرة أفقت من أحلامي المذهلة في غرف غريبة، إلى جانب وجوه غريبة لم أعرفها للوهلة الأولى، وكان عليَّ أن أفكر طويلاً أين أنا وكيف جئت إلى هذا المكان وأنا في حالة من جنون الكحول، والفجور... وفي الوقت ذاته كان يجب أن أتعلّق بقارب النشوة كي لا أولول من تعاستي وقرفي، وأصرخ كطفل خائب.

الفصل العاشر

وفيه ينهي السيد دوبلي قصته.

أمسك بالاتسكي بذراعي فجأة.

خرجت مارغيت بمعطفها القصير من باب الملهى، وعلى رأسها شال رفيع لأنها كانت في الأيام الماضية قد رهنت معطفها الطويل. تمايلت كأنها غدت ثملة. قبض على ذراعها بقوة رجل تافه بشاربين ويرتدي معطفاً قصيراً، وينتعل جزمة، في حين وقف شفارتس الحوذي الليلي المعروف أمام المدخل. وخلال الصعود أشار شفارتس بسوطه إلى الجهة التي وقفت عندها برفقة بالاتسكي تحت مصباح ركن الشارع. رمقتنا مارغيت من خلال نافذة الحنطور بوجه شاحب أشبه بوجوه الموتى. لن أنسى مطلقاً عينيها المذعورتين المتسمّرتين كأنها ترى شيئاً شديد البشاعة. وانطلقت بها العربة كمن يقودونها إلى المشنقة، ولن أراها بعد الآن...

- الجزّار! - قال بالاتسكي بعد فترة قصيرة - أراه منذ مدة طويلة يدور حول مارغيت، وأخيراً حظي بها، ونال مراده.

- الجزّار! - صرخت وتملكتني الرغبة في أن أسأل بالاتسكي: لماذا لم ينبّهني أمس، أو أمس الأول عن نيّة الجزار... لكني لم أنطق بحرف لأني أنا نفسي كنت أعرف عن الجزار أنه كان يرسل لمارغيت شتى أنواع الحلوى، والكنزات الحريرية، والنبيذ الطيب، حتى إنه حضر بنفسه ذات مرة فانسحبتُ مع بالاتسكي، والولدين إلى الغرفة المجاورة وأحدثنا جلبة كبيرة، وقلبنا الكرسي والطاولة، ولقد عبّرت مارغيت بعينين دامعتين عن امتنانها لأننا أزعجنا الجزار.

كنت أودّ أن أقع في حالة من اليأس، فلم أستطع. شعرت بأن الموت قد أنقذ أحداً من مكابداته الرهيبة، وقضى على مريض قلب بائس مختنق، محتضر، لا يملك سوى العويل، بعد مكابدات طويلة... هذا أفضل لها على أيّة حال- فيما بقينا نحن، حمداً لله، على قيد الحياة نقيم عليها الحداد بهدوء- أجل سوف أكتب كلّ هذا فيما بعد وأنا في سنّ الأربعين، مزوّداً بالخبرات الناضجة، بعد عودتي إلى أملاكي في القرية، حيث الكلاب تحرس منزلي، وأنا أكتب أهم أعمال حياتي، على ضوء شمعتين مرطباً بالنبيذ شفتيّ الجافتين... الكتابة سوف تواسيني فيما بعد وتطهرني من مكابداتي الأرضية برمّتها.

- أين سأذهب الآن؟ - سألت صديقي.

ضحك بالاتسكي متهكّماً.

- وأين ستذهب؟ إلى المنزل، إلى عند الولدين. غداً يوم أحد. يجب أن يذهب ألفريد إلى القداس، وسيحصل كاروي على قميص جديد، لأن مارغيت لن تعود إلى المنزل إلّا عند الظهيرة في الغالب، على أبعد تقدير.

سرّتني الذريعة التي تمكنني من الرجوع إلى المنزل الذي يحظر عليَّ دخوله في الواقع بعد كلّ ما جرى. ما الذي سيفعله الولدان إن تخلى عنهما الجميع صباح الأحد؟ بالاتسكي محقّ. مسكين ألفريد الصغير، كم هو في حاجة لمن يعتني به ويشرف على تنشئته، وإرساله إلى الكنيسة اليسوعية.

- وأنت؟ أين ستذهب؟

رمقني بالاتسكي بنظرة مزدرية.

- لا ضرورة لوجودي في المشهد الذي سيحصل بينكما أنت ومارغيت بعد رجوعها إلى المنزل. وجودي سيجعل مصالحتكما أكثر صعوبة.

- أتعتقد أنني سأسامح؟

ضحك بالاتسكي بمرح.

- أتراك تملك سبباً للغضب، يا صاح؟ إنها واقعة يومية تحدث مئات المرات في بودابست. الرجل الذكي يغضّ الطرف، ويكون سعيداً، وهو بانتظار غداء لذيذ عند استيقاظه المتأخر. كم أعرف في المدينة من النساء

الراقيات، المحترمات اللواتي يعتنين بأبنائهن وأزواجهن بهذه الطريقة. كنّ على يقين بأنهنّ يمارسن حياة أسرية حميمة، مثالية يسودها الحبّ والوئام، لا كما يفرضه الفقر المدقع الشريف من شجارات تبدأ منذ الصباح، ولا تنتهي في المساء.

لا أجرؤ على الانفصال عن بالاتسكي. يا إلهي لو بقيت وحدي، لا بدّ أنني سأرتكب كثيراً من الحماقات. سوف يستيقظ فيّ الفارس، ذلك الفتى سليل العائلة الصالحة، المترعرع في المدارس الكهنوتية، الجدير بمصير أفضل، وسأفعل ما يحصل عادةً في الروايات.

- لأجل الفروق الاجتماعية - استأنف بالاتسكي توجيهاته - يمكنك ضرب مارغيت إن سمحت بذلك. ثم إن هناك فرقاً كبيراً بينك وبين الجزار... ألا يملك هو المال؟

آه، كيف أصغيت لبالاتسكي الوغد في ذلك الصباح الباكر تحت الساعة الكبيرة لمحطة القطارات الشرقية! أصغيت إليه كنبيّ، كأعظم حكماء بودابست.

- النساء لا يقدمن على الخيانة مع أشخاص أقل منزلة اجتماعية من أزواجهن، لأن الأزواج في الغالب يخجلون بسبب فرق المنزلة - نطق بالاتسكي بالحقيقة الأبدية - بينما الأفضل- أن لا تؤخذ الحياة بجدية - يجب قراءة الفلاسفة، يا بني. في أوقات فراغك تناول كتاب «هكذا تكلّم زرادشت»، وسيغدو الوجود مقبولاً على الفور. الإنسان يحيا لذاته فقط، ويموت لذاته. ابتهج لكون النساء الرديئات لم يلوثن دمك حتى الآن، كما فعلن بي، وسلخن جلدي.

- استمر يا بالاتسكي، أنت حكيم، أنت تبعث على الطمأنينة، أنت لا تضاهى، أنت متفوق، أنت متهكّم، أنت وغد!...الكن بالاتسكي تثاءب:

- أنا أيضاً سأذهب.

- إلى أين؟

- لقد حظيت ببعض المال، وسأبحث إذن عن عشيقة في هذه المدينة الكبيرة.

اختبأ بياقة معطفه، واعتمر قبعته، ورحل في غبش الفجر، وتركني وحيداً

لأفكاري المعذبة. ذهبت إلى البيت على رؤوس أصابع قدمي... ومستلقياً على سرير الوحدة، فكرت بالصباحات القادمة المتناغمة، المشرقة، المغمورة بنور الشمس، حين سأغدو حكيماً كبالاتسكي، وأتمشى بين أشجار الحور بيدين معقودتين وراء ظهري.

وفجأة صرّ الباب ودخلت مارغيت الغرفة بثياب غير مرتبة، منكوشة، مخدوشة، فاقدة العقل، كأنها تعاركت مع نسور. وقفت متهالكة أمام السرير. المكان الأخير الذي يمكنها أن ترتاح فيه: رجلاي أنا... «لو لم أجدك في البيت، لقتلت نفسي».

ضربتها أولاً، ثم ضممتها بذراعي ورحت أعانقها بعنف وحبّ، وحرارة كأنني لم أشاهد امرأة منذ سنوات طويلة.

ماذا لو وجب أن أبرّر ما قمت به أمام قاضي العالم الآخر؟ لا أعرف تفسيراً لفعلتي أمام أهم المحاكم. من المرجح أن هنالك أسراراً تحيط بنا، وتعيش فينا: كائنات شريرة مجهولة، وأشباح رديئة شامتة، ومسوخ حقيرة، وعناكب ذات بطون سوداء، وأعين دموية، تسترق إلينا النظر في شباكها التي تلتفّ حول أعناقنا في لحظات ضعفنا. حسب أبجديات العالم القديم: استحقت مارغيت مدية باردة بين عينيها، في حين رحت أنا أغمر وجهها بالقبلات الدامعة، وحسب وصفة الروايات، والتعاليم الاجتماعية: وجب عليَّ أن أودع المرأة ولا أكلّمها طوال حياتي. وأنا ضممتها إليَّ بمنتهى المعاناة مثل كنز عثرت عليه في ليلة خاطفة.

لا أحد يعرف كنه القلب الإنساني... لا أحد يعرف أعزاء النساء الكفيفات العرجاوات، الحدباوات... لا أحد يعرف كم من المغرمين بالنساء الساقطات المنبوذات اجتماعيّاً، المنحلات أخلاقيّاً... مع أن هناك شريراً مجنوناً متخفياً يرفرف عابراً أحلام أكثر الناس تهذيباً، وشرفاً، ليستيقظوا في الصباح بحالة من القرف والاشمئزاز من الرجس، أو العمل البغيض الذي اقترفوه في أحلامهم... من الذي لم يرتكب في حلمه ما هو على صدام مع فقرات القوانين الجنائية؟ اطّلعوا على كتاب الأحلام المصري الكبير(*)

*. كتاب مصري قديم لتفسير الأحلام.

الذي لم يعدّ من أجل مرضى الأعصاب، بل للمواطنين الفخورين بشرفهم، للنفوس العفيفة، للشيوخ الذين كفّوا على الأرجح عن متع الحبّ! اطلعوا على كتاب الأحلام الكبير: كم يذكر مفسر الأحلام من أفعال جرت في الأحلام يعاقب عليها القانون.

كنت أعتقد في هذا الوقت حين بدأت مارغيت حياتها الغريبة أنني كنت أحلم، وأحلم فقط... صدقتُ بسرور كذباتها العادية التي كانت تطمئنني. مثال على ذلك: كثيراً ما أقسمت على أنها تحبّني وحدي، وليس لها على وجه البسيطة أيّة علاقة حبّ مع أحد سواي.

كانت مارغيت بكلّ بساطة تنفي أيّ أمر من هذا القبيل، وكانت تجيد آلاف وآلاف الكذبات، وتقسم باطلاً، وتمسح كلّ ما يتراكم على جبيني من سُحب الغيرة، والقلق، وتسألني ببساطة أيضاً إذا ما كان يخالجني الشك في مشاعرها نحوي، في الوقت الذي تضحي هي بكلّ شيء من أجلي، ولقد قدمت لي ربطة العنق التي جاءتها هدية من الجزار، ولم تنسَ أن تدسّ في محفظتي بعض الأوراق النقدية إذا ما تركتني وحيداً في المساء بعد أن نتناول عشاءنا بكلّ استمتاع ومرح مع الولدين، وكان ألفريد يأتينا بالبيرة الطازجة بحماس كولد من أبناء النبلاء...

لم أعد أخرج من المنزل كلّ ليلة. صرت، بعد مغادرة مارغيت، أنتعل الصندل، وأشرف على نوم الولدين، وأوصد الباب ثم أجلس على الكنبة، وأمجّ التبغ مدة طويلة، وأنا سارح أفكر في كلّ شاردة وواردة من تفاهات الحياة. كنت أرى الثلج يتساقط حول مصابيح الشارع فتنتابني أحاسيس عائلية لذيذة تدفئ قلبي. وكنت حينها أقوم بتغطية الولدين، ويخالجني اعتقاد بأنني ذات يوم في آخر العمر سوف أحيا على هذا المنوال. أشعل الشموع الليلية، لأن مارغيت لم تكن ترجع إلى البيت حتى الصباح، بل حتى بعد الفترة الصباحية، باكية شعثاء على حافة الجنون، وكنت دائماً أجد مشقة في العثور على كلمات لتهدئتها.

وعلى الرغم من كلّ شيء، كان لنا أن نعيش على طريقتنا هذه، لولا أن دفع القدر ببالاتسكي للعودة إلى منزلنا، لتبدأ محنٌ جديدة.

عاد بالاتسكي رثّاً، فاجراً، كمتشرد من أحد الضواحي. لم يذكر لنا أين كان يجول ويتسكع على مدى أسابيع. اكتفى بالاستلقاء في مكانه المعتاد على الأريكة، وبدأ شخيره الطويل وهو يتقلب من جهة إلى أخرى. وفيما بعد أخذ ينفخ كعازف ترومبيت، مارشاً جنائزيّاً تارة، ولحناً زفافيّاً تارة أخرى ولقد أجاد عزف (الفوغا) تارة ثالثة. لم أغبط في يوم أحداً لسكينته، وسلامه الروحي، كما غبطت بالاتسكي. لكنه في إحدى المرات استيقظ مقطّب الجبين، عكر المزاج ليقول وهو يفرقع أصابعه كأنما يكسّر عظاماً: «ما حصل في غيابه لا يمكن أن يبقى على حاله. عليك أن تملأ حياتك بالشرب، والنوم»

في هذا المساء حين اعتمرت قبعتي استجابة لرغبة بالاتسكي في التجوال في المدينة، جنّ جنون مارغيت من سخطها. رجتني، وتوسلت إليَّ بكفّين متلاصقتين أن أحافظ على عادتي المألوفة، وأنام باكراً لما في ذلك من نفع يعود على صحتي، لكني أجبتها: «يكفي، لم أعد أحتمل الجزار، ما يحصل لا يمكن أن يبقى على حاله». وهبطت الدرج برفقة بالاتسكي ذراعاً بذراع.

حين بلغنا الشارع، أشرعت في الأعلى النافذة المعروفة جيداً. مارغيت (كما تركتها وهي تبدل ملابسها) أطلت بكتفيها العاريتين في الليلة الشتائية الباردة:

- لن تعود حالاً إلى المنزل! - صرخت.

لم أجب طبعاً.

وعندئذٍ جاءت اللحظة التي لا تنسى من الحياة: قفزت مارغيت من النافذة.

لكم أن تقولوا، أيّها المتهكّمون، المتحاذقون، إن هذه حادثة متكرّرة تحصل كلّ يوم: امرأة ساقطة تجترع السم كلّ صباح، تقذف بنفسها في الدانوب، أو تلقي بنفسها من الطابق العلوي. لكن مارغيت كانت امرأة من نوع آخر... امرأة أخرى... نادراً في الحياة ما تقفز النساء من النافذة من أجل رجل. مهما تبدّل قدري في الحياة، لن أنسى هذه اللحظة ما حييت. صعدت مارغيت على عتبة النافذة، بالقميص، ناصعة البياض، بذراعين مفتوحتين،

ووجه مثبت نحو السماء، وبمهابة الشهداء، وبعفوية الأطفال، ثم ألقت بنفسها... طارت كفراشة بيضاء... طارت كحلم يجمّد القلب... طارت مثل حالة فزع، مقتربة من الأرض المرصوفة بحجارة الشارع الرمادية، الصلبة، المميتة... سقطت على كومة من التراب مغطاة بالثلج، كانت في يوم آخر مكاناً لشجرة قطعت منذ مدة. ولولت، أنّت، تأوّهت، سقطت رجلاها أولاً، ثم هوى رأسها على التربة الجليدية... وبطرفة عين أخذتها بذراعيّ، فرمقتني بعينين دامعتين متوهجتين، وبامتنان وتوجّع كما ينظر إليّ طفل صغير.

فتحت المدخل بقدمي، وصعدت إلى الطابق العلوي بحملي الغالي.

الطبيب الذي أحضره بالاتسكي أعلن عن كسر في الرجل، لكنه في الوقت نفسه نصحنا بإحضار قابلة على الفور.

- قابلة!

هرعنا في أربعة اتجاهات، كلّ منا في اتجاه من أجل قابلة، وسرعان ما كانت القابلة تلهث في المنزل.

ومنذ ذلك الوقت كثيراً ما هرعت من أجل القابلات إذا ما عبّرت «نسائي» عن رغبتهن في ذلك. لكني آنذاك هرعت للمرة الأولى وكنت حينها في العشرين من عمري، وانتظرت أعجوبة من حضور القابلة، فحضور هؤلاء النسوة القابلات الهادئات المبتسمات كان في الغالب مرتبطاً بظاهرة طبيعية ما لا نستوعبها نحن الرجال. إن القابلات العجائز يستطعن بالتأكيد عبور متاهة المكابدات النسائية، في حين نحن الرجال لا نعرف سوى الروائع، والمتع التي يقدمها هذا النسيج المعقد البائس، الرقيق، الغالي الذي نسمّيه الجسد الأنثوي.

النساء العالمات، اللواتي كنّ أربعاً كما لاحظتم، شعرن بالإهانة، وقمنَ بتوبيخنا لأننا استعجلناهنّ جميعاً، ورغبن في العودة. وبعد توسّلات طويلة، لم تبقَ إلى جانب المريضة إلّا واحدة منهن هي من وصلت أولاً.

كانت هذه امرأة كئيبة صموتاً سوداء بقيت مع مارغيت ما يقارب نصف الساعة. سكبت الماء، عقدت مئزراً، تحركت بجهامة في المطبخ حول الماء الدافئ، وفي نهاية المطاف بلغتني بكوني ربّ المنزل أن مارغيت قد

أجهضت جنيناً مبكّراً إثر سقوطها. أفكّر أحياناً بهذا الجنين، طفلي الأول الذي لم أره في حياتي، ولا أعرف عنه شيئاً سوى أنه كان ورحل، وسأظلّ أفكر فيه في بعض الأحيان عندما أغدو عجوزاً، وحزيناً كالبارون حيغموند كيمين الذي كان روائيّاً عاش في منطقة شفابهاج. تُرى هل كان الجنين صبيّاً أم بنتاً؟ وهل تراه سيكون سعيد الحظ، أم بائساً؟ أيّ مهنةٍ كانت تنتظره، وأيّ من الأبراج السماوية كان مقدراً له في كتاب الكون الكبير، حيث يسجّلون الأرواح الصغيرة التي انطلقت إلى الأرض؟ أتراني كنت لن ألتقيه إلّا بعد أن يصير شابّاً طويل القامة، وربما يصبح أوفى أصدقائي...

ظلّت مارغيت تحت الرعاية ما يقارب الأسبوع.

طلبت مارغيت مني أن أستلقي إلى جانبها في السرير، في حين كان بالاتسكي هو من يذهب في الغالب لإحضار القابلة بعد أن ينهض من نومه مغمغماً متثائباً، بينما تُرك الصبيان على حريتهما التامة يتسكعان بعيداً عن المنزل أو يقبعان في المطبخ كعصفورين يتيمين. وحين كانت مارغيت تنام عند وقت العصر، كنت أنا أكتب على الورق قصة بؤسها لإحدى المطابع التي تزوّد الجرائد الريفية بالمقالات. (وقصتي هذه كما قلت مراراً، صدرت فعلاً في منطقة شالماتسبانيا وريفها). وحصلت من عملي هذا على استكتاب قدره عشرة فورنتات أقمنا بها مأدبة كبيرة في المساء.

وبعد بضعة أيّام جاء موظف المحكمة إلى البيت حاملاً تبليغاً يطلب من مارغيت الحضور إلى المحكمة. زعقت مارغيت وأغمي عليها، وحاولنا نحن طرد الموظف الذي لا يُستقبل عن طيب خاطر في أيّ مكان يقصده في المنازل البودابستية، شأنه شأن جابي الفواتير.

لم يسبق أن ذكرت مارغيت أن لديها قضايا قانونية قطّ، لكن كما قال بالاتسكي للموظف القضائي السابق، إن التحقيق قد تمّ، واستدعيت مارغيت كمتهمة للمثول أمام القضاء في المحكمة في شارع ماركو. وبالطبع توصلنا إلى اتفاق على تعذر ذهاب مارغيت إلى المحكمة بسبب ما تعانيه من كسور في رجلها.

لكن مارغيت لم توافق على هذا. دهمتها نوبة من البكاء وحاولت أن

تقفز من السرير وهي تقول إنها ستذهب زاحفة للمثول أمام القضاة لأنها لا تريد أن يستمر «أولئك» في معاناتهم. أمّا من هم «أولئك» فهذا ما تعذر علينا معرفته منها. ولكوننا ندرك مدى عناد مارغيت، لم نجد ما نفعله سوى البحث عن محامي دفاع لها. درنا في الشوارع نتابع لوحات الإعلان حتى صرنا في نهاية المطاف أمام مكتب محامٍ كان له كنية ألمانية: «إميل». كان المحامي شابّاً ممشوق القوام. أبيض اليدين، أزرق العينين، أشقر الشعر له صورة الغزلان، كان أشبه بطبيب لا بمحامٍ. وَعَدنا بكلّ هدوء وحماس أنه سيكون حاضراً في جلسة المحكمة...

صباح شباطيّ ضبابي. كانت مارغيت قد استيقظت باكراً، وأمسكت بكرسيها، تعبة، عكرة، وراحت ترتدي ثيابها من دون أن تصدر عنها أنّة واحدة. حملتها ونزلت بها السلّم، ووضعتها في عربة الأجرة، وجلسنا أنا وبالاتسكي إلى جانبيها.

كان الطريق طويلاً حتى قاعة المحكمة. غلّف الضباب نافذة العربة، وذهب البودابستيون إلى أعمالهم الصباحية الباكرة مسمومين يلفّهم الضباب، والبخار، والسأم، والمرارة. كانت المصابيح ما تزال مضيئة في أعماق المحلات. بدت المدينة بعد الليلة الفائتة شبه دائخة، أو كمريض ينهض توّاً من نقاهته. لا أدري كيف يمكن برأس متزن احتمال هذا الصباح الشتائي القذر! لعلّ أهالي بودابست يموتون قبل الأوان لأنهم ينطلقون في الشوارع في مثل هذه الصباحات الشباطية، بدل من أن يبدؤوا حياتهم في المدينة عند حوالي الظهيرة. جميعهم منكوشون، غير مرتبين كغاسلي الكلاب. النساء ملطخات بالوحل. البشر السائرون إلى جانب عربات الفحم والأكياس على رؤوسهم، وبستراتهم الجلدية وخرقهم البالية، يبدون كالعبيد الذين لا يسمح لهم بدخول قلب المدينة إلّا في الصباحات الباكرة، في حين يقوم اليهود بإخراج الفحم من المستودعات ونقله إلى السكان - تُرى، هل يعرف أحد هنا قصيدة الشاعر يوجف بايجا:

هناك تقلّب، هناك أمل،
صور، رغبات، مشاعر
في صباح حياتي السحريّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أظنّني الوحيد الآن في بودابست بأسرها في هذه اللحظة من خطرت له هذه السطور الثلاثة، ردّدتها بسرعة في بالي، كالصلاة.

مبنى المحكمة، بممراته التي تحوم فيها أرواح المدانين، ويصفّر فيها تيار هواء السجن البارد، ويئنّ هناك المحكومون بالسجن المؤبد، وتنفتح الأبواب، وتصطفق. كان وجه الخادم بلون العفن، وكان القاضي جهماً كالضمير الذي استحال إلى عظم.

قدنا مارغيت بذراعيها، وأدخلناها قاعة المحكمة وأجلسناها على كرسي من القصب. وتبين هناك الآتي:

أم مارغيت، المرأة الفخورة بشرفها، التي لم تكن على تواصل مع ابنتها قط، جلست على مقعد الاتهام إلى جانب حارس يحمل بندقية. من الجائز أن أحداً لم يكن ليعير انتباهاً لهذه المرأة العجوز التافهة المكسورة من السجن، والبؤس، وثقل الأعباء. لكن كلّ من يجلس هنا على كرسي الاتهام، شخص شديد الأهمية. حتى هذه العجوز التي أثارت انتباه الجميع بحركاتها المميزة، بفخارها غير القابل للكسر، وسلوكها المترفع الذي أبدته حيال ابنتها مارغيت. من المؤكد أن مارغيت لو لم تعقها رجلها المكسورة عن الحركة لهرعت إلى أمها المعبودة وجثت راكعة أمامها. لكن المرأة لم تكترث حتى بنظرات ابنتها المسترقة نحوها، وأشاحت برأسها عن مارغيت، في حين راحت تقيسنا- نحن الجالسين وراء مارغيت- بنظراتها المزدرية.

وكذلك أخت مارغيت الصغرى ذات العينين السوداوين والملابس المبهرجة، احتلّت هي الأخرى مكانها على كرسي الاتهام. مهما حاولت، لم أجد بينهما شبهاً يجعل الفتاتين تبدوان أختين، بدتا غريبتين تماماً حتى بلباسهما (وربما في أحاسيسهما الداخلية كذلك). وبينما مارغيت، بملابسها السوداء، ومرضها، ووجهها الكسير من الحزن، ونظراتها الحارّة المختلسة اختلاساً، بدت مضحّية صغيرة مستعدة لكل شيء حتى للموت، كان وجه أختها الصغرى مليئاً بالكراهية، والامتعاض، والغضب الممزوج باللامبالاة. نظرت إليَّ بعينيها الشريرتين، فخالجني إحساس بأنها تكنّ لي كرهاً يفوق كرهها لجميع من في هذه القاعة.

كانت الجنحة هي الآتية: الأرمل مدام يانوش. ب، وابنتها قد سرقتا البلوز، والفساتين، والدنتيلات، والجوارب، والحرير، في العديد من المحال التجارية وسط المدينة، وقبض عليهما في متجر (تسيرنا وشريكه) تخبئان الأغراض المسروقة تحت سترتيهما وتنورتيهما. والمتهمتان هما الآن قيد الاعتقال والاعتراف.

ترقّبنا بفضول أن يحين دور مارغيت التي قد لا تكون أسهمت في السرقات، لأنها لم تكن على تواصل مع أمّها وشقيقتها الصغرى. وسرعان ما أجابت المحكمة عمّا يدور في أذهاننا، إذ أفادت الأرملة مدام يانوش.ب للشرطة أنها قد أرسلت من المتاع المسروقة بلوزة كهدية لابنتها مارغيت التي تعيش منفصلة عنها، ولقد عثر المحقّق النبيه على رسالة الشكر التي بعثتها مارغيت إلى أمها.

- هل هذا صحيح؟ - سأل القاضي.

- صحيح - أجابت مارغيت بمنتهى التعاون.

ثم وقف محامينا الأشقر، وأراد أن يوضح للمحكمة أن الفتاة يمكنها أن تقبل قطعة ثياب كهدية من أمها، من دون أن تعلم أنها مسروقة. لكن المحكمة - آخذة بعين الاعتبار البنود التخفيفية - حكمت على مارغيت بالسجن مدة أسبوع بجنحة حيازة غرض مسروق. وأعلنت مارغيت أنها مطمئنة للحكم، إلّا أنها ترجو إطلاق سراح أمها وشقيقتها الصغرى لأن شقيقيها الصبيين بقيا في المنزل وحيدين، بلا رعاية وإشراف. ثم قرّرت المحكمة أن تبقي على الأرملة مدام يانوش.ب، وتطلق سراح أرجيبت.ب... شكرت مارغيت عدالة المحكمة.

ما الذي تعرفْنَهُ أنتن أيّتها الفتيات الضجرات في ڤللكنّ وقصوركنّ، هنالك فوق في تل الزهور الساحر، أو تحت أغصان غابة الأشجار الفاترة، الباردة، إلى جانب آلات البيانو، وفوق كتبكنّ، وأنتن تصغين إلى تفاهات المتودّدين المغازلين ذوي الوجوه الحليقة. هل تعرفن أن هنالك على مبعدة منكن تعيش نساء لا يشاهدن مطلقاً روعة اليوم الخريفي الباكر، وقد رقّت خمائل الأشجار، وتدحرجت أوراق الشجر الذهبية على دروب النزهات

المرصوفة بالحجارة، ولا كيف يتبدّى المقعد الصغير برّاقاً تحت الفروع الصفراء، والخضراء، ولا كيف تنداح الحدائق الإنكليزية مسترخية برفاه البهجة، ولا كيف تتكتك الساعات، والدقائق، والأيام كالحبّ الأبدي الذي لا يتبدل... ما الذي تعرفنه أنتن عن المعاناة الإنسانية والبؤس! اللواتي وأنتن في مهدكنّ ترين النور من بين الدانتيلات المطرزة بعناية، ومختلف أنواع الشناشيل المجنونة، اللواتي تهدهدهنّ في المهد شفاهاً هنيئة، وتعزف لهنّ ساعات تصدر الأنغام، وأراغن صغيرة صدّاحة، وببغاوات تبثّ الأصوات، وتنفش الريش لتسليتهنّ، وخادمة بعصابة بيضاء تقعقع بالفضيّات والبورسلانيات، ثم حين تكبرن تتعلمن من قسس الكنائس ذوي الأفواه الذهبية، ومن آباء الاعتراف المتوارين، ما هي الحياة الأخلاقية - وما إن تبدأ صدورهن الصغيرة تنهد تحت الأثواب، حتى يقف العشاق تحت نوافذ الڤيلا يطلقون الأغاني، ويتلقين منهم التذاكر بالأطر المذهبة لحضور حفلة المحامين، وسباق القوارب. أنتن يا مَنْ، أحذيتهن، وجواربهن، وأمزجتهن بيضاء على الدوام ماذا تعرفْنَ عن الحياة في السجون؟

رافقنا - أنا وبالاتسكي - مارغيت إلى مكتب مدير السجن تحت الأرض، وأودعنا المسكينة لتكون تحت رعايته. مصافحة بالأيدي، ابتسامة امتنان، وبعدئذٍ لم تقع عيناي مجدّداً على مارغيت طوال عشرين سنة.

- أتدري من أين أتيت- سألتني امرأة شاحبة، نحيلة لكن حيية العينين، ما إن دخلت إلى الغرفة - أتيت من سجن ماريا نوسترا.

وبما أنها لم تكن راضية عن الاستقبال، فقد تابعت تقول:

- ألا تعرفني؟ أنا مارغيت بوشكاش.

- ولماذا يا ترى التحقت بالسجن؟

- قتلت سيدي... مسكين. أفرغت نقمتي به بدلاً منك. أنت السبب في كلّ شيء، معاناتي، بؤسي، ذهابي إلى السجن. أنت من كان ينبغي قتله...

لم يكن من عادتي أن أفقد صبري، وبرودة دمي، لكن وقاحة هذه المرأة المسنّة أغضبتني. لم أكن قد تعرّفت عليها جيداً بعد، ولم يخطر لي جنون فترة الشباب:

فكّرت أن أشير إليها نحو الباب لكني لم أجرؤ. أعترف أنني ما إن واجهت هذه المرأة التي استعمرتني في فترة الشباب بقوة استبدادية، حتى وقعت مجدّداً تحت تأثير كائنها الحيّ العنيف، المحموم، المضطرب. لا أحد يملك القدرة على الاجتياح مثلها. لا أحد يملك جرأتها... لنرَ على الأقل الاضطراب الذي حلّ بدماغها! أجلستها، ثم راحت مارغيت تحكي قصة العشرين سنة الفائتة.

بعد أن انفصلتْ عني، أمضت حكمها في مشفى المساجين. فعلتُ حسناً إذ لم أزرها في فترة سجنها. لأنها كانت في تلك الأثناء قد اقتنعت بأنني السبب في كلّ شيء، ومن المحتمل أنها كانت ستحطم رأسي بالجدار. لماذا تخلّيت عنها؟ لو كنت أحبّها حقّاً، لوجب عليّ أن أشاركها فترة إقامتها في السجن. (حين كنت أسمع كلماتها لاح أمامي وجه مارغيت القديمة المحبّبة المضحّية، وإخلاصها الطفولي، وحبّها للمّة العائلة كما يحصل في عيد الميلاد. يا إلهي كم تتبدّل النساء إن مضت فترة طويلة دون أن تراهنّ).

- لو أنك مسيحية حقّاً، لما كلّمتني بهذه الطريقة - قلت لمارغيت دفاعاً عن نفسي.

- باسم الأب، والابن، والروح القدس، أنت سبب حياتي التعيسة- أجابت المرأة، وحدّقت إليَّ كالمجنونة.

لم أستطع فعل أيّ شيء سوى متابعة الإصغاء إلى حديثها المليء بالخيال، والذعر، وجنون النساء. جلست بالقرب مني، وشهرتْ عينيها نحوي كخنجرين، كأنها حرصت كي لا أهمل أيّة كلمة ممّا تتفوّه به... قلت لنفسي: والآن يا دوبلي، لقد سحبت ورقة اليانصيب للتوّ.

وبعدئذٍ روت لي مارغيت أنها بعد خروجها من السجن طافت في البلدات الريفية لبعض الوقت، وعملت محاسبة صندوق في المقاهي. لقد حصل معها العديد من الأمور من دون أن تتذكر الأبراج، والشوارع، والمعالم المختلفة. كلّ ما بقي حيّاً في ذاكرتها هو رقم فوج المشاة المقيم في البلدة، ولون الشارة على ياقة السترات العسكرية. إضافة إلى بعض قادة الفرق الموسيقية الغجرية.

وفي أثناء حديثها رحت أفكّر في الأشخاص الذين تعرّفت عليهم مارغيت في المدن الصغيرة البعيدة الرومانسية. ترى كم كان عددهم، وما هي مجالات عملهم، وكيف تعاملت معهم هذه المرأة العنيفة التي صارعتني بكلّ سهولة (مع أن الحكيم بالاتسكي كان صديقي)، ولم أفلت منها إلّا بمعجزة؟ برزت أمامي الصور الحزينة للرجال المعتلّين عصبيّاً، كم من بينهم قد انهاروا باكين عند مزلاج الباب حيث تقطن حورية (صندوق المحاسبة) في الجهة الخلفية من المقهى الريفي! لا بدّ أن حالات غيرة قد نشأت، وحصلت معارك في الحانات، ومنافسات شبابية من أجل السيدة التي قدمت من بودابست، من ملهى باريزين! ضباط من سلك المشاة صلصلوا سيوفهم لأجلها، محاربون متدربون لعقوا الأختام، تجار سكارى فتحوا جزادينهم وقاموا من أجلها بضرب أحدهم على رأسه بكرة البلياردو، وعندئذٍ تباهى المتغندرون بما يستطيعون القيام به... وكلّما كان القطار يقلّ مارغيت من مدينة إلى أخرى تاركة وراءها خرقاً مستخدمة، وعلب المساحيق الفارغة، وصناديق هدايا التجار، كانت مارغيت تلعنني لكوني السبب فيما آلت إليه من مصير. ما أعظم أن يكون للنساء على الدوام رجل بوسعهنّ أن يكلْنَ له اللعنات من أجل تفاهاتهن!

وفي نهاية المطاف قرّرت مارغيت التخلي عن طريقة حياتها حتى الآن.

ربما ليست هي من قـرّرت ذلك، بل المصادفة التي ندعوها آخر الأمر قراراً.

اتخذت قرارها هذا بعد أن كانت تطوف في المدن الواقعة على الضفة الأخرى للدانوب، ولاحظها هناك بعض السادة العجائز، أو العشاق الشبان (ترى من سيكون أول من تتعرف عليه؟). حتى تعرفت في النهاية على نادل بشاربين شقراوين وتزوجته.

شاهدتُ صورة الفتى الوسيم. ربما كانت عيناه زرقاوين، وشعره كثيفاً لكنّ قَصّته عسكرية، وكان شارباه أنيقين لا يشوبهما نشاز، ووجهه مستديراً. كان شابّاً واعداً أن يكون ضابط صفّ في الجيش، أو كبير نُدل في مجال عمله. وكان الصدق والنزاهة مرسومين على ملامح وجهه. من المحتمل

أنه لم يتخلّف أبداً عن العمل، وكان يدّخر نقوده فورنتاً بعد آخر، ويعمل بجدّ كالآلة، ولا يكفّ عن التبسم لزبائنه. وكان يضع نصب عينيه أن يمتلك محلاً في منطقة سومباتهاي أو في بوجون، الأمر الذي يجعله مستقرّاً لا تنال منه المشاكل المادية، لأنه سوف يواظب على العمل، ولو أنه سيتعب لكن لنفسه، ولجيبه الخاص. كان اسمه (أدي).

(أدي) هذا - الذي سمّي في حياته: الضحية المسكينة - لم يلتقِ منذ طفولته الأولى بنماذج من البشر تختلف عن نماذج أرباب عمله. كان هؤلاء يراقبون ويحسبون بعيون صقرية، ويحكمون على العالم من جانب طاولة الركن في المقهى، وكانوا يعرفون أحجار الدومينو، وورق اللعب من وجوهها الخلفية، ويعرفون زبائنهم كلّ المعرفة، ويعيشون كالعلق على حساب الزبائن القادمين من مختلف المدن. يعتمرون بجلال وتسلّط قبعاتهم المحلية السوداء، ويجرّون كراسيهم إلى طاولات أرقى مواطني المدينة. ويغذّون زوجاتهم البدينات ذوات الخواتم الماسية بكبد الإوز، ويجعلونهنّ يَسرْنَ في الصيف بثياب بيضاء، وفي الشتاء بثياب من الحرير، وصار لديهم أولاد، ولبسوا النظارات ذات الأطر المذهبة. إذا ما تشاحنوا مع محاسبة الصندوق لأن (بلاو) ذا العين الواحدة لا يدفع إلّا خمس وحدات نقدية من أجل الدمينو... لماذا؟ لأن بلاو يرى الدومينو بعين واحدة.

أجل، كان أدي مع الوقت سيكون منّا، وستكون مارغيت صاحبة مقهى بدينة، بيضاء الكتفين، مبرّجة بالمجوهرات، لولا أن لعب القدر لعبته. الأساور واللآلئ، والأحجار التي كانت مخصصة لجيدها، وأصابعها، صارت تخصّ يديْ محاسبة صندوق أخرى. وصارت التحيات، والتودّدات من الزبائن الدائمين موجهة لامرأة أخرى في سومباتهاي أو إرشكوفاي. مارغيت بائسة مجدّداً.

صارت غيورة على زوجها. غيورة من دون سبب خاص يستدعي ذلك. هي تقول إنها رأت حلماً بأن زوجها يخونها... ولهذا تمضي لياليها مستيقظة، متلصصة على (أدي) وهو نائم لعلّه يفضح نفسه بكلمة ما. غير أن أدي كان ينام بانتظام وهدوء وطمأنينة، كأولئك الرجال الذين يبادلون المال بشيء من الفوائد. وكما أفادت به مارغيت: كان فصل الخريف في بدايته. لم يعد أدي

يحتمل سلوك مارغيت، وغيرتها القاتلة: هرب من المدينة حيث لم يمسّ أحداً بأذى. ركب الغضب مارغيت، وفتّشت في المنطقة بكاملها، لكنها لم تعثر على أدي. كان لا بدّ لها في هذه الحالة من البحث عن عمل. لكن أرباب عملها السابقين لم يتعرفوا على المخلوقة اليائسة الذاوية الانفعالية السريعة الغضب، لم يتعرف عليها أصحاب المقاهي الممتهنون المتاجرة بالفتيات، ولا أصحاب المطاعم الذين يقدمون النبيذ المغشوش. فاضطرت مارغيت أن تقصد نزلاً في بلدة ريفية صغيرة مجاورة لمحطة القطار حيث صارت تقوم بتسلية المسافرين الواصلين في الليل. كان اسم النزل «ثلاثة بيترات»(*)، ولم يكن يعمل إلّا ليلاً حين تصل القطارات من العديد من المدن تقلّ على متنها أشخاصاً مرحين لبيع بضائعهم في السوق، وتجاراً يمتلكون روح المبادرة، وفاكهانيين يخشخشون نقودهم الفضية، وتجاراً تفوح منهم رائحة جلود الخيل، ويقطعون بسكاكينهم ويأكلون اللحم المدخن، والنقانق المفلفلة، والخبز الأبيض، ويسكبون النبيذ بالقرع ويشربونه، ويمدّون أرجلهم بجزماتهم وهم يحتضنون محفظات نقودهم حرصاً عليها، ويستمعون إلى القصص الطويلة التي يرويها أحد مسافري القطار ذو المزاج الحكواتي، وهم يخدشون الطاولات بأظافرهم، ويقهقهون عالياً إذا ما استدعت القصة ذلك، وسألوا بعضهم الحزازير، والألغاز. لم تنسَ مارغيت مثل هذا السؤال: «أين صارت أبواق المعالجين المرافقين للترام الذي تجرّه الأحصنة». لم تعد مارغيت تتذكر حلّ هذه الحزورة، لكنها كانت سعيدة بسماعها عن ترام سكة الحديد البودابستي الذي تجرّه الأحصنة، لأنها في طفولتها البريئة قدمت من بودا إلى بست بعربة سكة حديدية تجرّها أحصنة، بعد انتظار نصف يوم لأن السائق، والمعالج المرافق للترام قد شربا حتى الثمالة. ولو لم تكن في النزل في هذه الليالي المرحة، الفكهة، المليئة بالنبيذ والروم والمشروبات الكحولية والنقانق، واللحم المقدّد، ربما أقدمت مارغيت على شنق نفسها. لكن المسافرين كلّ يوم كانوا يجيئون بطرفة جديدة، وقصة جديدة، وحكاية جديدة. حتى إن تأخر القطار كان يمنح الفرصة لكثير من الأحاديث. قدم بودابستيون عرضوا نقوداً جديدة، ودندنوا ألحاناً جديدة، وجاء أشخاص

---

*. بيتر: اسم مذكر - المترجم.

من فيسبريم، ومن ڤاربالوتا، ومن فهيرڤار، وكان مكتوباً على وجه، وثياب كلّ مسافر - كتذاكر السفر- المدينة التي قدم منها. كانت عقارب الساعة تدور بسرعة عند حوالي منتصف الليل، قطار جديد يأتي، باب زجاجي ينفتح، مسافرون يخرجون من قلب الليلة الخريفية الضبابية الدخانية، ويجيئون ضاحكين، صاخبين، متشاجرين، بحزمهم وسلالهم، وصناديقهم، وقصصهم المتنوعة والمختلفة. ما أغرب أن ليس هناك صندوق لمسافر يشبه صندوق مسافر آخر! الوجوه جديدة على الدوام، الضحكات جديدة، القهقهات جديدة، الأمزجة جديدة. وربما كانت مارغيت هنا سعيدة أيضاً بمصابيح المحطة الحمراء، والخضراء، والزرقاء التي تظلّ مضاءة طوال الليل، وبالخبّازين الذين لا ينامون، وبضابط الخدمة الذي لا يكفّ عن شرب القهوة، وبخشخشة النقود الدائمة في الدروج، وبالنقانق التي لا تنفد في المطبخ مطلقاً.

إلّا أن أحد معارفها القادمين من السفر أخبرها أنه رأى زوجها كبير النُّدل في محطة قطار حيث تسير أموره على أحسن ما يرام.

اكتأبت مارغيت منذ ذلك اليوم. عادت إليها نوبات البكاء، والأرق والآلام الشديدة، وانفعالات الغضب، وفيما بعد مزّقتها الغيرة، والشعور بالنقمة: كيف يستطيع أدي أن يعيش من دونها... كتبت له رسالة تهدّده فيها بأنها ستسافر إليه، وتختلق فضيحة إن لم يرجع إليها في الحال، فعاد أدي المجنون المسكين الجبان، وعملا منذ ذلك الوقت في أحد المحال التجارية، وهكذا تمكّنت مارغيت من الحفاظ على أدي تحت مرمى بصرها. إلى أن وصلت عند الظهيرة إلى هذا النزل المسمى (تيغريش)، امرأة غريبة، ما إن لمحتها مارغيت حتى تبيّن لها أن هذه المرأة جاءت وراء زوجها. تفاقمت ظنونها حين لاحظت عند الغداء أن زوجها النادل وهذه المرأة ذات الشعر الأشقر والقبعة الخضراء يتكلمان بصوت خفيض. لم تتمكن من كبح نفسها. كانت من فورها راغبة في القضاء على أدي، لكنها تحت ضغط زحمة العمل كانت رؤوف القلب حيال زوجها، وانتظرت حلول المساء.

«لكن كيف كان له أن يعاملني بهذه الطريقة، وهو يعرف أنني امرأة انفعالية، وأحمل مسدساً محشوّاً طوال فترة سجني؟» - قالت مارغيت بالحرف.

وعند المساء خلد أدي للنوم باكراً. رأته مارغيت في السرير حين دخلت إلى الغرفة. «كم كان أدي جميلاً، كما لم يكن في يوم! أنفه البديع، فمه، عيناه، صفاؤه، كلّها أشياء فاقمت من مرارتي!» وعندئذٍ سمعت مارغيت صوتاً، كأن أحداً تكلّم من داخل الخزانة:

- اقتليه!

تقدمت من الحقيبة، وأخرجت المسدس.

نهض أيدي قليلاً في السرير، وتفوّه بشيء ما، وأطلقت مارغيت عليه النار.

قفز أدي من السرير وراح يطارد مارغيت حول الطاولة.

استمرت مارغيت خلال المطاردة تطلق الرصاص، حتى ارتمى أدي ميتاً.

جاءت الشرطة.

وقفت مارغيت متشفية عند الجثة بكلّ برود، وهدوء.

«يستحق هذا الكلب» - قالت مارغيت وتبعت رجال الشرطة.

وخلال فترة سجنها تصرفت مارغيت بهدوء شديد.

مرة واحدة تاقت لزيارة قبر زوجها فقط، وقصدت المقبرة بسيارة أجرة بصحبة مأمور السجن. مقبرة بديعة في هذه المدينة الصغيرة. جلست مارغيت إلى القبر، وتحدثت إلى زوجها بصوت مؤثّر جعل عيني مأمور السجن تدمعان. «أكان ينبغي ذلك يا أدي؟» - سألته. وحسب مزاعم مارغيت، أجابها زوجها من القبر. وبعدئذٍ قضت مارغيت سنتين في سجون مختلفة حيث كلّفت هناك بأعمال حدائقية خفيفة، وعوملت على حدّ زعمها بمنتهى الرقة كمريضة.

أما الآن هنا، فقد حدّقت إليّ بعينيها المسماريتين حتى شعرت ببرودة تسري في ظهري. كيف سأتخلص من هذه المرأة التي وجدت موتي على يدها؟

اتخذت قراري بأن أقيم معها علاقة غرامية جديدة، لكي أحظى بنواياها الطيبة.

بادلتني مارغيت العناق، لكنها أعلنت أن مصيري كمصير أدي إن أقدمتُ على خيانتها.

والآن أنا هنا كدمية بيد امرأة قتلت زوجها، ولا أشعر بلحظة واحدة من الأمان.

أنهى السيد دوبلي قصته، وأعلن الزملاء الصحفيون أن ميتاً جميلاً سيغدو السيد دوبلي، وأنهم سوف يبذلون أقصى ما في وسعهم لكي تقوم كافة الصحف بنشر قصة قتله بحذافيرها. «ثم سنهتمّ في الصحافة بقضية قاتلتك». هذا ما قالوه لكي يكون السيد دوبلي راضياً.

حين وصلت ناتاليا وهي في حالة طلقها إلى هذه النقطة من قصتها، دهمتها مجدّداً آلام شديدة لم تمكّنها من متابعة القصّ، مهما حاول (حلم) أن يركز انتباهه على شبكية عيني منظّم المآتم أيضاً. توقفت القصة. أعلن (حلم) أن الولادة، في رأيه، ستحصل في القريب العاجل، وعليهما أن يرافقا ناتاليا في سيارة الإسعاف، إذا ما رغبا في معرفة المزيد عن قصة الفتاة.

الفصل الحادي عشر

وفيه تخرج بنت صغيرة إلى العالم.

انطلقت سيارة الإسعاف بمتعهد المآتم، وحلم، وناتاليا.

مما لا شك فيه، أن هناك في بودابست سيارات مريحة أكثر من سيارة الإسعاف، لكن الراكب لا ينتقل دوماً على مزاجه. إلّا أن الوضع فوق الوسائد الجلدية المشبعة بحمض الكربوليك، وفوق العجلات المطاطية الرجراجة لسيارة الإسعاف أكثر راحة بكثير من عربة الكابريوليت المطلية بالأخضر والمكتوب عليها بحروف بيضاء: القضاء الملكي في بودابست. حتى إن سيارة الإسعاف أكثر راحة من العربة ذات الجدار الزجاجي المزدانة بملاك ذهبي، لدى مؤسسة الدفن (سيبروش)، وهي العربة الرائعة التي يملكها يانوش سيفرا وشريكه التي لا تقلّ أيّاً كان إلّا في اتجاه وحيد، هو طريقه الأخير نحو المقبرة. وحتى هذه اللحظة لم يشاهَد أحد على متن هذه العربة في طريق العودة إلى المدينة.

يمكن من خلال نافذة سيارة الإسعاف سماع ضجيج الحياة في المدينة. إن من يعرف العاصمة جيداً يمكنه حتى وهو مستلقٍ في سيارة الإسعاف أن يحكم على وجه التقريب في أيّ منطقة من بودابست تتدحرج به السيارة. المصابيح تومض، العجلات تتراقص على إطاراتها الخشبية، وتنبعث دردشة وزعيق، وجلبة أشبه بأصوات القرود في جزيرة: هذا هو المساء في شارع أندراشي. يهدر أوتوموبيل، ويصدر صوتاً فظّاً أشبه بصاحبه المقرف. تتعثر باتجاه الغوطة حافلة كما في روايات تشارلز بول دي كوك وعلى متنها آنسات الروايات المرحات أنفسهن، والفتيات المتسوقات، اللواتي

كتب هذا الروائي الشقي روايات كثيرة عن فساتينهن، وطرائفهن، ونباهتنّ، وممارساتهنّ الجنسية. وعلى متنها أيضاً مساعدو تجار، وخليط متنوع من البشر الجالسين بزهو في الحافلة كأنما لا شيء يتسلّون به إلّا النظر باحتقار إلى المارة المشاة. عاهرات شارع أندراشي، ومتسكّعوه القدامى يجلسون وقد دهمتهم الشيخوخة، على المقاعد ويفكرون كم كان زمانهم في شارع أندراشي مختلفاً.

ثم، كما تمرق الأبهة، والضوء، والحياة، هكذا جدّفت عربة الإسعاف على هذا النهر اللمّاع للمدينة. خبّ الحصانان على حجارة الشوارع الفظة، المقرقعة، اللاذعة. بات المنظر هنا أكثر قتامة وكآبة. لا حركة نوعية هنا سوى عند مقهى نيويورك. لا يجلس تحت مصابيح الشارع المضيئة الكثيرة سوى تلك النساء البودابستيات، والشبان البودابستيين الذين يحاولون الانتحار غير مرة ليطالعوا أسماءهم في يوم غدٍ مطبوعاً في الجرائد. ممثّلون، وكتّاب كتب عنهم توماس كارليل أنهم يتمنون أن تقلّهم عربة ذات عجلتين إلى سقالة مرتفعة أو مشنقة، أو مقصلة، إن تمكّنوا بهذا من لفت الأنظار في المدينة. إنهم ينظرون بحسد وراء كلّ سيارة إسعاف تمرّ من هنا، لعلّ أحداً ما قد سبقهم على طريق الشهرة.

ثم أعقبت شارع أندراشي الشوارع الأكثر ظلمة وخلوّاً من الناس، وولج أبطالنا ضاحية فرنتسڤاروش حيث الخبّازون، والجزّارون بقمصانهم الداخلية يستندون بمرافقهم إلى النوافذ، ويبصقون على الكتبة البيروقراطيين. لا ينبعث شيء من المرح إلّا من الشوارع الفرعية حيث في أفنية المنازل هنا يسكبون النبيذ الذي يضفي السعادة في نفوس السكان، فيصدحون قرابة منتصف الليل بالأغاني.مكتبة سر من قرأ

لكن العربة تقرقع أيضاً عابرة شارع أولّلو - الذي يسمّيه البودابستيون القدماء أولّاي - حيث للمدينة هنا رائحة الخميرة كأن معملاً للكحول كان سابقاً في المنطقة، وترك رائحته هنا، وكأنما تبدأ هنا ضاحية أخرى غريبة، عدائية على علاقة ازدراء مع باقي أجزاء المدينة، هي ضاحية فرنتسڤاروش. للنساء هنا سيقانهنّ السميكة لأن السوق جيد. الأزواج هنا متخمون بالأطعمة، بدينون حتى ليخطر للمرء أن يتساءل: كيف للزوجين هنا أن

يعانقا بعضهما بعضاً إذا ما تاقا للعناق- كان الجميع نياماً هنا، وانطلقت، قادمة من جهة شوركشار العربات القروية المقرقعة المحملة بالخضروات، والديكة، والخبز، متوجهة ببطء عند منتصف الليل إلى السوق، حاملةً معها إلى ضاحية فرنتسڤاروش الرائحة الطيبة للقرى، والبساتين، والمزارع. هنا الشوارع الفرعية التي انزوى في الطابق الثالث لأبنيتها صناع الكتب المدقعون الذين لم يجدوا مكاناً لمواهبهم في بودابست، فتزوجوا باكراً، وأنجبوا أولاداً، وجلسوا إلى طاولات ذات ثلاث قوائم، مطأطئي الرؤوس لا يملكون شروى نقير... لكنهم مع ذلك يحظون في بعض الأحيان على دفعة أولية من النقود (بعد أن يطوفوا منذ الصباح حتى المساء في أنحاء المدينة بثيابهم الرثة، وأحذيتهم البالية، وقبعاتهم الرديئة متخفّين إلى جوانب الجدران، حاملين بأيديهم حزم الأوراق التي دوّنوا عليها أحلامهم، طارقين أبواب المحرّرين، وتجار الكتب) فتتدحرج نحوهم بعض النقود من قبل المدينة الفخمة الثرية، كما لو أنهم خرجوا بدافع الفضول فقط، كالسيدات اليهوديات الميسورات اللواتي، حين يهجرهنّ آخر خلانهنّ، ينزلْنَ لزيارة ابن ناظر البناية المريض. يحظى ببعض النقود مثلاً السيد ڤيكتور شولونكي الذي قطن في شارع كينيجي، وشارع ماداتش على طريقة الشخص الوطني الغيور، وحصل دوماً على مكان في الطابق الثالث في كافة تنقلاته السكنية، وكان فور استلامه النقود يدعو أصدقاءه في الجوار ويوصي على البيرة والنبيذ والحلوى من الحانوت المقام عند ركن الشارع، وعلى اللحم المدخن، والنقانق من عند الجزار، والفواكه من عند الفاكهاني المتجوّل الذي لم يكن يركن بعربته عبثاً في المقربة. وعندئذٍ يظنّ ناظر البناية القاطن في ركن معتم تحت مدخل البناء أن أخاً وُلد لبوتشو... مع العلم أن كلّ ما يجري في الأعلى هو أن مجموعة الأصدقاء تناقش آخر المستجدات الأدبية، إضافة إلى العناية بمولود صانع الكتب وإطعامه في هذه المعمعة. لم تحصل أيّة مشكلة لڤيكتور شولونكي طوال فترة إقامته في فرنتسڤاروش. لكن رغبة دفعته ذات مرة للانتقال إلى ضاحية يوجف فدفع حياته ثمناً لتغيير الهواء.

وصلت سيارة الإسعاف إلى ساحة باكاتش حيث تُسمع طوال اليوم على مدار الساعة أصوات الأجراس، أو بكاء الأطفال. القسيس هو من

يوصي بقرع الأجراس لكي لا ينسى سكان المنطقة مذهبهم المسيحي، لكن المسؤول عن بكاء الأطفال هم أولئك الوافدون الجدد الذين يصلون إلى المنطقة بمختلف جوازات السفر، وبلا تدقيق جمركي، قادمين من بلدان أجنبية بعيدة، ولا فكرة لديهم عن ساعات العمل الرسمية هنا. المبنى المزركش لمشفى التوليد (الأشبه بقالب كاتو التعميد)، مفتوح ليل نهار لاستقبال النساء من مختلف أنحاء المدينة، اللواتي يصلن منتفخات، وبحزم متاعهن إلى هذه المحطة حيث سيعشن أصعب ساعات حياتهن، حيث الأطباء ذوو المرايل البيضاء، والقابلات الرشيقات هم وسطاء الحياة هنا.

سجّل متعهد الدفن، وحلم اسم ناتاليا لدى البواب الضخم الشاربين الذي رنّ من مقصورته الجرس للمعنيين من الأطباء، والقابلات، ولأولئك الحمّالين، الذين يقتصر عملهم على حمل النساء المتوجعات إلى الطابق العلوي.

كان الحمّالون نائمين في مكان ما من القبو فتأخروا بالمجيء، وهدأت أوجاع المرأة الولّادة وهي في عربة الإسعاف المركونة أمام مدخل مبنى التوليد، فقامت بمتابعة قصة حياتها بإلحاح من (حلم).

هكذا كانت تتمة الصورة:

خريف ملبّد بالغيوم.

كانت جزيرة مارغيت ذابلة لكنها مع ذلك مطرزة بالألوان الذهبية كالرجال الكهول الذين يخرجون إلى العالم بباروكاتهم البيضاء.

رافق بالاتسكي ناتاليا بين أنقاض الدير. كان بالاتسكي، هذا البطل الروائي البودابستي - الشاب الطالع من رومانسيات المقاهي- في هذا الوقت شخصاً وسيماً كقائد فرقة موسيقية. أما هنريك فالله العليم أين كان يتجول حين تبرّع بالاتسكي لتسلية السيدة. وهكذا فقد حكى لناتاليا كلّ شيء كان يعرفه، مثلاً، عن تمثال فلوريان... عرف بالاتسكي عن نصب فلوريان أن البودابستيين السكارى الذين من فترة العصر يجترعون المشروبات في حانة مجاورة، كانوا عند المساء يحبّون تسلّق التمثال. ولكن حتى هيروك أمهر متسلّقي العمدان لم يتمكن هنا من تحقيق نتيجة أكبر، لأنه كان على الدوام يشرب من نبيذ (كيكي) كمية تزيد عن الثلاثين قطرة المسموح بها.

وذات مرة جاء هيمي وهو شاعر عاشق يرتدي بنطال لاعب تنس، وسترة سوداء، وقبعة من القش، يتتبع بحذر سيدات بودا القديمة إلى مدرسة الرقص والكنيسة، فكان هيئة حمقاء مدعاة للسخرية والضحك من قبل المواطنين هناك. روميو هذا ذو الشاربين الأصفرين لم ينسَ ولو للحظة واحدة ما يترتب عليه إزاء عالم النساء. ولم يكن هيروك بعدُ قد استهلك وجبته من قطعة اللحم، والفلفل الأخضر (ليبدأ بعدها اجتراع النبيذ)، حين لمح ناظمَ الشعر يندفع وراء السيقان الأنثوية التي كانت في شارع بودا القديمة بانتظار الكلمة الفادية، الخلاص الذي يسمّينه هن: السعادة. ظلّ هيروك يشرب ويشكو مكابداته لإبريق النبيذ بالصودا، في حين كان هيمي المتقلّب المتلوّن يبوح بغرامه لكل امرأة يصادفها في طريقه. هل ثمة في الكون عنكبوت بهذه الضخامة؟ لم يترك امرأة إلّا ووقع في غرامها هيمي- كما أسمى نفسه. عبثاً أبدى كارتشي هيروك اعتراضه في جمعية البولينغ، وفي دائرة المواطنين الجادين الذين يلعبون بورق الشدة لعبة سناب إلى جانب النبيذ على طاولة في ركن الحانة. عبثاً حاول في فورة من الحسد، أن يوضح للجميع أن هذا الشخص المزعج ذا البنطال الرياضي قد هرب من إحدى السفن، ومن المفضل الاستعلام عن أمره لدى البوليس: هيمي كما تقول الأنباء يحطّم قلوب الفتيات واحدة بعد أخرى، في الشارع، أو على ضفة الدانوب.

إلى أن جاء مساء، وبلغت الثمالة بهيروك مبلغاً بعد أن شرب ثمانين قطرة من نبيذ كيلي، جعلته يدعو هيمي في ساحة فلوريان إلى مبارزة. كانت المبارزة تسلّق تمثال فلوريان. تقبّل هيمي المهمة مدندناً وبرحابة صدر - كانت إحدى الفتيات قد أهدته في اليوم ذاته تميمة مريم العذراء - كان محلّقاً، تطرزت في فؤاده كلمات تفوح أملاً، وشعر برشاقة الوجود بقدر ما أتاح له الوجود من رشاقة. بدأ هيمي يتسلّق التمثال بلا أيّ تردّد. وقبل أن يتمكن من الفوز بمهمّته قام كارتشي هيروك الوحشي بالقبض على رجليه، وألقاه أرضاً، وراح يبرّحه ضرباً، وأمره بالرحيل من بودا القديمة إلى غير رجعة. فرّ هيمي مهلهل الثياب، من دون قبعة، مغادراً مسرح قباحته، أما السيد هيروك فقد احتفى به أصدقاؤه في اليوم الآتي احتفاء كبيراً في العديد من الحانات. حتى إن بعض زبائن الحانات طلبوا من المنتصر أن يصطحبهم

إلى مسرح المعركة، وعلى لهب أعواد الثقاب في ظلمة الليل ألقوا نظرة على تمثال فلوريان ومحيطه وإن كانوا قد شاهدوه آلاف المرات في السابق. كان فوز كارتشي هيروك لا يحتمل الشك، ولقد شعر المواطنون بالسعادة بأن مثل هذا الشاب شارب النبيذ، البدين، المرموق يحمي قلوب بناتهم.

وعرف بالاتسكي قصصاً أخرى لتسلية ناتاليا، كلّها أظهرت أن الرجال البدينين على حقّ.

وهكذا مثلاً حكى لها عن القديسة مارغيت التي قاما بزيارة ديرها، قائلاً إنها كانت مغرمة برجل بدين، لكن من دون أمل. أما الأسماء الفخمة الأكثر جمالاً ومبعثاً على الخيال الحالم المكتوبة على جدران الأنقاض، مثل تيبور، وڤيلموش، وألادار (التي كتبت هنا مع تاريخ اليوم والسنة) فقد كانت نظرة بالاتسكي بخصوصها: إنها جميعاً قد تكون أسماء لأشخاص سِمان شديدي الوسامة. ولقد خرج من جلده من فرط سعادته حين صادف في جزيرة مارغيت شخصاً يفوقه بدانة يقوم بتهوية وجهه المتعرق بقبعته القش وهو يقود سيّدته بكلّ احتفاء. «مثل هذا الرجل الشديد السمنة لا يمكن أن يكون مريحاً!» - قال بمرح، وراح ينظر إلى سترته بالخفاء. إلّا أنه شدّد على فكرة أن البدين يملك على الدوام المال، والائتمان والاعتبار. البدين وحده السعيد على وجه الأرض، والمرأة المحظوظة من تمتلك حبيباً سميناً، لأن السمان أوفياء على الدوام.

- كانوا فيما مضى يعتقدون - أوضح بالاتسكي- أن السّمان لا يجيدون الحبّ كالنحاف. لهذا السبب كانت النساء تفضل ذوي القامات الفارعة والسيقان الرفيعة الذين لا يملكون إلّا عظامهم يقدمونها لهن كهدايا. هؤلاء النحاف البائسون ملكوا الوقت للجري وراء نزوات النساء. ونتيجة لعوزهم لأمور أخرى كانوا مستعدين لجرّ العربات، والذهاب إلى السوق للتبضع. وباختصار هم شهيرون بقدرتهم على الحركة. لكن أحدث النظرات ترجح الكفة لصالح السمان. السمين عمليّ، مقتصد، سرعان ما يسعى لاقتناء سلسلة ذهبية يدلّيها على سترته، وهو يستحم في أغلب الأوقات لكي لا تفوح الرائحة الرديئة من جسده. لا يقوم بأيّ سلوك أرعن، ولا تخلو محفظته من النقود، ولا ينسى أبداً أنه ينبغي أن يفاجئ النساء بهدايا صغيرة، وما شابه...

أي لا بدّ من التضحية من أجل العاطفة... ثم حدّثها بالاتسكي أنه يملك رأسمالاً لا بأس به تمكّنه الفائدة التي يجنيها منه من العيش حتى الشيخوخة.

ناتاليا نفسها لم تفهم كيف استطاعت الصمود أمام الحديث الطويل.

عبثاً أوجع بالاتسكي رأسه بالخطط الحربية، عبثاً أراها العشاق الشبان المنتشرين بين أنقاض الدير عند الأصيل. -« لو تتمعن الآنسة فيما كتب على الجدران: فقد تجد اسم أمها أيضاً منذ الثمانينيات. هذا الجدار مفكّرة العشاق البودابستيين»- غمغم بالاتسكي في نفسه. «يتحتّم على كلّ من يطأ أرض جزيرة مارغيت هنا أن يكون من العشاق». عبثاً حاول الدخول إلى قلب ناتاليا التي ما زالت طيبة لا يشوبها الفساد. «على السيدات أن يتعلّمن كثيراً كي يدركن قيمة ثياب زفافهن».

تمسكت ناتاليا بهنريك بوفاء كلب لصاحبه. ذنبها كبير إن ارتكبت خطيئة ضد هنريك، على الرغم من أن الشاب اللامبالي لم يعرها اهتماماً. كانت واثقة بالعناية التي يوليها لها بالاتسكي، فيما كان هنريك يتسكع في الدروب المجهولة للمدينة. عندئذٍ حدث أن السيد دوبلي المتهكّم المذكور سابقاً في فصول الرواية، وقع في حبّ ناتاليا المتأجج.

حصلت في العالم أحياناً أعاجيب، وهام رجال فاسدون، ضجرون، تلوثوا بكلّ حقارات الحياة بحبّ نساء شابات لم يمسهنّ الفساد.

باح السيد دوبلي بحبّه في رسالة.

أعلن في الرسالة أن سلام روحه لا يمكن إلّا لناتاليا أن تنقذه من الدمار... إن كان بودّ ناتاليا أن تقدم أعظم فائدة لصالح مذنب بائس، فالسيد دوبلي بانتظار كلمتها الحاسمة، جاثياً.

أعقبت الرسالة الأولى رسالة ثانية، وظلّ السيد دوبلي متشرداً دائماً في الأزقة الفرعية القذرة المليئة بكومات القمامة، والتي تحيط بالكنيس اليهودي في بودا القديمة. كان السيد دوبلي يطوف بخطوات حذرة في جوار عشّ ناتاليا وهو في حالة نفسية مزرية، معتمراً قبعة تغطي جبينه، وهو يختلس النظرات، ويحاول تهريب الرسائل لناتاليا، ويطلق تنهيداته الطافحة بالمعاناة.

وسرعان ما لاحظ الأمر بالاتسكي الحادّ النظر الذي يخون أمه من أجل نكتة ساخرة، فكان أول ما قام به هو إعلام ناتاليا بما يرتكبه السيد دوبلي من عدم اللباقة. فماذا بوسع فتاة شابة تائهة في بودابست أن تفعله من تفاهة كبرى سوى مواجهة السيد دوبلي والتكلم معه. وهكذا انتشر في اليوم التالي خبر عمّ أرجاء المدينة عن وصول مخلوقة ساقطة إلى العاصمة. السيد دوبلي يخبئ السمّ في فمه كالأفعى، وكان يتعيّن قتل هذا المفتري منذ مدة طويلة.

وهكذا أحاط بالاتسكي بناتاليا، في حين لقي السيد دوبلي المسكين فيما بعد حتفه حقّاً من الحبّ. طالما أعلن دوبلي في رسائله السرية عن نيّته في أن يتزوجها في ذلك الكنيس الذي اختارته ناتاليا لهذا الغرض. حتى إنه كان مستعدّاً لإقامة زفافه في كنيس مسقط رأسها في باكوني إن أصرّت ناتاليا على ذلك. أوضح السيد دوبلي أنه لا يبحث إطلاقاً عن إشباع نزواته العابرة مع هذه المرأة التي أحبّها من شغاف قلبه. لقد بات شجرة جوز عجفاء يحتاج إلى سند. ولا يطمح فيما تبقى من حياته إلّا التزام البيت وكسر الجوز، وتخمير النبيذ، والخلود باكراً إلى النوم وازدراء العالم بما يحتمل من طموح، والهزء من تفاهة حياة المدينة، ومراقبة أوراق الأشجار وهي تصفرّ تحت النافذة، وإغلاق باب المنزل بإحكام عند الأصيل لكي لا يتمكن السكارى والمجانين في العالم الخارجي من اقتحام عشّه الصغير الهادئ. على المرء أن يجمع الكثير من الأخشاب اليابسة لكي يتمكن من إشعال النار في موقده حتى نهاية حياته. ولقد جمّع هو ما يكفي من الذكريات القابلة للتوهج.

لم تفهم ناتاليا رسائل دوبلي الفصيحة، لأن الكاتب الصحفي أراد من خلالها أن يعبّر عن نفسه بمغالاة في الفصاحة، وهو يخطّها في مقهى رادتسكي ممضياً الساعات الطوال وهو يحكّ رأسه بريشة الكتابة، حتى يعثر على الكلمات المقاربة لأحاسيسه.

كتب دوبلي في آخر رسالة له أنه اعتزم إقامة ما يصبو إليه في الكنيسة الكاثوليكية في بودا القديمة.

وكان فيما بعد أن احمرّت عينا بالاتسكي، وتجعدت رقبته، ونقّط السم من كلماته، وذلك بسبب الغيرة والحسد اللذين شعر بهما حيال الشاب

المتوازن الجادّ الذي وقف عائقاً أمام حبّه المرفوض من قبل ناتاليا. قرّر أن يحطّم الفتاة فقال لها مكشراً عن أسنانه: «إن هذا العجوز كريه، ومقرف وإن كانت كلماته على قدر كبير من الجاذبية». وقال لها أيضاً: «أنا لا أخشى على حياتي الآتية لأنني أمتلك منزلاً في كلّ قرية، كما نصحني جدّي. أما أنت فلا تملكين حتى منزلاً واحداً... فما الذي سيحصل لك من دون أصدقاء!». بكت ناتاليا ليل نهار في حين ركب الغضب بالاتسكي، وراح يحيك الخطط المشؤومة وهو يجوب الشوارع برأس مطرق.

وهنريك لم يظهر في هذه الفترة، كما لو أنه يعطي الحق لبالاتسكي.

لكن ناتاليا لم تكن لتدرك بعد بأنها ستكون إحدى تلك النساء البائسات اللواتي يتسكّعن في المدينة الكبيرة بلا صداقة وسند. كانت تشاهدهن من نافذتها وهن يسرن متلفعات بوحدتهن وكآبتهن، متخليات عن نقائهن المرير، ممسكات بأذرع رجال سكارى أفظاظ، وكانت تلاحظ أنهن، يوماً بعد يوم، يطلين وجوههن بقدر من المساحيق يتكثف يوماً إثر يوم ليتمكنّ أمام العالم من إخفاء لون وجوههن الذي يزداد شحوباً مع مرور الأيام. لم تهلع ناتاليا من القدر. لم تخف من أيّ شيء لأنها كانت تسمع وقع خطوات السيد دوبلي في كلّ الشوارع البعيدة.

لم تخشَ أنها في ذات يوم ستعقد ساق حذائها بالخيط كالمرأة الحمراء البدينة في شارع (الأجراس الثلاثة) التي تميل طوال اليوم من النافذة - فهي إذن لا تلبس إلّا حتى خصرها، وما تحته عارٍ - ولا تخرج إلّا لعند البقال من أجل البيرة أو الروم. لم يخترق قلبها برد الشتاء وهي تعتمر قبعة رجالية لعدم توافر قبعة أخرى، وتجلس قرب حانوت بيع البالينكا حيث في داخله يحتسي أفراد الفرقة الموسيقية الغجرية الكحول، ويتمدّد أمامه رجل رثّ الثياب، مزرقّ الوجه، حيث يتعين عليها أن تعرض حبّها في ظلمة الشوارع الفرعية للمجرمين واللصوص المطاردين منهم، والمتخفّين. لم تخشَ أنها ذات يوم سوف تطوف في المدينة كفزاعة عصافير مبهرجة، مصطدمة بأعمدة المصابيح، شاتمة قاذفة بقشور البطيخ وراء العربات لأن السيد دوبلي وعدها أنه سيظلّ على الدوام حريصاً كي لا تنطفئ النار المضطرمة.

حين رحلت ناتاليا من القصر الإقطاعي، كانت تمتلك ثوباً موشى بأزهار صغيرة، وتنورة واسعة، ومنديلاً، وقبعة مطوية الحافة، بورود حمراء، وزرقاء - مثلما يتخيل المرء تلك النساء اللواتي اعتدن الفرار سيراً على الأقدام، أو بالترام الذي تجرّه الأحصنة، أو في الليل تحت رعاية النجوم. وبالطبع كان هذا الثوب مهترئاً، وكادت الرياح الصفيقة أن تشلّع المنديل، حيث قصدت ناتاليا المقبرة العسكرية القديمة في (ليل الأموات) لإشعال شمعة على قبر مجهول لا شاهد عليه. لم يعد أحد يعرف من يتمدّد هنا تحت التلة الخاسفة. - أهو جندي مرتزق ذو أسنان كالمجرفة، مربع الرأس، ضخم الشاربين قام بحماية بودا؟ أم وطنيّ شاب تشبّث بالساتر الترابي؟ الموتى متشابهون على الدوام - لهذا أشعلت ناتاليا شمعة، لأنها شعرت بأن سلام روحها يحتّم عليها إشعال شمعة. شعرت بأنها مدينة لسلام روحها بإشعال شمعة. كانت امرأة ريفية، بطبيعتها تحبّ المقابر، وتبكي من الحزن والحنان أينما طافت فيها... وهذه المقبرة كانت مهجورة، بل الأكثر هجراً من كافة المقابر في بودا. صفّرت الريح واهنة بين الأشجار القديمة كأنها تعترف بعدم جدواها. قعدت بعض العجائز هنا وهناك عند قبور لا يعرفن كم مرّ عليها من السنوات، وحتى حفّاروها قد قضوا نحبهم منذ مدة طويلة. ضباط الألوية العجائز الذين رغبوا بالمجيء إلى هنا ليكونوا إلى جانب رفاقهم السابقين، كانوا يصلون بمهابة عسكرية، والقبعة الخضراء على أغطية النعش، ولا بدّ أن الموتى القدماء كانوا فخورين... بالطلقات النارية التي لعلعت على شرفهم. أما الآن، فنادراً ما صرّت أبواب المقبرة أمام عربة نقل الموتى، ولم يعد لحفاري القبور من مبرّرات لاجتراع الروم منذ الصباح حتى المساء، لأن بوسعهم ممارسة مهامّهم بوعي.

حافظت ناتاليا على الشمعة المشتعلة براحتيها المفتوحتين، وهي تصلي جاثية قرب القبر. صلّت لأجل والديها المتوفيين اللذين لم تعرفهما قط، صلّت لأجل صالح أعمالها، ولأجل أصحاب القصر، ولأجل هنريك، وبالاتسكي، والسيد دوبلي الذين عرفتهم بشكل خاص في هذا العالم. وعلى مسافة كبيرة منها ومضت أيضاً في المقبرة بعض الشموع كما لو أنها هيئات أرواح مسعفة - لعلّ شاباً يستلقي هناك بين العجائز وقلبه هو الذي يضيء

كلّ ليلة من الألم... ثم أتت الريح على ضوء الشموع وأطفأته في المقبرة، وتلفعت ناتاليا بالمنديل، وراحت تركض تحت الأشجار بقلب شديد الخفقان. لاحقتها الريح صارخة وراءها بشتى الكلمات غير المفهومة، تردّد الصراخ تهديداً حيناً، وإغواء حيناً آخر. وحين عبرت ناتاليا مدخل المقبرة شعرت بأن أحداً أتى معها. كأن أحداً تشبث بظهرها، وخصرها، وراح يضغط بكلتا يديه فوق قلبها. حين كانت تصلي محنية الكتفين بخشوع: ربما قام أحد ما، روح صغيرة مثلاً كانت من شدة البرد تختبئ حتى الآن في عش عصفور بين فروع الأشجار، هو من قفز من الأعلى وانزوى بين ثياب ناتاليا. كان دافئاً كالخبز الطازج. وكانت ضمة ذراعيه كضمة قطفتي زهر. حتى كان بالإمكان الإحساس بأنفاسه - كما لو أنه وناتاليا يتنفسان معاً.

في البداية حملت ناتاليا الثقل مذعورة في طريقها إلى البيت. لقد طلبت من البيت الإذن لجلب الخشب الجاف، وها هي ذي بدلاً من القصفات اليابسة تعود حاملة شيئاً آخر على ظهرها. ترى ما الذي يلتصق بها دافئاً، حميميّاً كأنه جسد من جسدها، وروح من روحها؟... لم تجرؤ ناتاليا على النظر وراء كتفيها- هكذا تعلمت في طفولتها من النسوة العجائز اللواتي قصصن لها الحكايات الخرافية - لم تجرؤ لترى من تحمله على ظهرها... أهو طائر أم طفل صغير؟

حين وصلت إلى المدينة، وصارت بين الحوانيت المضاءة، والشوارع، والحانات، وكان ذلك في أحد الأماسي الشتائية الواعدة بتساقط الثلج، شعرت ناتاليا بالبهجة لأنها لا تسير وحيدة في الطريق الطويل الذي يبدو لانهائيّاً كالخيط في مغزل النسوة العجائز. أحدهم رافقها، وأحسّت طوال الطريق بدفء ضمّته، وسمعت خفقان قلبه الصغير كحبّة الخوخ. وكما لو أنها على حين غرة قد حظيت بأفضل الأصدقاء الذي لا يتخلّى عنها أبداً، ويرافقها خلال النهار في كافة دروبها، ويواسيها بصوته، وينام معها على وسادتها، ولا يفارقها، ويشجّعها بحضوره، ودفئه، وإخلاصه. انشطرت روحها إلى روحين، أينعت إحداهما وأعطت زهرة. شعرت في خطواتها بخطوة ذلك الآخر الصغيرة، المواظبة. سار معها بحزم أحد ما لم تتمكن من رؤيته أو ملامسته. لعلّ الأمر كلّه مجرد إحساس جديد ودود مطمئن بلا

حدود... وأحست بعينيها أن أحداً آخر ينظر من خلالهما، ولا يجد العالم مملاً كما وجدته هي حتى الآن.

التقت في طريقها سيدات المدينة اللواتي تدلّت خصلات الشعر على آذانهن، وارتدين التنانير الضيقة كأنهن يرغبن في تجاوز الموضة الفرنسية. كأن هؤلاء السيدات البودابستيات القادمات في مواجهتها، قد عرفن الوجه الغريب الصغير الذي تحمله ناتاليا في صدرها وعلى ظهرها: رمقن هذه الفتاة الساعية تحت هطول الثلج بنظرات الشماتة والازدراء. شعرت بأن رائحة حوانيت الجزارة أقوى بكثير، وكأن رائحة النقانق ما زالت عالقة وتفوح من مصابيح الواجهات. كانوا يطهون السمك المثوّم في حانة عزفت داخلها الفرقة الموسيقية افتتاحيتها للتوّ، حيث كانت امرأة سمراء، مبثورة الوجه، متوهجة العينين تغني بمزاج ناريّ، وصوت يتناهى إلى الشارع. شعرت ناتاليا فجأة بشهية نحو السمك المثوّم، فكادت أن تقع من الإنهاك.

لحق بها السيد دوبلي تحت مصباح الشارع، وكان يتتبعها من مسافة بعيدة.

في ذلك المساء كان للسيد دوبلي صوت خاص أجش كما لو أنه اجترع المزيد من النبيذ في حانة منعزلة على كتف الجبل، وبدّد هناك كثيراً من النقود لسماع موسيقا الأرغن الآلي، وكتب بإصبعه المغموسة بالنبيذ اسم امرأة على طاولة الحانة الخضراء.

- أنت لا تدركين أنني الرجل الذهبي![*]- بادر السيد دوبلي كأنه يستأنف فكرة دارت في ذهنه مسبقاً - أريد أن أفعل بك ما فعله ميهاي تيمار مع نعيمي. أريد أن أمضي بك إلى بيت مخفيّ، قديم ما أمكن، يعود إلى الفترة التي بنيت فيها القصور في بلاد المجر، وراء حديقة وحشية كثيفة يغرّد فيها العندليب مع قدوم الربيع ليسلّي أنثاه بما أمكنه من تقوى... بينما في فصل الخريف يخمد هنا كلّ شيء، ليكون العشب رماديّاً، والغابة شفافة، والغصون متأملة، وأوراق الشجر ساكنة، والدروب حالمة، والعنكبوت تنسج شبكتها الكبيرة، وتتساقط من أعالي الأشجار الساحقة النقود الذهبية.

لم تفهم ناتاليا تماماً ما يتفوّه به السيد دوبلي، لأنها حتى الآن لم تقرأ

---

*. الرجل الذهبي: رواية الكاتب المجري الشهير مور يوكاي - المترجم.

رواية «الرجل الذهبي». غير أن هذا الأمر لم يمنع السيد دوبلي من متابعة كلماته المفعمة بالتأملات.

- كثيراً ما عانيت في هذا العالم، بحيث يمكنني أن أقيم زفافاً فضيّاً. منذ عشرين عاماً وقريني الهمّ والقرف من الحياة. وصلت معرفتي بالعالم حتى لم يبقَ لديَّ أصدقاء. أنا أجوف كسنّ منخورة. لم يعد خفيّاً أمامي ما يفكر، ويشعر به الناس. لا يمكنني القول إنني مخذول، وخائب الأمل، لأنني أصلاً لم أمتلك أوهاماً عن العالم. كلّ ما هنالك أنني اكتشفت أفضلية الحياة المنعزلة، والضحك بين الجدران الأربعة عمّا تكتبه الصحافة، وقراءة - في بيت منعزل- قوائم أسماء الحفلات، وكيف يستدعون السيدات بأحذيتهن البيضاء، وتسريحاتهن الدقيقة؛ إحداهن مديدة الخطى، وأخرى تسعى إلى تقصير خطاها - ثم التفكير- بعد قراءة كلّ هذا - كم هنّ جاهلات، يفتقرن إلى الثقافة والمشاعر! أو ربما أن أقف في برج عالٍ أراقب المارة، ولا أسمح بالصعود إليه إلّا حسب رغبتي. أريد أن أدير ظهري للجميع ولكلّ شيء، وأن أحيا من أجلك يا ناتاليا فقط.

بدا السيد دوبلي مرتبكاً، متوتراً هذا المساء. كانت ناتاليا أكثر شباباً منه بكثير، فلم تتمتع بخبرة حياتية كافية. لقد شعرت- وهي في رقّتها هذه - ليس بالشيء الحسن أن يكثر السيد دوبلي من الكلام ثم يندم لاحقاً على ما يتفوّه به. لهذا السبب ضمّت كفّيها متوسلة:

- أنا لا أستحق أن تمنحني يا سيد دوبلي كلّ هذا الحبّ.

لكن السيد دوبلي لم يكفّ عن الحديث، إنه لأمر سحيق القدم أن الرجال لا يهدؤون حتى يبوحوا بكلّ خباياهم.

- أعرف منزلاً... منزلاً أقام فيه «الرجل الذهبي» بالذات.

منزل على سفح الجبل في منطقة حيث لم يعد هناك سوى أعمدة المصابيح النفطية وحدها، وأكثرها مجردة من مصابيحها لأن أهالي المنطقة ينتزعون مصابيح الشوارع ليتمكنوا ليلاً من الاطلاع على تفاسير أحلامهم في كتاب الأحلام- تجوّلت في تلك الأنحاء حين كنت ما أزال شغوفاً بالمشي الطويل في بودا، سعيداً بالهواء النقي البارد الذي يلفح وجه المرء ما

وراء الجسور، وحيث تقوم النساء ذوات العيون المتأملة بتمشيط شعورهن السوداء مدة طويلة من الوقت عند النوافذ الصغيرة للمنازل الغارقة في الأرض. دخلت في الشوارع ذات الأجواء الرومانسية، وحلقت ذقني عند حلاق له اسم صربيّ، ودار في ذهني ترى ما الذي قد يحدث داخل هذه المنازل حيث تتلولب السلالم الحلزونية في العتمة. سررت بالفناء الدائري للحمّام الإمبراطوري (تشاسار فوردو) الذي تطلّ عليه بمرح الحياة، وفخامة القصور، والنوافذ الواسعة ذات الأطر البيضاء، وتسمق الأشجار الباسقة بأغصانها الخضراء اللمّاعة حتى تبلغ أعالي سطحه، وتصدح الفرقة الموسيقية البوسنيّة في ساعة الظهيرة، وتفوح رائحة الاستحمام ممزوجة بالبارفام الفرنسي من السيدة الأجنبية الناعمة التي تهبط السلالم المفروشة لحديقة الفناء على نحو يوحي بالرفاهية، وتصلصل أدوات الطعام ذات الطراز القديم، وتطهى يخنة اللحم المفروم، ويحمرّ الفلفل، ويزبد إبريق البيرة الكبير الأذن، حين ما يزال بعدُ للحياة كلّها طعمها الفتيّ ورائحتها، وملمسها... ويظنّ المرء أن النساء يجلسن تحت أشجار الدلب لمجرد التسلية فقط... في هذه الفترة إذن، اكتشفت المنزل الخفيّ. كان منزلاً لقبطان سفينة خبّأ فيه امرأة مسروقة. كان القبطان الطويل الأسفار صديقي. كان من اللائق أن زوجته ستكون صديقتي. لكن القبطان كان رجلاً متمرّساً، كثير الخبرة، عرف المهرب والتاجر والضابط على طول منطقة الدانوب السفلى، ارتاد كلّ حانة مرفئية كأنها منزل له، وعرف الذهب الزائف من دون عضّ. كان يحادثني بصدر رحب ولو حتى الفجر في تلك الحانات الصغيرة الطيبة الرائحة، مع النبيذ الأحمر، التي اكتظّت بها ضاحية راتسڤاروش، لكنه لم يوجه إليَّ دعوة إلى منزله قط. وذات مرة انطلق القبطان في رحلة طويلة، ودّعني بقلق بعد حضورنا قدّاساً وإصغائنا إليه حتى النهاية. اتخذت قراري بألّا أعبث مع صديقي، ولن أتقصد التعرف على المرأة السجينة، لا بل إنني سوف أحرص، ما أمكنني على منزل القبطان، وما يحيط به، لكن عن بعد. وذات مرة، وكنت بالكاد أتجاوز المنزل برز من بين فروع شجيرة الليلك، عبر الشبك الحديدي، صندل أحمر ذو شرّابات. قرأت مرة أن النساء الشرقيات ينتعلن في حرمهنّ مثل هذه الصنادل. أغواني الشيطان.

اقتربت من الصندل على رؤوس أصابع قدمي، كما أقترب من فراشة في قيلولة الظهيرة. تناولت الصندل بيدي، وعثرت تحته على قدم صغيرة هي الأكثر بياضاً في الكون، بعروق دموية زرقاء، وأظافر رقيقة، وكعب صغير طريّ، قدم مرنة كأقدام راقصات الباليه. ضحكت المرأة السجينة بين الفروع كيمامة. وفي مرة أخرى أيضاً أتيت من أجل الصندل الأحمر، الذي بكلّ وفاء برز من الشباك الحديدية احتفاءً باقترابي منه، واستقر في راحة يدي بمنتهى الطواعية، وراحت أصابع القدم التي تتحرك منفصلة عنه تحكي لي قصص ألف ليلة وليلة. اقترب اليوم الذي ينبغي لصديقي أن يصل فيه من منطقة الدانوب السفلى. لقد أحصت المرأة المسبية الأيام بحبّات البازلاء التي وضعتها في صندلها. حين سقطت الحبّة رقم مئة في الصندل، لم تعد القدم الصغيرة تبرز عبر السياج، وكفّت الحكواتية عن قصّ الحكايات، وانغلقت الفروع كثيفة، ولم ينفتح في المنزل باب. هربت المرأة السجينة قبل وصول صديقي بعد شعورها أنها لم تطع أوامر الولاء. زأر القبطان متوجعاً، ولم يتمكن من إيجاد أيّ أثر لقدمي المرأة. لعلّها طارت على ظهر طائر الغريفين الذي حمل السندباد أيضاً. فاتجه صديقي إليّ لمواساته، وفعلاً أظهرت له من العناية الصداقية الحارة طوال أسابيع حتى توقف عن بكائه المرير، وكفّ عن لطم رأسه بالجدار، وهدأ إلى حدّ ما. لكن المنزل الذي فرّ منه طائره، هجره صديقي بلا عودة، واستقر في السفينة التي لم يغادرها إلّا يومي الثلاثاء والجمعة، حين يطهون السمك على الطريقة الصربية عند يوتسو إيڤانوڤيتش. وهكذا تسنّى لي أن أصل إلى المنزل الذي أقترحه مكاناً تقيمين فيه يا ناتاليا.

مهما يكن من أمر فإن ناتاليا لم تكن بعد مستعدة للاستجابة لإلحاح السيد دوبلي. ولم تفعل كغيرها من النساء الخرقاوات المفتقرات إلى العواطف اللواتي يتجنبن عادةً الإجابة الصريحة. لم تكن ناتاليا مخلوقة فاسدة، فلم يكن في ذهنها أن تقود السيد دوبلي من أنفه، فكان جوابها شفافاً بعد لحظات من الصمت:

– اعذرني يا سيد دوبلي، لكني لن أذهب للإقامة في سفح جبل غاليرت. لا يمكنني أن أترك هنريك الذي تربطني به علاقات أمتن. فلا يمكن لأحدنا أن يتخلّى عن الآخر.

– وما هذه الحبال الأمتن التي تشدّكما؟ – سأل السيد دوبلي وهو يبتلع ريقه الجافّ – بحسب علمي، نسي هنريك أن يعقد معك زواجاً على أساس القوانين التي تنصّ عليها كنيسة الأم المقدسة.

– هذا صحيح – أجابت ناتاليا مطرقة.

فتل السيد دوبلي عينيه باهتمام:

– رغم ذلك، لقد كان صديقي النبيل، قبطان السفينة، محقّاً حين أفادني، قبل حادثته المشؤومة، بهذه الموعظة: لا يتعين على المرء أن يفاوض النساء كثيراً، وإلّا سيشيخ باكراً. عليه أن يأسر النساء، وسيبلغ بهذا غايته.

هكذا تكلّم السيد دوبلي، لكنه أبدى سريرة مؤسفة كطفل منمش.

لم تجب ناتاليا، لأنها كانت ما تزال تفتقر كثيراً إلى المهارة في مفاوضة الرجال.

ودّعا بعضهما بعضاً عند ناصية شارع تبدأ عندها بودا القديمة. وقف السيد دوبلي وبيده القبعة (كأنه نسي ما كنّه من ازدراء للرجال المغرمين)، وقلبه يخفق بشدة، وصوته يرتجف حين سألها:

– ما زلت لا أدري ما هي تلك الحبال المتينة التي تربطكما!

استقامت ناتاليا، وارتسمت على وجهها ابتسامة متردّدة هي ابتسامة الحالمين، المعجبين، القديسين، الشهداء، وأبلغت السيد دوبلي بصوت خفيض بأنها تظنّ أنها حامل منه.

– لا بأس... – أجاب السيد دوبلي يكاد يجهش بالبكاء – ومع ذلك فسأظلّ أحبّك يا ناتاليا.

ورحل في العتمة، لكي لا تلمح ناتاليا دموعه المتدحرجة. أصغت الفتاة إلى وقع خطواته ويدها على قلبها، ولم تمتلك القوة لمناداة السيد دوبلي للعودة، مع أنها بذلك كانت ستنقذ نفسها من كثير من العذاب والألم. لاحقاً حتى تكشّفت الحياة على حقيقتها أمام ناتاليا، لا شيء في الكون أفضل من الارتباط برجل معجَب. على الفور، صار للغيوم لون آخر. الصباح السبتمبري طازج، وبارد، ونقي كوجه تلميذة مدرسة. يمكن بدء الحياة

مجدّداً في هذه الصباحات الطازجة التي يفهمها المعجب المحبّ، ويشير إليها؛ يمكن السفر على ظهر سفينة بيضاء إلى جزيرة القديسة مارغيت في نهر الدانوب حيث تنسكب المياه كالأوشحة فوق النزهات مشوبة بلون الذهب في الخريف، حيث عجوز يرافق امرأة شابة، وتلتمع لحية العجوز كثلج مونتبلانس... مع المحبّ المعجب يمكن التجوال في بست أو بودا فقط، صباحاً، أو مساء لأن كلمات المعجب المحبّ تجعل حتى جول بابا يخرج من قبره العميق، والأجراس تقرع على شرفات الڤيلات في سفوح الجبل، وحنطور الحمار ببرميل الماء الأخضر يصعد على طريق الجبل على نحو يبهج النظر، وهناك في الأسفل ينتصب الحمّام القيصري (تشاسار فوردو) كقصر الناس السعداء - كانت ناتاليا ما تزال فتاة شابة حين حصل هذا، ولهذا السبب تركت السيد دوبلي يغادر إلى شارع العشاق البؤساء الكائن في جهة ما في تابان، والصاعد في الجبل وينتهي بحانة يقدم فيها عازف الترومبيت في الليالي السبتمبرية الفاترة أنغامه للعشاق.

عثرت ناتاليا على هنريك برفقة بالاتسكي في ڤوروش ألشو حيث اعتادا أحياناً أن يتناولا طعام العشاء. كانت هذه حانة بالاتسكي منذ فترة لأن اسم الحانة شبيه بالحانات في الروايات الفرنسية. كان بالاتسكي مستلقياً ويداه في جيبيه كأنه يفكر في شيء ما، في حين هبّ هنريك واقفاً وسأل ناتاليا أين كانت كلّ ذلك الوقت. «كنت عند أمواتي» - أجابت ناتاليا بشيء من الخوف لأنها لم تكن مهيأة لهذا الترحيب الكئيب. «كان حريّاً بك أن تؤمني لنفسك مسكناً في سرداب ما، لأنهم طردونا من غرفتنا عصر هذا اليوم» - قال هنريك، ورمق ناتاليا بنظرة استياء غاضبة كما لو أنها السبب بأن صاحب الغرفة الغضبان يرفض الاستمرار في بقائهما فيها بالدَّيْن.

التفتت ناتاليا نحو بالاتسكي بنظرة خاطفة، لكن الشاب الحاذق الواسع الحيلة لم يمتلك المزاج لتقديم العون. راح يتفحص أظافره، ثم أولى اهتماماً بطائر أبو زريق الذي انزوى صامتاً في قفصه المعتم. ولاحقاً، لكي يبين عدم اكتراثه بكلّ من هنريك وناتاليا، نهض عن طاولتهما وانخرط بمجموعة تلعب الورق على طاولة أخرى، وسرعان ما أدّت تعليقاته إلى شجار بين المواطنين المسالمين. نظر هنريك أمامه محبطاً، واعترى ناتاليا الذعر حتى

لم تقوَ على التفكير. ما الذي سيحصل؟ كأن عاصفة ثلجية في الخارج وراء النوافذ المعتمة! والرياح تهبّ من بين الجبال مقتحمة شارع لايوش، مشلعة أبواب المداخل المقلقة، لاعنة كلّ ناظر بناية بسرواله الداخلي، ملحقة الالتهاب بحلق الشرطي ذي المعطف، جاعلة الساقي أنطون يغلق الحانة... الليل آتٍ وهم لا يدرون أين يخفضون رؤوسهم. لا بدّ أن بالاتسكي يعرف كوخاً بين جبال بودا، لكنه لا يفصح عن الأمر. ناهيك عن أن بالاتسكي بعد الكأس العاشرة راح يصدح بأغنيته المعتادة:

...أوسكار يعرف، لكنه لا يقول.

أهالي بودا القديمة يخلدون إلى النوم باكراً، ويبقى ساهراً سيد عجوز مريض عقلياً يتمشى برفقة كلب صغير فاجر في محيط الكنيس اليهودي، ويسقط ظلّه النحيل الفارع على النوافذ التي تخلع النساء ملابسهن وراءها. لقد ألف أهالي بودا القديمة هذا الشغف البريء للسيد العجوز سيكاتانس المستيقظ الوحيد في بودا القديمة حين غادر بالاتسكي وهنريك وناتاليا حانة فوروش ألشو. اختبات الرياح تشكو في الأزقة كأنها لا تجد مخرجاً لها بين الأكواخ الكئيبة. لعلّ امرأة شمطاء قامت بربط أقدام الريح البلشونية الطويلة بعصا مكنستها، فلا يتمكن طائر الليل الخفيّ من الفرار من هنا ميمماً شطر الأماكن الأجمل والأكثر اتساعاً حيث يمكنه التنقل بمنتهى الحرية. امرأة شمطاء هي إحدى تلك النسوة اللواتي تكاد أنوفهن تضرب الأرض وهنّ يعبرن خفيضات الظهور جانب بيوت بودا القديمة كحزم ملابس مهترئة حيّة، يضمرن في قلوبهن بغضاً حيال ما هو فتيّ يانع.

وهنّ أيضاً يستولين على الأحلام ويجمعنها كالضفادع في سلة سوق كبيرة. تقبع الأحلام في قاع السلة لا حول لها ولا قوة، وتترقب بعيون براقة، وبإصرار متى ستتمكن من التخلص من قبضة المرأة العجوز الشمطاء. لا بدّ أن هؤلاء النسوة هنّ من وضعن عارضة خشبية اعترضت الطريق فيتعثر بالاتسكي، ويوشك عنقه أن يتحطم. ينهض بالاتسكي على قدميه شاتماً الله والإنسان، ويعلن بغضب أن كيله قد طفح الآن وينبغي مغادرة بودا القديمة إلى غير رجعة.

– كيف يمكن الإقامة في مكان لا تضيء شوارعه المصابيح؟ – سأل بالاتسكي البوابة الخشبية – الظلمة لا تناسب إلّا الحالمين، والمرضى العقليين.

– الإقامة في بودا القديمة جميلة للمرء في سنّ العشرين، حتى في غرفة على السطح. يحضر الرجل معه امرأة تسلّيه، فلا يعير اهتماماً لتفاهة الحياة. لكن كبار السنّ في حاجة إلى المصابيح، بعد أن يكونوا قد سئموا النساء مثلما سئموا المرض. لذا دعونا نذهب إلى بست حيث الحياة والأضواء.

ثم ساروا طويلاً في الظلمة الحالكة. عبروا جسراً برق تحته الدانوب عند منتصف الليل بعينيه الشريرتين، المائيتين، كتنّين هائل أبدى اليقظة، يلتهم كلّ يوم امرأة أو اثنتين من سكان المدينة. فكرت ناتاليا في نفسها: ما الذي قد يحدث لو تملّصت فجأة من ذراع هنريك وألقت بنفسها في التيار؟ بالاتسكي الحازم الجريء على استعداد لرمي نفسه وراءها... كان القمر مختبئاً وراء غيمة داكنة في مكان ما فوق بست الجديدة، غيمة شكّلتها مدخنة مصنع يحرقون داخله عظاماً بشرية. في الجهة البستيّة من الدانوب جلس شخص في قارب متأهباً بمجدافيه كما لو أنه ينتظر جثثاً آتية على صفحة الدانوب في هذه الساعة من منتصف الليل. «ما الأخبار في ناج ماروش؟» – يسأل صاحب المجداف الجثث، ولأن هذه لا تعرف بدقة محطات السفن التي عبرت قربها، فإنها ستسلّي الصيّاد بالشائعات المبثوثة في منطقة أسترغوم النهرية، لأن الجثث تتوقف دائماً لبعض الوقت عند شاطئ أسترغوم لتسمع أنغام الفرقة الموسيقية المنبعثة من المسبح هناك.

بست مُنارة. بدت بعد منتصف الليل، بشوارعها الخالية، ومصابيحها، مدينة يخاف قاطنوها من الأشباح، ولهذا السبب فإن الجزء الأكبر من الدخل القومي يصرف على مصابيح الشارع. فهل الضمائر هنا رديئة، أم أن البشر هم الميالون إلى الخرافة؟

مضوا في طريقهم حتى صاروا في شارع فرانك ياراماش وزوجته. ضغط بالاتسكي الجرس تحت المدخل، ففتح الباب ناظر البناية وقد لفّ نفسه بجلد الغنم نظراً لأحوال الطقس الشتائية.

- هل المرأة في البيت؟ - سأل بالاتسكي.

صعدوا السلّم مسرعين، كأن الرجلين خشيا أن يلاما على قرارهما. وحين صاروا في الغرفة (حيث رأينا ناتاليا للمرة الأولى في بداية قصتنا)، أجلس بالاتسكي ناتاليا على الكنبة، وقال بوجه ديك رومي محمرّ:

- مساء أمسِ - حين كانت سماحتك بعيدة - قرّرنا أنا وصديقي أن نقوم بقتلك. هذا سهل على مثل تلك النساء اللواتي يسئن إلى شعور ثقة الإنسان بالآخرين. كيس بالٍ، وعقدة على فتحته يفيان بالغرض. ثم يأتي دور نهر الدانوب، ويقذف فيه الكيس، خبطة ماء خفيفة وتنتهي حياة أكثر الناس شهرة وألقاً، فكيف بحياة من لا يعرفها أحد في بودابست! ولكن نظراً لتوسلاتي فقد كفّ صديقي عن تنفيذ خطته. ستبقين حيّة يا ناتاليا.

الفصل الثاني عشر

وفيه يخطو الطفل الأحمق خطوات جديدة لبلوغ هذا العالم الحزين.

بوجه مهيب فتح ضابط الصف البدين الدائري الوجه مصراعي المدخل. وصل الشابان اللذان سحبا من عربة الإسعاف الحمّالة ذات العجلات التي تمدّدت عليها ناتاليا فاقدة الوعي. لقد تردّد فوق هذه الحمالة قدر من الصلاة «أبانا الذي في السماوات...» يعادل ما يتردّد أمام المذبح. كلّ تلك النساء اللواتي خلال تسعة أشهر لم يخمّنّ خطورة حملهنّ إلّا كسماعهنّ صوت ناقوس الخطر وجلبة الشغب عن مسافة بعيدة، وتخمين وجوه الناس اليائسين. كلّ تلك النساء اللواتي ارتسمت يوم أمس على وجوههن ابتسامة فخورة كوردة براقة في أعلى نقطة من الحديقة. اللواتي درن في أرجوحة العالم الدوّارة كصور بلا إحساس لا همّ لها سوى العناية بملابسها ونظافة أحذيتها. اللواتي اقترفن خيانة الزوج، والحبيب، والخطيب: كلّ هؤلاء النسوة يتعلمن الصلاة فوق هذه العربة، لكنهنّ لا يجدن فوق رؤوسهن قديساً يجترح المعجزات، بل طبيباً مسعفاً لامبالياً يميل عليهن وهو لا يفكر إلّا بلعبةٍ توقف عنها لتوّه نتيجة مهمّته الإسعافية الآن، لا يفكر إلّا بلحظة مغادرته المشفى.

يانوش سيفرا - بطل قصتنا البريء- كان ليتخلّى عن مهنته لو أنه شاهد دخول موكب المريضة إلى المبنى، دون أن يفعل شيئاً. سرعان ما وقف أمام الموكب بكلّ حماس، بالطريقة التي ينجز بها كلّ أعماله على العموم، وأرشد الشابين المفتولي العضلات ليصعدا السلّم بناتاليا. السلالم في هذه

الشوارع قاسية كما لو أن السلطة الحكيمة تريد أن تخضع النساء البائسات هنا للتجربة: أتراهن ما زلن يمتلكن بعد شيئاً من القوة لصعود السلّم. حين يصعد المرء سلالم ساحة باكاتش القاسية يرى في مخيلته ظلالاً قاتمة، عابسة أقعت فوق حجارة الشارع، لا تملك ما يكفي من القوة لقطع الشارع الخطير، فانهدّوا قبل أن تفتك بهم أعظم أوجاع حياتهم...

حمل الشابان الخادمان ناتاليا إلى غرفة الولادة، غرفة الآهات، والشدّ على الأسنان، ومدّداها على السرير.

صارت في الغرفة امرأتان متمدّدتان تبارتا في إطلاق الصرخات والتوجعات والعذاب. استلقتا كبائستين تتذوقان مسبقاً عذابات جهنم. قبضتا متألمتين بأصابعهما المحمومتين على القضيب المستخدم فوق السرير كبحارة في سفينة محطمة متمسكين بالأحزمة. راحتا تتمطمطان كتوأمين تمارسان تحت الشمس تمارينهما الرياضية دونما انقطاع أو استراحة، منذ وجدت الأرض والناس فوقها. منذ بداية الخليقة تعرف النساء هذا الألم (الذي جعل هذه الغرفة هنا صاخبة) الذي لا يستطيع الجنس الذكوري تحمله. مثل هذه الآلام لا تتحملها سوى ملائكة، أو على الأقل من كنّ ملائكة قبل نزولهن على الأرض: النساء. كلّ ذرة من ذرات الجسد الأنثوي تتحرك وتهتزّ في هذه اللحظة، كلّ ما لديه من عظام، وأوصال يستيقظ ويسبب آلاماً، كأن هزّة أرضية صامتة تحصل داخل الجسد فتتدافع على أثرها جيوش الآلام. طيور كاسرة ذات مخالب ومناقير حادة ترفرف هنا وهناك من أنحاء الجسد، أو أفاع تحفر بأفواهها النارية أنفاقاً لنفسها داخله فتسبب عذابات لا نظير لها، موغلة في شغاف القلب. في ساعة كهذه تظنّ المرأة أن مسخاً مروّعاً يكمن في أحشائها. فهل هو عجل برأسين أو بسبع قوائم... كائن من العالم الآخر مزوّد ظهره بنتوءات طاعنة حتى نقيّ العظم، وبأرجل أخطبوطية ذات مجسات تلتصق بصخور البحر فيتعذر إخراجه إلى النور، على الرغم من أن القمر دار تسعة أشهر قمرية، وكذلك حال الشمس... ويكتب الأطباء في تقاريرهم هكذا: بدء آلام «شديدة».

هنا تصرخ النساء، وتعضّ على الأسنان، وتزبد الشفاه وينضح العرق الحارّ على الجباه، ويتلوين ألماً وليس بوسع أحد أن يجود عليهن بالعون،

كالموتى الذين يمضون في طريق الموت الذي ينشقّ متجوفاً أمامهم. ليس ألم الاحتضار في لحظة الموت بأشد من معاناة العذاب عند الولادة. ذلك الكائن الخفي الموجود فوق كلّ منا، الذي يتمتع بقدرة على العناية بالآلام الجسدية، يميل في هذه الساعة على مقربة من النساء، ويقدم وردة الألم الحمراء النارية على وجوههن، ويدير عيونهن، ويمرّر أصابعه دونما كلل فوق الجسد كأنه يعزف أفظع أنغام الحياة على أوتار قيثارة. في الأذنين قرع أجراس... صوت الجرس آتٍ من قاع مائي عميق. في الفم طعم الخلّ الذي سقوا به المخلص. في راحة اليدين أثر القفازين الناريين، الذراعان، والرجلان تثقلهما المجوهرات القدمان الآن تجرّبان صندل الموتى الصقيعي البرودة، المؤلم، الفظيع... الصدر يثقله جبل غاليرت بكلّ وزره، والجبين يخطو عليه ذلك الجندي الحديدي ذو الوجه الخفي بجزمته ذات النعل المليء بالنتوءات والمسامير. ولا يأتي أحد ليخلصها من مسوخ العالم الآخر هؤلاء. أما قابلات التوليد، وهن المخلوقات اللواتي يجترحن المعجزات، فربما يضطجعن الآن في غرفتهن متبسمات بهدوء، والأطباء يبتسمون بازدراء وسخرية من خلف نظاراتهم الكريستالية يرنّون بمباضعهم الفولاذية كمحقّقي البوليس. هنا المدى التي يقطعون بها الدماغ، وهناك الكلّاب الذي ينتزعون به القلب من جذوره، والقطن يلتمع كالثلج الذي يلقى فيه المتألم حتفه. كلّ خطوة يتردّد وقعها على الأرضية قد تأتي بالخلاص... لكن أحداً لا يأتي، صمت كصمت القبور يلفّ المبنى. لا بدّ أن الجميع قد ذهبوا ولن يعودوا إلّا بعد فوات الأوان. سيحين الموت قبل وصول العون. المصابيح في الأعلى تضيء بلا اكتراث كوجوه الراهبات ذوات الوجوه البيضاء، التي لا تترك الحياة ولا الموت أيّ أثر عليها.

حين مدّد الطبيب والقابلة ناتاليا على سرير الولادة أوصيا بتوفير الهدوء لها، ووضعا إلى جانبها على الأرض الصرة البيضاء الصغيرة التي جلبتها معها، وفيها بعض القمصان الصغيرة الزهيدة الثمن، ومنديل وعصابة رأس وردية اللون، وملابس صغيرة بائسة. بدت المرأتان اللتان تعانيان هنا منذ المساء كأن حالتهما قد استقرت، وهدأت آلامهما. فهل وصلت يا ترى رسالة الرحمة إلى غرفة التعذيب هذه؟ إحداهما تخلّت في منتصف

العبارة عن (أبانا الذي...) التي تفوّهت بها بلا انقطاع، والثانية تعثرت عند الرقم 2600 الذي خذل شفتيها المنهكتين. وبعدئذٍ انصرف كلّ من الطبيب والقابلة. أغلق الباب. سمعت من جديد عبارة (أبانا الذي...) كشكوى يائسة. أما المرأة التي ظلّت تتمكن من العدّ، فقد نطقت الأعداد في حالة من الغم والتعاسة، كما لو أنها تعدّ الدقائق المتبقية من حياتها.

ودّعت ناتاليا صديقيها الجديدين، السيد يانوش سيفرا، وشريكه. انتابتها آلام عنيفة سرت في أوصالها كالمدّ البحري. ومرّت أمامها صور حياتها مزقاً مزقاً في شريط متقطع...

في ذلك المساء، حين صرّحت لهنريك أنها تحمل طفلاً تحت قلبها: كانت الأيام الصقيعية قد جاءت، وتآكل ذهب أيلول عن أسطح المنازل، وعن المداخن التي شاهدتها ناتاليا من نافذتها. هطل المطر، وبكت المزاريب وانسكب ماؤها فوق شارع فرانك يارمياش وزوجته، واهتزّت الأغطية القرميدية، وأصدرت وقعاً كأنما كان يرمز إلى وقع خطى هنريك الذي لا يكفّ عن التطواف والترحال من دون أن يعرف لماذا، وإلى أين؟ كان هنريك شاباً بودابستيّاً نموذجيّاً، لم يستقر في البيت أبداً، فكانت تصله الرسائل إلى عنوانه في المقهى، وتعلّم فنّ الحياة، والحكمة من نُدُل المقاهي. كان دائماً يضجر في البيت، يقرأ الصحف الرياضية، وكان يحزّ في نفسه أن ناتاليا لا تفهم في الخيول، ولا في خدع ميادين السباق، ولا تهمها القصص التي يحضرها معه من المقهى، وكثيراً ما كانت تبكي حتى من شدة غيظه يخرج هنريك من جلدة رأسه.

إذن جال هنريك في المدينة كمطر الخريف.

ذات عصر جاءت السيدة ييلا، والسيجار في فمها، وبكلّ مهابة الرجولة التي تتمتع بها، ودخلت إلى ناتاليا وسألتها كيف تنظر إلى الحياة؟ عاتبتها بأن N. لا تحبّ هنريك حقّاً لأن N. لو كانت تحبّ H. لما أثقلت على الفتى الطيب بالأعباء. إن النساء المستقيمات الحقيقيات لا يتقاسمن الأعباء مع الرجال فقط، لكنهن يخفّفنها أيضاً قدر المستطاع. تكلّمت السيدة ييلا كثيراً وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويداها وراء ظهرها، وابتسامة ازدراء ظلّت مرتسمة على فمها حتى باتت كافية لفناء العالم بأسره.

– ماذا تظنين يا عزيزتي، هل تظنين أن أحداً في هذه الحياة سيقدرّك ويكنّ لك الاحترام إذا ما سقطت التنورة عن خصرك؟ طالما رأيت كثيراً من النساء البليدات، لكني لم أرَ واحدة خمولة مثلك، أبداً، أبداً. تضطجعين لأيام على الأريكة، ولا تتزحزحين عنها. كم من النساء المعدمات الجائعات في بودابست يبحثن عن لقمة عيشهن، أما أنت فتجدين أن من الأسهل انتظار هنريك المسكين لكي يتسوّل القوت اليومي من البقال، والفاكهاني، وصاحب الحانة، ويعود به إلى المنزل! قطعة خيار واحدة ثمنها عشر قطع نقدية معدنية، وأنت تلتهمين دزينة منها على الأقل.

سمعت ناتاليا متذمرة حكم المرأة المتكرّرة كلّ يوم. بدأت ترى الآن الحدّ الذي بلغه فساد الكون. بكت قريتها الصغيرة في باكوني حيث كانت في طفولتها تمشي حافية، وتدندن الأنغام التي سمعتها من راعي الإوز. كم كانت عيون البشر هناك مختلفة عن عيون أهالي بودابست! حتى إنها كانت أكثر سعادة في بودا العتيقة، مما كانت عليه في هذا البيت الذي تطوف فيه النساء بصنادلهن وهن يردّدن الأغاني، ويطلعن أنصاف عاريات عبر شباك الممرّ المعدني يشاهدن الشبان التائهين يقتعدون عتبة المطبخ، وشعورهم تغطي عيونهم، وينتعلون الأحذية البيضاء الصيفية حتى مع قدوم الطقس الصقيعي، ولا ينهضون على أقدامهم إلّا إذا قام الكلب بمطاردة القطة في الفناء، فيهتفون بالتشجيع.

وعند المساء حين كانت تفكر طوال اليوم أن تذهب إلى باكوني بحثاً عن عمل، وعن بعض معارفها القدماء: السيد بورش الذي لا يكفّ جرس حانوته عن الرنين طوال اليوم، وتقصده النساء والفتيات بوجوه جرّحها الصقيع، وبالمناديل الرمادية، ويرجعن من هناك ببعض الثرثرات والمصابيح. ما أطيب رائحة الزنجبيل والفلفل الأحمر الذي يجلبنه. ما أروع فوانيس النفط التي تنير منازل أهالي القرية والتي تقصّ النساء العجائز على أضوائها حكاياتهن الشيقة التي تلتقط الأنفاس. أما أذكياء القرية فكانوا يقومون بتفسير الأحلام، ويبتكرون الأقاصيص، وكان المرضى ينهضون من أسرّة مرضهم إذا ما عبرت القرية عربة غريبة، مع كلب غريب. لقد صرّحت لهنريك ذات مساء بالسرّ الذي تكتّمت عليه. ركب الغضب هنريك، ولم

تستطع أن تنسى وجهه الذاهل المتجهّم قط، وهو يتناول قبعته ويضعها على رأسه ويخرج قاصداً بالاتسكي ملتمساً نصيحته في المسألة المعقدة.

جاء الصباح ولم يعد هنريك.

وفي مرة أخرى أيضاً كان الليل طويلاً غير محتمل في هذا البيت، لكن هنريك كان هنا يتصفح المجلة الرياضية، ويكتب ملاحظاته، ويدخن، ويبني قلاعاً وهمية. أما الآن فقد جلست ناتاليا المسكينة، وحيدة عند النافذة طوال الليل، سارحة فوق أسطح البيوت في الظلمة البهيمية. وكلّما استغرقت في شرودها، وتفكيرها رجعت إلى وعيها مذعورة لسماع بكاء طفل تناهى من مكان ما في البعيد. كان الطفل يبكي أمام البيت تارة، وضمن البيت تارة أخرى، وفي الغرفة المجاورة تارة ثالثة. كانت تتخيل وجهه المرتعد وفمه الفاغر، وكيف يحبو، ويحاول المشي على قدميه الصغيرتين... ركزت انتباهها: لم تسمع البكاء. كانت الريح هي التي تنتحب بين فروع شجرة السمّاق التي في ذلك الوقت ما تزال منتصبة في شارع فرانك يارمياش وزوجته. كانت الشجرة الوحيدة التي سمقت حتى الطابق الأول، ومالت بأوراقها الحمراء المجرّحة بالصقيع كما لو أن امرأة عجوز بائسة تحاول دسّ وجهها التعيس في الباب. كانت الشجرة الوحيدة في الشارع التي تبتهج للريح، فتهزّ لها فروعها على الأقل بترحاب.

بزغ الفجر. كان يمكن التعرف على بزوغه بمنتهى التيقن من الشجار الذي لا يتوقف بين عناصر الفرقة الموسيقية الغجرية بعد كأس البالينكا الخامسة عشرة في الحانة عند ناصية الشارع.

بدأ زبائن الحانة عند الفجر زئيرهم الوحشي فيذكّرون بوحوش البراري، كما لو أنهم ليسوا أولئك الذين عزفوا نفسهم - قبل قليل في قاعات الموسيقا، وفي صالات الحدائق الشتائية وراء الستائر المخملية السميكة- رقصات الڤالس، والموسيقا الزنجية، وأغاني المغنية اللندنية النحيلة الساقين، وأنغام التشارداش المجرية، والأغاني الراقصة التي على وقعها سيغدو أفضل الرجال مغرمين بتلك النساء اللواتي يخجلون من التعرف عليهن في النهار. كلّ الذين كانوا في حانة البالينكا هذه من

موسيقيين، وفتيات متعة، ونُدل ليليين، وحوذيين كبار السنّ يعملون في نقل المنتحرين: كلّ أولئك أكثروا من الكلام السريع كأنهم بعد الآن سيعجزون عن التفوّه بكلمة، ولن يتسنّى لهم اللقاء معاً، لا هنا، ولا في العالم الآخر. لم يدر في خلد زوار الفجر هؤلاء أن أحداً قد يحبّهم بعد الآن. هذا صحيح، ولكنّ أيّاً منهم لم يحمل معه سمّاعة ضربات القلب كالأطباء. أرجحوا أرجلهم عن البراميل التي يقتعدونها، وتنهدوا في بعض الأحيان، ثم سرعان ما دفعوا بتنهداتهم في حلوقهم مع حركات البالينكا. هم كانوا أولئك الناس المترنّحين ذوي الأنفاس الحارة، والأعين الملتهبة، والوجوه الحمراء، الذين سيودي تساقط الثلج بحياتهم حتماً ذات فجر، وهم يتمايلون في طريقهم إلى بيوتهم. وكان في هذه الحانة أيضاً نساء متهدّلات الأثداء، وفتيات منكوشات الشعر، وشبان عابسون، وشيوخ على حافة قبورهم، كأنما جميعاً ينتظرون باستسلام الموت المخلّص. وكان من الغريب والنادر أن يصعد سائق عربة لا هيئة له، محمرّ الوجه، يعتمر قبعة إلى عربته وهو يشتم، وينطلق لا يعلم الله إلى أين.

تسرّب الضباب إلى الشارع الذي حوّل العابرين إلى ظلال تمشي - كأن سكان مدينة أخرى غريبة يتوافدون إلى بودابست ليلاً - سئمت المصابيح إنارة الشارع، ورحلت بعيداً عن مواضعها المعتادة، وقرقع حنطور بوقع رتيب، لا بدّ أنه في طريقه من هنا إلى المقبرة، يرافقه غناء امرأة ثملة قادم من العالم الآخر.

في الشارع في الأسفل تحدث في الضباب امرأة ورجل غير مرئيين. ومع أن صوتهما جاء من بعيد، غير أن ناتاليا قد تعرفت عليهما: روجي كيشفوفرش، وبالاتسكي، هما من تحدثا في الأسفل. كان بالاتسكي يوسوس في صدر الفتاة بأن تتخلّى عن سجنها وتهرب معه. «إلى أين؟». «سنرى فيما بعد؟». شرح لها بالاتسكي خطة هربها، بحيث لن يلحظ ذلك أحد في المنزل. ينبغي الاعتراف بأن بالاتسكي كان شخصاً حاذقاً. كان يتقن عمله كأنه طوال حياته لم يفعل شيئاً سوى تهريب النساء. أشرك بالاتسكي في عملية الهروب شجرة السماق التي على روجي كيشفوفرش التزحلق عليها من الطابق العلوي. بعد أن تحزم في صرّة ما لديها من ثياب، وقبعات،

وصور، وريش زينة، ومتاع عروس تجمّعها منذ سنوات. ستلقي بالصرة إلى الشارع. «الضباب مناسب جدّاً» - قال بالاتسكي.

وبالفعل حصل كلّ شيء كما خطط له بالاتسكي. طارت الصرّة هابطة من نافذة الطابق. «لا تهرب!»- قالت روجي كيشفوفرش لبالاتسكي وهي في الأعلى. ثم خشخشت شجرة السماق وتشبثت الهاربة بأغصانها جيداً عابرة عتبة النافذة. اقترب أحدهم من النهاية العليا للشارع، فأخذ بالاتسكي يطلق الشتائم لاعباً دور الثمل. بلغت الفتاة أرض الشارع بنجاح، ثم التقطها بالاتسكي بذراعها، وغادر إلى الأبد شارع فرانك يارمياش وزوجته. كلّ ما فعلته بيلا في اليوم التالي هو اللعنات التي وجهتها لبالاتسكي وشجرة السماق الخرساء المتواطئة معه.

ولكن قبل أن تنتهي إلى الأبد مغامرات شجرة السماق التي أكلتها النيران في الشتاء الوشيك، كان لها عمل آخر تقوم به بعد. بعد هروب روجي كيشفوفرش، كان على الشجرة أن تساعد ناتاليا في الهبوط إلى الأرض. كانت ناتاليا حرة طليقة. حين امتصّ الصباح الضباب، شاهدت السلاسل الجبلية المزرقة الممتدة وراء بودا العتيقة، وكأن الأحلام والرؤى المتخيلة عن بست وبودا قد هربت، وتخفّت في الجبال لتتابع هناك حياتها البعيدة عن إسفلت الشوارع البستيّة. أين لناتاليا أن تذهب إن لم تهرب إلى الغابة، إلى الجبال حيث يتبع الإنسان الجريح المتواري عن الأنظار طريق الطيور البرية، والوعول؟ سارت طوال اليوم حتى أنهكت رجلاها. لم تكن تعرف المنطقة، لكنها أملت أن ترحّب بها الأشجار، وتخاطبها الأغصان والأجمات، ويضحك لها من بعيد برج ذو سقف أحمر يشعّ لها بالأمل، من مسقط رأسها في القرية، وأن تلتقي بالكلاب التي تعرفها وتهرّ لها هازّة أذيالها. خنادق، أسيجة، آبار سترحّب بها، وتحتمل شكواها. وسيحيّيها هناك حتى الشحاذ الأعمى. ولا بدّ أن المرأة النبيلة العجوز ماريا راديتش تقف الآن أمام منزلها بمنتوج شجر التنوب. تراقب الطريق بانتظار أحدهم منذ ثلاثين عاماً. وحتى لو وصلت إلى مسقط رأسها بعد حلول الظلام، فإنها ستتعرف على المكان إن ليس بعلامة أخرى، فعن طريق صوت الجرس الرنّان في حانوت العم كارابيوش.

كم تصوّرت، في طوافها لأيام عديدة، قريتها الصغيرة في باكوني رائعة وجذابة! كأرض الميعاد. كبرج الأحلام، كقلعة أسطورية، هكذا لوّح لها الأمل، ممنّياً إيّاها بأنها في الساعات القادمة سوف تلمح ديكة الرياح على سطح القصر القديم. الآن لم تعد تتذكر أين تسير، ولا كيف تتجه... كيف وصلت إلى أماكن مأهولة... لم تعرف من الجغرافيا إلّا ما تعلّمته في مدرسة القرية، وهذه المنطقة الريفية لا يعرفها إلّا الخبير، المولود، والمترعرع في هذه القفار... هذه الأيام خريفية مشمسة باردة، جافة، الرياح أنفاس امرأة شمطاء تحفّ بين فروع الأشجار، أكتاف الجبال ذات ألوان كملابس النساء الثريات في بست، غرقت أرواح موتى قرى المنطقة في نقاوة المياه العميقة، سارت فتاة قروية فارعة الطول تغني وبيدها إبريق لملء الماء، طار لعاب الشمس على الطريق العام، الحقول هادئة وفي سكينة تجعل كلّ حزين متصالحاً مع حياته. انسلّت للتوّ الحوريات مبتعدة من الغابة تاركة أوشحتها عالقة في الأدغال، ومنذ قليل شرب عندليب من النبع. حلّ الظلام ساعياً في الوديان كعجوز بشعرها الكثيف... ثم بزغ القمر، وخيّم براحته النحاسية فوق الغابات الحالمة، والوديان المردّدة للصدى.

سارت ناتاليا إلى جانب أكواخ الغابة الصغيرة، التي أضاء لهب النار منها كالمحبّة، واستراحت أسفل الصلبان الحجرية، وتماثيل المسيح الرصاصية، والكنائس الصغيرة ونَبَعَ قلبها بالصلاة والتقوى، كما لم يحدث في حياتها قط. تتبعتها تماثيل المسيح بحزن حتى غابت. أقيمت طريق الجلجلة في جوار القرى المتدينة في سفح الجبل، وأزهرت بالقرب منها أزهار الأورغونا الزرقاء الغامقة حتى في الخريف، قائلة لها إن على أيّ منا أن يعبر طريق جلجلته حتى النهاية.

صادفت ناتاليا في تجوالها الرجل القنفذ - لقد نسي هذا السيد العجوز اسمه الحقيقي، وربما لم يعرف اسمه قط - ساعدها في جمع الحطب للشتاء. «الأمطار الخريفية توشك أن تأتي، وعندئذٍ يتعذر مغادرة البيت» - قال لها الرجل الضئيل الوحيد الذي لأسباب قاهرة غريبة أقام في بيت صغير صيفي أصفر مصاريعه خضراء في طرف الغابة، بين أشجار التفاح، وعنب الثعلب، وخمائل الخمّان المثمرة. من يدري كيف جاء العجوز إلى

حياة العزلة، من كان قبل ذلك، وماذا كان يعمل قبل أن يجيء إلى هذا البيت الصيفي الأصفر حيث ربما كانت فتيات شابات ورجال يقيمون قربه أعياد أيّار الربيعية، ومن كان وحيداً من دون شريك، كان يلهو بإطلاق الصواريخ في الليلة الصيفية المتلألئة بالنجوم. ما يزال عمود إطلاق الصواريخ برأسه الفاحم في موضعه، لكن هذا العجوز لم يخطر بباله أن يطلق صاروخاً قط. كلّ ما كان يعمله هو أن يقوم بنقع مختلف أغطية الطاولات بالماء البارد ويضعها كمّادات فوق قلبه، وإن عثر على خرقة في مكان ما، كان يضعها في صيدليته. وما عدا ذلك فكان على الدوام يجمع الخشب، والأغصان اليابسة، وجذوع الأشجار ساعياً بها إلى كوخه كما يسعى النمل.

كانت ناتاليا تساعده كثيراً في عمله لأنها في صباها كانت تجيد تسلّق أعلى شجرة، وتقوم بنشر الأغصان اليابسة. حين بدأت الشمس تغرب أغلقا الباب وخلد العجوز إلى النوم باكراً، وشكا من ضعف بصره، فلا يتمكن من قضاء وقته بالقراءة أيضاً. وقال لها أيضاً إن من عادته أن يمضي الشتاء بمراجعة حياته عاماً بعد عام. كانت هذه المراجعة أحياناً تتطلّب منه أسبوعين كاملين من التفكير في عام فائت ظلّ منذ مدة طويلة معلقاً بمسمار في العلّيّة حيث تجفّ حقيبة الصيد القديمة. كان العجوز يرتدي ثياباً عمرها ثلاثون أو أربعون عاماً، ويمشي على الدوام حاملاً عصاه في مسار مستقيم كما لو أنه يتقدم على سكة حديدية. وقال لها مرة إنه في شبابه هو من بنى سكة الحديد الحدودية، وكان دخله كبيراً هو وعمّاله الذين أقاموا في الهواء الطلق، وفي يوم السبت كان يذهب إلى المركز ويجترع كميات كبيرة من الكحول مع المهندسين. كانت حياة مرحة! لن يعود مجدّداً ذلك الزمان حين كنا نغني حتى الصباح. مثلاً أغنية: «لا، لا، لا! لن نرحل من هنا...». وخلال سرده لذكريات حياته لم يبدّل العجوز من نبرة صوته. تكلّم بلا تكلّف، وعلى وتيرة صوتية ثابتة لا تتصاعد أو تنحدر ككل أولئك البشر الذين توحّدوا مع العزلة، ونسوا عادة صحبة الآخرين. خلال هذه الحكايات جلست ناتاليا مقرفصة أمام النار في الغرفة المعتمة، تنظر إلى اللهب، والجمار التي تترمد، وفكرت هي أيضاً في حياتها القصيرة. وفي هذه الأثناء لو خطر للعجوز أن يسأل ناتاليا عن حياتها، لسردت درسها

تلقائياً بلا تفكير. لكن العم فيري لم يسألها حتى من أين جاءت. اعتبر لقاءه بها مصادفة في الغابة أمراً طبيعياً.

وباكراً ذات صباح تناهى من الخارج صوت هطول مطر خريفي مدرار، فغطّى الضباب النافذة، وصعدت أسراب كثيفة من الذباب لتغطي حتى سقف الغرفة. تعذّرت رؤية الغابة من الضباب والمطر. تدحرجت الحجارة على الطريق المنحدر، وملأت ثمار الخمّان الفناء، وتبدلت أشكال الأشجار والغصون والأدخنة التي تصاعدت من المدخنة، وصدح بطريقة أخرى الكمان الذي يعزف عليه العم فيري عصر كلّ يوم.

قالت ناتاليا إنها سترحل عن البيت لأنها لا تحتمل القمل.

أخرج العم فيري من مخبأ ما عشرة فورنتات ورقية، وضغطها بيد ناتاليا: «كنت أعلم أن اليوم الأسود آتٍ» - غمغم وهو يحدّق إلى الحديقة.

وصلت ناتاليا مساء إلى قريتها بالقطار. ساقت الريح الغيوم، وتوقف المطر في مكان ما كحصان مرهق. عبرت ناتاليا موقف القطار وسارت خائفة على طريق المشاة. خطر لها الآن أنها يتيمة ليس لها في القرية أحد تطرق بابه. عادت إذن إلى المقبرة القائمة بين موقف القطار والقرية، وكأن الموت لحق خلال الطريق بالقرويين حين أرادوا لتوّهم السفر بالقطار هروباً من هوله.

كانت هذه المقبرة كغيرها من مقابر القرى. صفصاف حزين، أشجار أكاسيا، أشجار سماق قامت بتسلية الموتى تحت الثرى بتنهداتها وولولاتها. تأرجح الغراب في الريح ناعقاً. انتصبت الأعشاب فوق الأضرحة الترابية كأن الأموات يطلقون زفيرهم الشديد من الأسفل. في البعيد داخل المقبرة راح أحدهم يركض من أمام خطوات الإنسان الحيّ. لعلّه محتال لم يتمكن من الوصول إلى باكوني في الوقت المناسب، ويقضي ليلته هنا. أو لعلّه غروستر الحذّاء الذي رحل من القرية منذ طفولة ناتاليا وتجلّى الآن على هيئة شبح، يتجول بكفنه الأبيض على أطراف المقبرة المسيجة، ينادي المارّة ويطلب نقوداً من أجل كأس من البالينكا، لأنه يشعر بحرقة في معدته، على حدّ تعبيره.

توقفت ناتاليا أمام الشواهد الخشبية، وراحت تقرأ على ضوء الغروب

الخادع أسماء الموتى. وبالطبع عرفت تقريباً كلّ من يرقد في هذه المقبرة. أرجحت الريح الغصون، فاهتزّت معها ظلال الصلبان الخشبية كأنما ترحّب بناتاليا احتفاءً بعودتها بعد غيابها الطويل. العجوز ليبكاي (عاش 65 عاماً) مجنون مثلما كان في حياته كلما وقعت عيناه على ابنته. بال موزر صاحب المطعم القديم - المعروف بأنه بعد موته طاف مؤخراً بين زبائنه وصافحهم واحداً واحداً- خشخش بمفاتيحه، أو ربما عظامه هي التي خشخشت في الأسفل. صفقت الريح أوراق شجرة الكستناء البرية وأطاحت بها أرضاً كما لو أن طائر العيسوق سقط من الأعلى على الضريح الترابي للعجوز مورڤاي صاحب الزوجات الثلاث في حياته، والذي زفّ زوجته الرابعة وهو على سرير الموت، يولول كأن الشيطان يشدّه من شعره. هنا يرقد كلّ أولئك الأشخاص الميسورين الذين لفتوا انتباه القرية حتى عندما تزوجوا، واقترضوا لحفل زفافهم المال من مصرف مدينة فيسبريم، ورقصوا وفتلوا شواربهم المقسّاة. ولفتوا الانتباه أيضاً وهم يحتضرون عندما طلبوا من أقربائهم الفاغري الأفواه أن يدفنوهم وهم في توابيت من خشب السنديان، ويغطوا وجوههم بأغطية حريرية. خلّفوا وراءهم اسماً، وأعواماً عاشوها. والآن يقيم آخرون في منازلهم، ويختبئ في جزماتهم متشرد جوال على الطريق العام.

تنقّلت ناتاليا من قبر إلى آخر. خشخشت أوراق الأكاسيا تحت قدميها. كان يمكن من بين الأغصان رؤية الطريق المؤدي إلى القرية حيث الأشباح تؤرجح عند منتصف الليل سيقانها النحيلة الطويلة. خيّمت الدكنة على القبور تحت الأغصان التي بخّت المطر والعتمة. لم تخف ناتاليا في المقبرة المهجورة. كما لو أنها طافت في قريتها، مسقط رأسها، ومرتعها في فترة الطفولة. الجدّ يانوش راديتش الذي أطلقوا عليه لقب «ذو البطن الأحمر»، ما يزال يمطّي رجليه من القبر حيث يرقد بطمأنينة.

هكذا وصلت إلى نهاية القبور المجهولة الأسماء. كانوا قد انتزعوا شواهدها الخشبية حطباً للتدفئة، وجفّت الأعشاب، وولولت الريح بوقعها الرتيب، ودكنت حفر الأتربة والثقوب التي تتقطّر مياه المطر عبرها. جلست ناتاليا على قبر مجهول، ودفنت رأسها براحتيها، وامتلأت عيناها بالدمع، جلست طويلاً مستغرقة في الشرود والتأمل - إنها اللحظات العجيبة للحياة

حين تتحرّر الروح من ثقل الأفكار اليومية، وتبدأ الأعين ترى إلى مسافات بعيدة، إلى الماضي البعيد الذي لا تتذكره في حالات أخرى... رأت ناتاليا نفسها، البنت الصغيرة الحافية بشعرها الشيطاني ذي الزهرة البرية، البنت التي وقفت ذات يوم قرب هذا الضريح نفسه. قالوا لها إن أمّها ترقد هنا- فهي إذن ظلّت تلعب في المقبرة طوال اليوم بالقرب من أمّها. تذكرت الآن أن أمّها كانت تناديها بصوت خافت طريّ في بعض الأحيان، عند وقت العصر حين تشتد الرياح الخريفية ولا يتجول أحد في المقبرة. «ابنتي الحلوة الغالية!»- هدهدها الصوت الدافئ، وكانت آنذاك في منتهى السعادة. تمدّدت على الأرض، وألقت بأذنها على التربة لتسمع عن قرب الصوت المنبعث من تحت الأرض. كان الصوت يقول برقة لامتناهية: «ابنتي الحلوة الغالية!». أحدهم مسح على شعرها، ووجهها... إنها الريح... أحدهم عانقها، وقبّلها... واستمر الصوت يهمس لها بمزيد من الرقة والحنان: «ابنتي الحلوة الغالية!». وحين شبّت ناتاليا، كانت تذهب إلى آخر القرية لتسمع تكتكات آلة خياطة. قال لها أحدهم إن آلة الخياطة كانت ذات يوم لأمها. وفي مرات أخرى كانت تقتعد سطح البيت مصغية إلى البعيد فيتناهى إلى سمعها صوت طري رقيق ممتزجاً بتكتكات آلة الخياطة: «ابنتي الحلوة الغالية!».

انسابت الآن الدموع فوق وجهها الحزين، وضمّت كفيها وصلّت متضرعة عسى أن تسمع من جديد هذا الصوت المنقذ، المخلص العزيز الذي طار منها مبتعداً كالحلم.

وفيما كانت جالسة بكلّ هدوء سمعت الصوت القديم ينبعث قربها أو في داخلها: «ابنتي الحلوة الغالية!».

كان صوتاً جعل الدفء والروعة والنشوة تسري إلى قلبها. فتحت عينيها فجأة. كانت الظلمة تحيط بها من كلّ جانب، وليس ثمة سوى همس الأشجار الخريفية، وحفيفها في المقبرة. تكرّر الصوت كالضباب والرماد منبعثاً من القبر: «ابنتي الحلوة الغالية!».

جثت ناتاليا ونظرت نحو القبر. اخترقت عيناها الأرض عابرة التربة والظلمة، ورأت أمّها في الأسفل.

لم تكن قد رأت أمّها مطلقاً، لكنها الآن قد عرفتها تحت التراب. كانت بثياب بيضاء، وكان وجهها وديعاً كمريم العذراء القروية. أضاء جبينها، كأن ضوء النجوم ينساب على شعرها البنيّ، ووجهها الشاحب، وكتفيها الهزيلتين. جلست في القبر تهدهد طفلة صغيرة بيديها. هدهدتها بحنان، وربما كانت تحكي لها حكاية؛ ضمّتها بكلتا يديها تريد أن تجعلها تنام... حلّ المساء، وحان وقت نوم الصغيرة.

ورأت الآن ما في داخل القبور المجاورة أيضاً. من الجهة اليمنى رأت شيخاً ضخم الشاربين يضطجع مستنداً على مرفقيه، يرمق بعينين جادتين واسعتين الصغيرة التي تهدهدها الأم. كان بسروال فضفاض، وقميص أزرق، اضطجع بطمأنينة كأنه إلى جانب نار الراعي.

وفي الجهة اليسرى استلقت امرأة بثوب حريري أسود، لكنها قد تكون صارت امرأة عجوزاً متقدمة في السنّ، لأنها عجزت عن رفع رأسها، كانت بعينيها تسمع ما يحدث في القبر المجاور فقط. كانت يداها معقودتين على صدرها، تصلي في الأبدية. كان شعرها رماديّاً تحت عصابة رأسها القنّبية.

لكن ناتاليا لم تستطع رؤية أيّ شيء آخر في العمق سوى أمها التي تهدهدها وتهزّها بابتسامة وديعة، على نحو أحلى من الحليب، وأرخم من الأغنية، وأهدأ من النسيم: هدهدتها حيناً، وأنامتها حيناً آخر من دون أن تحرك فمها: «ابنتي الحلوة، الغالية!».

لاح ظلّ رمادي بين الأشجار، وظهر فجأة نور قمر عريض الشدق على الطريق حيث اعتاد الأموات أن يتنزهوا، وراح يرمق المقبرة من بين الأغصان. تلاشت الأشكال السفلية لمجرد ظهور نور القمر، كما لو أنها هبطت إلى مسافات أعمق، وانغلقت أضرحة القبور. كان نور القمر أحمر في هذا المساء، وبقدومه صدحت الرياح الجنوبية تعبر فروع الشجر.

رسمت ناتاليا الصليب مذعورة. منذ أن لمحت الطفل بين ذراعي أمّها في حفرة القبر في الأسفل، ازداد شعورها بكونها أمّاً عمّا قبل. أحسّت بشيء ما يعتصر قلبها، وظلّت ترتعش طوال المساء. وجعٌ متّقد كما لو أن حديداً حامياً مسّ فؤادها. إنه طفلها القادم، جنينها الذي تهزّه أمّها مهدهدة. ارتعدت

وحدّقت إلى القمر، فرأت أيضاً أطفالاً في القرص القمري. رأت رؤوساً صغيرة معصوبة اصطفت هامدة همود الأموات بعضها إلى جانب بعض. أحاط بها الأموات من كلّ جانب. اضطجع موتى تحت الأرض، وخيّم ضوء القمر الميت هامداً بلا حراك فوق الأرض الميتة. وكان كلّ هؤلاء الأموات يمدّون أيديهم دفعة واحدة نحوها، ونحو طفلها، لكي يختطفوه منها، ويمضوا به معهم إلى العالم الآخر. انهارت من الذعر، والاصطراع اللذين سبّبتهما الأيادي الخفيّة لها. فأحسّت بمحبّة لا حدود لها نحو الطفل المجهول الصغير الذي أرادوا اختطافه منها، حتى قبل أن يصبح ملكاً لها. غمرتها هذه المحبّة الشاسعة كالبحر. ضغطت يديها على قلبها. دندن في حلقها صوت مبتهج خاشع، وكأنها تنادي من عاشت حتى الآن لأجله، ومن بدأت فجأة تنتظر قدومه. كأنه صار على العتبة. غمرتها تلك المحبّة الأمومية السماوية الغامضة العجيبة التي لا تحسّ بها سوى النساء كتعويض عن كلّ ما كابدنه من قبل. لا يمكن أن تحبّ أحداً كهذا الصغير المجهول الذي رأته حتى لو في عمق القبر. لم تفكر، ولم تستطع أن تواسي نفسها، بأن أمها قد استيقظت من نومها في القبر العميق، لكي تهزّ طفل ابنتها وتهدهده فقط، لم تستطع أن تبتهج لحضور أبيها الميت الذي سيعود من العالم الآخر لدقيقة واحدة مع حارسَيْه - الرجل المسنّ، والمرأة المسنّة- لكي يحيّي حفيده، وابنته.

لم تستطع إلّا الخوف على الطفل المجهول الصغير... انفطر قلبها قلقاً من أن الطفل المجهول أيضاً سوف يموت ذات يوم، ويغدو تحت التراب... لم تفكر في نفسها، ولا موتها هي. لم تخف إلّا على الأعجوبة المستقبلية الصغيرة التي تهدّدها هذه الأشجار الجهمة المتحركة الأذرع، ويهدّدها هؤلاء الموتى الذين يختلسون النظر بدهاء ومكر وهم في أعماق القبور. أزّت الرياح، وصفّرت حول رأسها، وأصغت مجدّداً إلى ذلك الصوت الدافئ: «ابنتي الحلوة، الغالية!»...

- لا، لا! - صرخت ناتاليا باكية بيأس. غرفت حفنة من الأغصان الجافة، وضغطتها على قلبها كأنها بذلك أرادت أن تنقذ طفلها من عالم القبور البارد الرهيب.

ومنذ ذلك اليوم بدأت تحبّ ابنها القادم أكثر من حياتها.

ما إن بلغت الشارع العام المغمور بضوء القمر، حتى عرفت أين هي، وأيّة وجهة تتّخذ.

كان لها قريب في القرية نادراً ما رأته حتى في طفولتها. كان قريبها هذا يدعى العم إغناتس، وكان معروفاً عنه بأنه جوّاب آفاق لا ينقطع عن التجوال طوال حياته. كانت أم ناتاليا أختاً لإغناتس هذا، ولم يأتِ إغناتس إلى مأتم أخته قادماً من الترحال إلّا بعد نصف عام. كان دائم السفر... قال إنه سيزور أقاربه فعاد سيراً على الأقدام، وقد طالت لحيته. كان قدّه ضئيلاً، يكاد لا يكون له ظلّ على الأسيجة، وجدران البيوت. انجرف جرفاً إلى الأمام كورقة شجر يابسة داكنة، ولم يخشَ الليل، ولا العاصفة، ولا أعماق الغابات. كانت مهنته الأصلية حذّاءً، لكنه لم يمارس هذه المهنة في قريته بسبب والده الذي كان يوماً تاجراً ثريّاً في المنطقة.

وكأن أحداً في المقبرة وشى لناتاليا أيّ باب تقرع. دقّت باب المنزل الأشبه بمصيدة فئران، ولكن إغناتس- كأنما قد أبلغ مسبقاً من قبل أحد الأموات السريعي العدو - لم يبدُ عليه الاستغراب حين رأى ناتاليا. «اجلسي»- قال لها.

كان بيتاً صغيراً متواضعاً، وأكثر تواضعاً من أيّ شيء، لكن له أربعة جدران، وسقف. كان القمر لحسن الحظ مضيئاً، فلم يتحتّم الإنارة. جلسا على العتبة، وتحدّث إغناتس عن ترحالاته. عاد إلى المنزل في الأسبوع الفائت كأنه أحس بقدوم ضيفٍ إليه. قصّ لناتاليا أن قطاع الطرق في غيابه سرقوا منزله، واقتحموا سردابه، لكن ناتاليا كانت تعلم أن إغناتس لم يكن يملك شيئاً. ولم يكن يريد شيئاً سوى سقف يأوي تحته.

- كنتِ عند ماري؟ - سألها إغناتس.

(ماري هو اسم أم الفتاة).

- جئت من هناك - أجابت ناتاليا.

- هل أوصت بشيء؟

- أوصت بتأمينك لي مأوى.

هزّ إغناتس رأسه الأشعث المعتوه، وتابع الحديث عن ترحالاته. أراد أن

مكتبة
t.me/soramnqraa

يوصل فكرة عدم استحقاقه ما آل إليه من مصير. ابتدع شخصيات مجهولة لم تشاهد قط لإثبات بؤسه. لكن ناتاليا لم تعد تسمعه. كانت سعيدة برؤية السياج المتهدّم في بعض الأماكن الذي لم يستولِ عليه الجيران وينقلوه معهم، لأن باكوني كانت أكثر قرباً بالنسبة إليهم فقط.

سرّت بالمبيت الصغير الذي كانت مدخنته صغيرة كأنها تخجل من نفسها. كان المدخل مربوطاً بنبات الهليون، وكادت ناتاليا تزعق من السعادة حين لمحت قنفذاً يخرج خلسةً من البيت. «جلبته من سفراتي» - غمغم إغناتس. كانت النافذة ملصقة بالأوراق، ومع ذلك لم يمنع ناتاليا من رؤية شجرة تنتصب كشبح. كان الفجر بارداً رطباً، بحيث نهض إغناتس على قدميه قائلاً: هذا هو الوقت المناسب للسفر بين الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر، والبندق، هو الوقت المناسب لاعتمار قبعة مشكول عليها وردة الثلج، والطواف عند قدوم الصباح في شوارع المهن الصغيرة العتيقة المرصوفة بالحجارة، ورؤية الأبراج الحمراء، ومعرفة الوقت من واجهة حانوت الساعاتي... وتأهّب من فوره للمضيّ في طريقه إلى بوبرادفالكا حيث يقيم أحد أقاربه هناك. قريبه هو، لا قريب ناتاليا.

لكن إغناتس كفّ عن زيارة قريبه، وترقّب باهتمام كبير إن كانت حالة البيت وما حوله ستتبدل على يدي ناتاليا الماهرتين.

وفي حوالي الظهيرة غطّ عصفورا قرقف صغيران مزركشان على شجرة يابسة، وراحا يزقزقان، ويطلقان أنغاماً كموسيقيين جوالين. انفطر قلب ناتاليا لسماع زقزقة العصفورين كأنما غدت طفلة مرة أخرى، في حين أطرق إغناتس رأسه بعبوس قائلاً: إنه موعد قدوم الشتاء، والقراقف بدأت تخرج من باكوني.

والأيام الآتية أيضاً كانت أيّام السعادة في حياة ناتاليا. الإنسان يسعد حقّاً إذا ما استرجع فترة طفولته مهما كانت حزينة وبائسة في السابق.

أول الأمر لم تجرؤ الفتاة التي وجدت موطنها أن تعاين العالم إلّا من خلال فتحة الباب. تعرفت بالتتالي على البيوت التي كانت شديدة الضخامة آنذاك، وكانت هي صغيرة لا تصل إلى حدّ نوافذها. كان شجرة التنّوب ما

تزال منتصبة في الركن، لكن ما أصغر ما صارت عليه الآن. صليب البرج كذلك بات أقرب إلى الأرض. حتى القصر الذي أمضت فيه طفولتها تقلّص كشجرة التفاح البرية. تبيّن لها الآن أن المصاريع الخضراء في القصر ليست بذاك الكبر، وأن المدخل لا يتسع إلّا بمشقة لعربة فحم واحدة لا غير. ودّت الآن لو تعرف ماذا في داخل تلك الغرف حيث استمعت مع الكونتيسه في أثناء الشتاء لفرقعة المواقد الكبيرة، ولرنين الأجراس عند الظهيرة. لكن لا بأس. كانت ناتاليا سعيدة. كانت باكوني ما تزال باهتة في البعيد كأن شيئاً لم يحدث منذ كانت ناتاليا تمشي حافية. وكذلك الدخان الذي كان يتصاعد من عمق الغابة في فترة طفولتها، ما يزال معلّقاً هناك كأن قطاع الطرق أشعلوا ناراً في الغابة ونسوها مشتعلة منذ ذلك الوقت. العجوز فانتي سار ملاصقاً لجدران المنازل كأنه أضاع شيئاً - بنظر القرويين أضاع عقله- إلّا أن وجهه صار أبيض كالورقة. طيري، طيري يا سنونوة الطفولة. إزّي يا باكوني، وتعالي أيّتها الغيمة كما لو أن شيئاً لم يحدث منذ كانت ناتاليا هنا للمرة الأخيرة، ابقي أيّتها الأيام، توقفي أيّتها الليالي المقمرة، لا تسرعي هكذا أيّتها الساعة العجوز في البرج ذي الخوذة الحمراء، صيحي طويلاً في الأفنية أيّتها الديكة، وليمتنع جميع من في القرية عن الموت! هيّا أيّتها النساء البسن أزياءكنّ القروية، ويا أيّها الرجال أخرجوا من العلّية شواربكم السوداء، وملامحكم الصارمة، ولحاكم المرتجّة، ويا أيّها الأطفال ردّدوا في ساحة الكنيسة أغانيكم القديمة، ويا يتيم الرب، يا مجنون القرية، يا ميكولاش املأ قبعتك بريش الديكة، تأرجحي أيّتها الرياح، وادخلي يا عربة الأحصنة الأربعة مقرقعة عبر مدخل القصر الطويل المردّد للصدى مثلما فعلتم سابقاً حين كانت ناتاليا طفلة.

الفصل الثالث عشر

وفيه ينال بطلنا جائزة النساء، لكنه يخسر أعزّ ما كان لديه منذ أن تمتّع بالإدراك. وبعد هذه الخسارة التي لا تعوض، لم يعد هناك من مغزى لمتابعة القصة.

صاحت الديكة في حديقة مشفى التوليد تواسي البائسات واللواتي يعانين من العذاب، معلنة نهاية الليل المؤلم الطويل. عند انبلاج الضوء تخفّ الآلام مع وصول نجمة الصبح والرياح، وتكفّ الأوجاع التالية أن تبدو بمثل تلك الفظاعة. طالما يترقب البشر في أمراضهم الطويلة الأمد قدوم العام الجديد. وبزوغ الفجر هو بداية العام الجديد بالنسبة للمقيمات في مشفى التوليد.

ما زالت النساء الثلاث يتمدّدن بلا نتيجة على أسرّة غرفة الولادة، مع أنهن لم ينقطعن عن التشبث يائسات بقضبان السرير كمن يعانين من الاختناق. يرقبن الساعة الجدارية بعيون محدّقة شاخصة، بعد أن أوضحوا لهنّ أن عقارب الساعة السوداء هي المنجاة والسلام. لقد أشارت لهن هذه العقارب كلّ خمس دقائق كأصابع قاضٍ متنفّذ يتمتع بسلطان يفوق الطبيعة. خمس دقائق: ويحين موعد الألم والصراخ، ويتدحرج جبل غاليرت إلى الغرفة ليستقر على بطن المرأة في مخاضها... ومع ذلك ليس هذا جبل غاليرت، بل القابلة القوية العضلات التي تعين المجهول الصغير في العثور على الطريق.

خمس دقائق... خمس دقائق... وكل دقيقة منها بدت عديدة بطول حياتين معاً. تلألأت الجباه بالعرق من المجهود الأعظمي المبذول من أجل الولادة. توسل بريق العيون يطلب الرحمة. كنوز الهند بأكملها لا تمنع المرأة في طلقها من النظر إلى الساعة.

صاحت الديكة مجدّداً - ساعة يهوذا على الأرض - هو وقت الطلق في غرفة الولادة حين النساء ذوات الجباه المتعرقة، والعيون الدامعة، ينتظرن مخلّصهنّ الصغير، متعبّدات.

انفتح الباب ودخلت إلى الغرفة مدام باكا نشطة، مرحة وهي المرأة التي سمع كثير من النساء عن وجودها في بودابست. كانت امرأة رشيقة، سمراء، ضئيلة القدّ، كثيراً ما تتبعها الشبان في ضاحية فرنتسڤاروش وهي بتنورتها البيضاء. تشبّثت النساء الولّادات بيدها كرمز للأعاجيب. القابلات القرويات المسنّات أيضاً يحملن في سلالهن العلم المخلّص من العذابات، وتنتقل أكفهنّ وخبرتهنّ، وخرافتهن الهادئة المؤكدة من جيل إلى جيل. لكن ما قيمة كلّ هذا قياساً بفنون هذه المرأة المستقيمة التي أنجبت إلى النور ما يقارب العشرة آلاف طفل بودابستي! كلّ امرئ يرى هالة، ويبحث عن أعجوبة على جبين الممرضة المعصوب بمنديل أبيض، لكن عيني المرأة في لحظة الولادة ترى التشجيع البارق من عيني القابلة مضاعفاً. كان لمدام باكا لمسة أخوية خاصة لن تنساها النساء البودابستيات حتى في شيخوختهن.

كانت النسوة تئنّ. عاينت مدام باكا النساء الثلاث خلال لحظات قليلة. عدّلت من وضع رؤوسهنّ، أسندت أرجلهن، رفعت جذوعهنّ. كانت أوجاعهن قد خفّت منذ أن وطئت المرأة ذات الكفين الباردتين، والوجه النقي، والتسريحة اللطيفة، أرض الغرفة.

- ألا تريد أيّ منكنّ أن تنال جائزة السيدات؟ - سألتهنّ بصوت جهير مبهج، كمعلمة تسأل تلاميذها.

وقفت مدام باكا وسط الغرفة كما لو أنها تقصّ حكاية.

- ذات يوم كان في إحدى العيادات طبيب يحضر سباقات الخيل على الدوام. كان شغوفاً بسباقات الخيل حتى إنه كان يعطي لمرضاه من النساء

توقعات الفوز. وكان يحمل حتى في جيب مريول غرفة العمليات تقويماً يحوي مواعيد سباقات الخيل، وإذا ما كفّت النساء عن التوجع، راح على الفور يبحث في كتابه هذا. لكن هذا الطبيب لم يكن ليذهب دائماً إلى سباق الخيل، ولا سيّما في المساء، ولهذا السبب لشدة شغفه بالخيل فقد أوجد جائزة السيدات، التي اعتادت الخيول والخيالة الفوز بها داخل ميدان السباق. أما هنا فستنالها من ستنجب أولاً في هذه الليلة. جائزة السيدات في المشفى هي الغرفة رقم سبعة وهي أميز، وأجمل وأحبّ الغرف هنا. سريرها من الفضة، مرآتها من الذهب، حتى قفلها مصنوع من المعدن النبيل. والآن من منكنّ ستربح هذه الجائزة في هذه الليلة؟

حين كانت مدام باكا تروي حكايتها، صمتت النساء المتوجعات للحظات. هزّت المرأة الطيبة رأسها مستنكرة وقالت:

- ألاحظ الآن أنكنّ «لا تعملن» خلال حديثي لكنّ. هيّا إلى «العمل». ضغط، دفع، شدّ على الأسنان، بذل كامل قواكن، وإلّا لن يأتي الطفل أبداً، والآن يجب عليَّ أن أذهب...

- لا، ليس الآن يا مدام باكا - صاحت النساء الثلاث.

لكن مدام باكا كانت تعرف ما عليها القيام به. تركتهنّ فعلاً، لكن لدقائق قليلة، فقد كان لديها ما تفعله عند تلك المرأة السمراء التي كانت آخر من جاء بها المسعفون في الليل...

استرجعت ناتاليا بعينين مطبقتين تلك الأيام التي أمضتها في قريتها مسقط رأسها كأسعد أيّام حياتها. ولمّا طلعت الشمس وأزاحت غشاوة الضباب، جلست في ركن فناء المنزل الصغير حيث أمكن لها رؤية المدى والوديان والغابات المزركشة كالحكايات التي تروى عنها في المنطقة... لمَ كانت سعيدة؟ كانت ناتاليا مخلوقة أبسط بكثير من أن تعرف الإجابة عن هذا السؤال. كانت سعيدة كعصفورة القرقف على فنن ذاوٍ.

وفي يوم جاء بالاتسكي وهنريك.

لو لم يأتِ ذلك اليوم! قام بالاتسكي بتقديم هنريك للعم إغناتش كزوج شرعي لناتاليا. وكان العم إغناتش فخوراً بالقرابة، قصّ لهما عصراً ما لا

يحصى من الحكايات عن قراباته وأسفاره العديدة، وعند المغيب انطلق القطار بهما مصطحبين ناتاليا إلى بودابست. أبدى بالاتسكي ملامح غاضبة جعلته أشبه بكلب البدلغ... لم ندعكِ تواجهين الفناء لأننا نحبّك - قال بالاتسكي. «من يدري؟ ترى هل كان من الأفضل عدم الاكتراث بالهاربة؟». قالت ناتاليا إنها ستهرب مجدّداً متى تسنّى لها ذلك. إنها لا تحبّ بودابست، وترغب في البقاء امرأة ريفية تمشي حافية في الصيف، وتطوف في حقول الكرمة. سوف تهرب.

وصلوا إلى بودابست، إلى بابل، إلى الضجيج، إلى بين الأبنية التي تستقبل المسافر بعدوانية وصلف، وتشعره بالغربة.

كان محظوراً على بالاتسكي (منذ عملية التهريب هذه) أن تطأ قدماه منزل بيلا التي صارت تصرّح علانية لمعارفها بأن بالاتسكي سيجفّ على حبل المشنقة.

إذن، كان الشاب البدين يُعلمها بالصفرات، وقذف النقود النحاسية أنه ينتظر في الشارع متخفّياً بياقته المرفوعة، وقبعته التي تحجب عينيه، لكن بيلا عرفته، فراحت من النافذة المجاورة تصبّ الماء القذر على السيد بالاتسكي. وعندئذٍ كان الشاب البدين يطلق الشتائم المقذعة، ويهدّد بالبوليس، و«الصحافة».

- تعاملت مع أشخاص أوغاد يفوقونك وضاعة - قالت بيلا- ذات مرة حاول يهوديان بولنديان قتلي من أجل مجوهراتي.

لكن بالاتسكي لم يهدأ. لاحقاً قفزت عيناه من محجريهما حين نظر إلى النافذة التي خمّن أن ناتاليا تقف وراءها. بعث لها الأخبار والورود مع بائعات الأزهار في الليل، وصدح كلّ فجر بالأغاني، ولم ينسَ نقمته إزاء السيدة بيلا. أرسل لها طروداً معبأة بالجرذان، والفئران، حتى أوشكت بيلا أن تعاني من المرض جرّاء هذه الطرود. لم يشأ بالاتسكي أن يغيب عن الذاكرة في شارع فرانك يارمياش وزوجته. راح يجترع مزيداً من الكحول ويتجوّل في الشارع ملوّحاً. أوقف مارةً غرباء، وسألهم بصوت عالٍ في أيّ منزل تقيم بيلا تلك «الشمطاء السيئة السمعة».

وتصيّد ذات مرة سيداً عجوزاً أصلع كان معروفاً وسط المدينة بسذاجته وبلاهته، وجعله يعتقد أن السيدة بيلا الميسورة مغرمة به منذ سنوات، وأنها بانتظار أن يتقدم بطلب يدها. لقد أقدم المعتوه على فعل ذلك...

وفي مرة أخرى أرسل إليها أشخاصاً يبيعون الكلاب الصغيرة، يعرضون على المرأة التي (تعشق الحيوانات) كلاباً قذرة عدوانية.

وفي محطة القطار الشرقية أعطى لبعض القادمين غرفاً للإيجار في بودابست. واتصل برجال الإطفاء يخبرهم أن حريقاً ينشب في منزل بيلا. وأمطرها بطلبات أوصى عليها باسمها، وبفواتير ضرائب، فاقتصرت أعمالها على الشتائم المقذعة التي وجهتها للسيد بالاتسكي اللعين.

لكن هذه المعاناة التي كابدتها السيدة بيلا، بلغت نهايتها ذات فجر يوم شتائي. انخرط بالاتسكي في مشاجرة في الحانة- طالما أحبّ الشجار تباهياً بشجاعته وقوته - وتمرّغ أرضاً. في تلك الفترة كان يخصّ امرأة شابة تدعى مارش بمديح وتكريم فائقين. في الوقت نفسه كان السيد بالاتسكي ينتمي إلى مدرسة العشاق القديمة التي ترتكز على تليين القلوب النسائية الممانعة، بتوجيه الإهانة وإيقاظ الغيرة بتكريم ومديح نساء أخريات. ولهذا السبب كان كلّ أسبوع تقريباً يبدّل النجمة بمجرد أن بات داخل مجال تأثيرها. دع القلب المعاند يتحطم! اصطحب المرأة الشابة مارش كغيرها من النساء إلى بودا القديمة حيث كان يستفيض بشروحاته لهنّ عن الشوارع والكنائس والحانات كما لو أنه من المسهمين في تأسيس المدينة. وكان على الأخصّ يصطحب صديقاته إلى أعراس الفتيات البرجوازيات في الكنائس ليثير غيرتهن هناك. هذه المرة أيضاً انخرط بصحبة مارش في الحفل على مقربة من المذبح كأنه من المقربين للعروس.

ثم ذهب بمارش إلى حانة مولين روجي حيث حصل الشجار. طعن بالاتسكي بسكين في صدره دفاعاً عن السيدة مارش. لم يبقَ لبالاتسكي من الوقت إلّا ما يوصله إلى شارع فرانك يارمياش وزوجته القريب، ضاغطاً بكفّه على صدره الكليم فوق منطقة القلب. رنّ جرس المدخل، وركل الباب برجله. لكن ناظر البناية لم يفتح. أطلق بالاتسكي صرخة بأعلى صوته.

صرخة بحنجرة مليئة، وفم مزبد، وعينين شاخصتين، مقتعداً العتبة كأنه يريد أن يكسب مصابيح الشارع لتكون شهوداً على أنه ضحية هذا المنزل. ليكن كلّ من يعبر هذه العتبة شاهداً على مصيره هنا. ليكن حبل المشنقة، أو السجن بانتظار من يؤمون هذه البيوت.

مطلقاً اللعنات ضرب العتبة بكفّه الدامية: فلتقطعْ سيقان كلّ نساء هذا الشارع، وليصبحن جذوعاً بلا أرجل تجلس فوق الكراسي والمقاعد، فلا يتمكنّ من الذهاب بأحذية ذات كعوب مطاطية إلى المواعيد لإفساد الرجال. ثم انفجر بالاتسكي المحتضر ببكاء مرير. كان بكاؤه أليماً متوسلاً جعل حتى القمر الهلالي يرتعش وراء الغيوم، وحتى أسطح المنازل الحزينة الدخانية الجهمة تنحني إلى الأمام على أثر عويله. ظهرت هنا وهناك بعض المصابيح في النوافذ كأضواء النيران التي يشعلونها على الضفاف تحية للسفينة الغارقة في البحر. لكن أحداً لم يجرؤ على الخروج لإنقاذ بالاتسكي لأن الجميع كان على معرفة بمشاعر ييلا. لقد فضّل سكان شارع يارمياش فرانك وزوجته أن يحظوا برحمة ييلا الحية، لا بكسب ودّ المحتضر. حتى المرأة الشابة مارش لم ترافق الرجل المضرّج بالدماء إلّا حتى زاوية الشارع، وما إن بدأ بكاءه التعيس والتأوّه على طريقة الأطفال، حتى انسلّت هاربة.

تخبّط بالاتسكي إذن وحيداً على العتبة. وعندئذٍ انتابه شيء من الوهن والكآبة والحزن كالوهن الذي يصيب المجرم العجوز في مقصورة النظارة قبل إعدامه. ربما مرّ بباله شريط من الصور المسرحية مع ممثلين ضخام الوجوه يلاقون حتفهم على خشبة المسرح. لعلّه شعر بأن ناتاليا تراه مذعورة وبقلب خفّاق من النافذة في الأعلى. نهض مستنداً على مرفقه ودعا من ماضيه شهوداً يشهدون له بأنه كان شخصاً محترماً على الدوام. وهكذا استرجع كلّ امرأة مجهولة (هناك في ميدان الرماية في غابة أونغفاري، حين كان شاباً)، بوسعها أن تشهد إلى جانب نزاهة المحتضر. واستحضر أيضاً للدفاع عنه كلّ امرأة محترمة، شريفة في بودابست، مشدّداً في الوقت نفسه على أنه ضحية سلوك النساء الفاجرات. وكلّما اقترب منه ظلّ الشبح، تسارعت كلماته اليائسة بصوت جهير مخاطبة الليلة الصماء، والمنازل الموصدة، ونور القمر العبوس. تسارعت كأنه يريد، وهو يدلي باعترافه الأخير أمام الكاهن

أن يحظى بالغفران هنا على الأرض. من يدري ما الذي سيكون هناك في الأعلى؟ أين سيغدو، وإلى أيّ وجهة سيمضون به، وينقلونه من هنا، من الشارع المضاء العارم بالحياة مع ذلك؟ ما أفظع أن يكون هناك في عزلة رهيبة، محاطاً بصمت مخيف! تسارعت كلماته مضطربة مرتعشة، ساردةً قصة حياته كمحكوم بالإعدام بات تحت المشنقة. تكلّم بشكل خاص عن أمه، «عن ضحية بريئة»، عن عاملة غسيل بائسة في منازل الأثرياء، تغسل وتنظف وتشطف القذارات، في حين كان ولدها الوغد يتأرجح بأرجوحته أمام المنزل. «أمّاه، أمّاه، هل بوسعك أن تغفري لي؟». مدّ يده نحو مئزر أمّه البالي الذي لو كان هنا حقّاً لجلب معه الراحة والسكينة كمنديل القديسة ڤيرونيكا. مدّ يده وقبّل يدها المتصدعة، وكفّها البائسة، ورجليها العاريتين، وكتفيها المحنيتين، وقلبها الواهن الموجوع. قبّل أمّه التي لم يحبّ أحداً سواها طوال حياته.

بدأ الثلج يتساقط. كانت السماء صفراء شاحبة، كأنه وقت الأصيل أو انبزاغ الفجر. اصطفّت مصابيح الشارع بأنوارها كرهبان مقنعين يرافقون أمواتاً، لكن بالاتسكي لم يكن يريد الانطلاق بعد. جاء الثلج صاخباً كسرب من الطيور. سرعان ما غطّت ندف الثلج أسطح المنازل، وبدأت المدينة تكتسي بلون البراءة، كما لو أن هذه اللحظة هي بداية العالم اللطيف الجديد، والحياة العاطفية التي تدل على بالاتسكي أن يخرج منها. ما أجمل ما ستكونه الحياة هنا بعد هذه اللحظة، ما أجمل الصباحات الشتائية بزغبها الأبيض المدهش. ما أجمل كلّ شيء هنا. الثلج يندف على قبعات النساء، ويفرقع على رؤوس عابري السبيل. مصباح الواجهات. شواء الكستناء ودخانه. الموسيقا الصادحة المنبعثة من المقهى. الناس الحمر الآذان...

بدأ بالاتسكي يساوم الموت.

فليدعه الموت يشفى هذه المرة، وبعدها سيكون شخصاً طيباً على الدوام. لو يتمكن من العيش سنة واحدة فقط ليسوّي كلّ ما أفسده، ويقوّم كلّ اعوجاجاته. كم سيكون حسن السلوك كعهده أيّام طفولته حين شكل على قبعته زهرة الثلج، واستيقظ فجراً لكي لا يتأخر عن القداس، ورشّ العطر في الكنيسة. يودّ لو يعيش طفولته مجدّداً (تلك السنوات التي تهدى إليه من

العليّ المجهول)، لو يطوف في تلك المدن التي شهدت على سعادته في صباه، ويزور أولئك الأشخاص الهرمين (أو قبورهم) الذين عاملوه بطيبة. آه ما أشدّ اخضرار أشجار الصنوبر، وما أشدّ احمرار الخمائل والبروج، وما أشدّ زرقة المدن هناك في نواحي بوبراد فيلكا البعيدة!

ثم طلب من الغامض اللامرئي أن يتيح له في هذا الشتاء أن يمشي كلّ عصر في شوارع بودا الجبلية، أو في الدروب الأسطورية المحيطة بغوطة المدينة... في شوارع أبوني حيث الحدائق نظيفة كذلك، والنوافذ بحيث لا يقيم وراءها إلّا بشر سعداء، حيث وقت العصر أزرق، والدخان ينطوي على الأسطح كذيل القطة الأبيض، حيث أنوف الناس حمراء، ونساء أنيقات نبيلات ممن يعشن إلى الأبد يمشين في غوطة المدينة على الجليد بالجزمات اللماعة القصيرة السيقان، والقبعات الموسكوية، وهنّ فوق الزلاجات الفضية... وعليه هو أن يموت هنا.

حسناً: سيموت لكنه يودّ لو يعيش هذا الخريف، وأول شهر من الشتاء، ليتسكّع في الليالي المطيرة تحت المصابيح، أو في شوارع بودا العتيقة حيث الجميع نيام، ويتحتّم إشعال أعواد الثقاب كي يتمكن المتشرد من رؤية أسماء الشوارع.

غطّى الثلج الشارع كثيفاً، حتى جعله ذا بياض عذري كأن الأقدام المذنبة الخطّاءة لم تطأه قط. قرفص بالاتسكي على العتبة وراح يشاهد يائساً كيف ينزف دمه فوق الثلج الأبيض. تأوّه بصوت أعلى فأعلى.

- سأكون خادم كنيسة من الآن فصاعداً - صاح بالاتسكي بمرارة - حتى لو في بودا العتيقة، في ڤيزي ڤاروش... في فاسرشتات... لكن لو مهلة أسبوع فقط...

لكن الديك الذي احتفظت به السيدة بيلا في المطبخ (لأنها لم تأتمن للساعات في المدينة)، صاح ثلاث مرات.

وعندئذٍ نظر بالاتسكي حوله كمن خسر المعركة.

تثاقلت أنفاسه، وصار يلهث، وسقط على رأسه كأرنب أصيب بطلقة.

انفتح باب المدخل بهدوء. خرجت السيدة بيلا بثوب النوم، تحمل منديلاً كبيراً، يتبعها ناظر البناية بالمصباح.

- أيّها المجنون - قالت بيلا بصوت مؤثر - لا تمت هنا أمام المدخل، لأن الناس سيعتقدون أنك قُتلت هنا.

ثم حملاه من تحت إبطيه، وأوقفاه على قدميه، وجرّاه عن العتبة نحو ركن الشارع، حيث أجلساه على كومة من الحجارة وجدت هناك لكي تكون سبباً لشتائم السكارى.

لم ينبس بالاتسكي بحرف خلال ذلك، ولا فيما بعد. اكتفى بإحناء رأسه حزيناً واهن القوى، كصقر بين ذراعي الصياد.

أمرت السيدة بيلا ناظر البناية المكشّر الأسنان أن يقوم بجرف الثلج من أمام المنزل. أما ناتاليا، بعد أن باتت لا ترى بالاتسكي، فتجرّأت الآن على فتح النافذة الطابقية، وراحت تشاهد سقوط الثلج.

- أمّاه!- انبعث من مكان ما صوت مخنوق جاء من بعيد.

كان على النافذة كأس تحوي وردة ذابلة، قامت ناتاليا فجأة برميها إلى الشارع، في الثلج كأنها تمارس طقساً سريّاً.

... والآن على نحو فجائي سرى في كامل جسد ناتاليا ألم ممزّق، مثير. صحت على مدام باكاي تنحني عليها بوجه ضاحك، ضاغطة على خديها بكفّين كرغيفي خبز. تبرز ضفائر مدام باكاي الطيبة من تحت عصابة رأسها، تضحك، تقول بصوت رنّان:

- فزنا بجائزة السيدات!

ثم في غرفة الولادة صرخ صوت مجهول لم يسمع من قبل. بعد هذا الصوت القادم من العالم الآخر، سرعان ما شعرت ناتاليا براحة لا حدود لها. كان هذا صوت ڤينوس ذات الشعر المزدان بالكورال، وهي تخرج إلى العالم في صدفة زهرية، ذات فجر ذي لون ياقوتي في خليج بحري أزرق. وعلى الفور أمرت ڤينوس كلّ ما كان حتى الآن يمزق أحشاء ناتاليا، بالراحة، والتوقف: ردعت صاحب الأنف المنشاري، النجمة الناتئة، صاحب الرأس المثقبي، وكل ما كان حتى الآن يمزق أحشاء ناتاليا، ويقوم بطعنها ونشرها وثقبها. تلاشى هيجان القاع البحري. عادت الطبقات المزلزلة والمرتفعات والوديان إلى مواضعها. تلألأ البحر وهّاجاً بألوان القبة السماوية.

– بنت! – صاحت مدام باكاي من فوق أنبوب الماء المترقرق المتلألئ. التقطت براحتها الطفلة الحمراء البشرة الفاغرة الفم بعد الحمّام الأول. استلقت القادمة الصغيرة على راحتي القابلة كما على عرش ملكي. رمقها جميع من في غرفة الولادة. المرأتان اللتان في حالة المخاض نسيتا أوجاعهما. أضاء وجه الأم كأن نوراً استثنائيّاً غمر الوجنات التي عانت كثيراً. انتصبت القابلة عارمة بشعور الانتصار كالملاك الذي يساعد مخلّص العالم الجديد في قدومه إلى العالم. ورأت كلّ عين هناك هالة حول وجه المولودة الصغيرة ذات الجسد الناعم الرقيق، والشعر المائل إلى الحمرة.

ها هو ذا الطفل: غاية الحياة.

جاء من شواطئ البحار البعيدة التي لم ترها عين إنسان، حيث من تلاطم الأمواج تنبعث أغنية وتصدح في القيثارات، وتسافر بجعات غير مرئية في أعالي قبة السماء ملقيةً بوشاح أنغامها الحورية فوق البحر، ويدلّي قديسون أقدامهم من نور القمر الطالع. في مكان ما هنا سلسلة جبال الطيور، من حيث تطير الأرواح الجديدة نحو الأرض البعيدة، وإلى حيث تعود الأرواح التي أنجزت مهامها. أو ربما جاءت المولودة من مجاري الأنهار حيث ترمق النجوم أعينها البراقة في المياه العميقة، ويطنّ الصمت في الغابات، وتقف الغيوم فوق الغابات، لتتمرغ بالتربة. هنا في مكان ما تنتصب شجرة الحياة وسط الغابة الشاسعة، وأوراقها لا تحصى ولا تعدّ. هذه الأوراق الرقيقة، والأزهار، والبذور، والإبر، والزغب كلّها تتساقط من الشجرة الكبيرة، لتسافر على ظهر المجرى الجريح إلى الأرياف التي يقطنها البشر، جالبة معها ضوء النجوم، وغبار طلع البراءة، وصوت اللقلق من المجاري البعيدة.

وربما جاءت من وراء الغيوم حيث لا يصل النظر، حيث يغفو قوس القزح وراء الستائر الخضراء البحرية، من حيث لا تسمع الرعود قادمة إلينا بصوتها البعيد، والبروق ليست سوى لهب عود ثقاب. حيث الغيوم معفرة بأشعة النجوم، وضوء الشمس، في طزاجة الأبدية، في موطن الضوء الأبدي، حيث تقيم الروح في عالم الروعة، والصفاء، وترى بنورها كلّ شيء دونما استثناء: أدقّ ذرة غبار، أوراق الشجر الميتة، الرضيع الفاغر فمه، حيث حتى الرياح تمشي على رؤوس أصابع قدميها، وأنغام الأراغن البحرية وفلوتات

الغابات، وقيثارات الجبال، وكمانات فصول الربيع الحية، ونايات فصول الخريف الحزينة: كلّها أنغام جوقة موسيقية بعيدة. يسمّونها السماء، ويبني القديسون بيوتاً صغيرة لهم في نجومها، حيث يقيمون هناك بمهابة بحللهم الحمراء والزرقاء، ولحاهم الشقراء، وجباههم البيضاء... ربما من هناك جاءت الطفلة ذات ليلة فريدة.

والآن تبدأ طريقها فوق الأرض التي يطؤها كلّ واحد لنفسه، ويسعى فيها وحيداً مهما صادف في طريقه من أصدقاء، وشركاء مصير. وفي نهاية المطاف سيقف حفار قبره مستنداً إلى ذراع رفشه يدخن غليونه بهدوء. هي تملك وقتاً للانتظار. لكن ما الذي سيحدث إلى أن تترنح الطفلة كعجوز محدودبة، بين يدي حفار القبور، وعلى ظهرها كوم من الأعباء، والهموم؟ هل تراها في شيخوختها ستلتفت إلى الوراء مسترجعة ماضياً سعيداً، وطريقاً حياتيّاً وارفاً تدلت على جانبيه الأشجار المثمرة، وأقيم في جانب منه منزل صغير هادئ يحيط به سياج أخضر من أمان، جدرانه مباركة، ورائحة عطر الورد تفوح في غرفه في الأيام الخريفية؟ أم ستظلّ حياة التشرد باقية وراء ظهرها كخرقة حمراء مشلوحة على الطريق العام؟ هل تخيّم أغصان التعاسة وتفحّ في الليل فوق سطح المنزل، أم تتفتح أزهار منسية سعيدة أمام النافذة؟ إلى أين وأيّ الوجهات ستتخذ هذه الأقدام الصغيرة؟ هل ستتساقط على الرأس الصغير المعصوب بأزهار التفاح البيضاء، أم سيسقط عليه نور القمر شبيهاً ببكاء أليم في ليالي الأرق؟ أستتمنى فيما بعد أن تطير في الخريف مع الغربان المهاجرة؟ أسوف تستطيع النهوض بقلب طليق من قيودها وخنوعها وهي في سفينة الكنيسة؟ ألن تتجول متأوّهة مع الريح في المقبرة حيث ستفتش فيما بعد عن قبر أمّها؟ هل سترى وجهها مبتسماً في صفحة مياه النهر، هل سيرنّ الفرح في صوتها، وتأتلق الجنّة في عينيها حين تدقّ الساعة التي في الزاوية معلنة ساعة الموت؟

كل هذا الأفكار عبرت قلب الأم وعقلها، حين ضمّت طفلتها إليها، وقلبها إلى قلبها، وشفتيها إلى شفتيها، وعينيها إلى عينيها. إنها القبلة التي لأجلها عانت ناتاليا ما عانته. لأجل هذه القبلة السعيدة تركها القدر على قيد الحياة. هذه القبلة التي منحتها لطفلتها، كانت كلّ ثروتها على الأرض.

وبعد القبلة، والعناق، بدأت تغفو بخفوت. عبثاً حاولوا إيقاظها، عبثاً حضر الأطباء بمعاطفهم البيضاء، لقد أطبقت رموش ناتاليا، وتخدر رأسها، وزاغ بصرها، ورفض لسانها طواعيته. لم تتمكن إلّا من مدّ ذراعيها نحو طفلتها وكأنها تباركها وهي تحتضر.

خرج يانوش سيفرا و«حلُم» بعيون دامعة إلى الشارع.

كان الفجر قد طلع. انتصب برج ساحة باكاتش مضاءً وسط الساحة، كسلّم الأرواح. هبّت الريح باكية حول جدران الكنيسة. بقيت مشفى التوليد بنوافذها البيضاء وستائرها ومصابيحها في الساحة كطاحونة الحياة حيث يستمر العمل دونما انقطاع.

لم يلاحظ متعهد الدفن أنه وحيد. تبخّر صديقه الليلي من جانبه عند بزوغ الفجر من دون وداع. كأن «حلُم» دخل إلى قلب ضاحية فرنتسڤاروش، متوغّلاً في أزقتها حيث تنزوي هنا بيوت الأجرة. كأن وقع خطى سمع من شارع كينيجي! لكن متعهد الدفن لم يصادف أحداً في الشارع. أحدهم سعل الآن في شارع ماتياش. لم تكن سوى الريح التي أيقظت ديك الرياح.

عاد متعهد الدفن إلى المشفى منهكاً يمسح جبينه. رنّ الجرس، وبحث عن مدام باكاي.

- البنت التي ولدت سوف أتبنّاها - أعلن يانوش سيفرا تلقائيّاً، وعلى غير توقع - أنا من سيدفن أمّها التي ماتت.

نظر حوله إن كان «حلُم» يقف إلى جانبه. وإذا ما كان الغريب الغامض سوف يستهجن كلامه؟

صفّر في شارع مجاور شبح جاء متأخراً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

الفصل الأول 5
وفيه رجل مسالم يقاوم.

الفصل الثاني 9
وفيه يدفع الشيطانُ متعهدَ الدفن للانخراط في حفل الزفاف.

الفصل الثالث 21
وفيه تفتل الكعوب، يصدح حفل الزفاف، يهتف المزاج، ومتعهد الدفن يحيّي الزوجين الشابين.

الفصل الرابع 35
وفيه يمرّ متعهد الدفن في شارع (فرانك يارمياش وزوجته).

الفصل الخامس 43
وفيه يلتقي المواطن المسالم بـ «حلم».

الفصل السادس..... 53
وفيه: المرأة ذات الثلاثة آلاف عام تعامل الرجل العجوز المذنب كما يستحق.

الفصل السابع 67
وفيه تتبدل السيدات، والسادة كأوراق الشدة

الفصل الثامن 87
وفيه ظبيتان من باكوني تتجولان في بست

الفصل التاسع 99
وفيه يبدأ دوبلي قصته.

الفصل العاشر 111
وفيه ينهي السيد دوبلي قصته.

الفصل الحادي عشر 131
وفيه تخرج بنت صغيرة إلى العالم.

الفصل الثاني عشر 151
وفيه يخطو الطفل الأحمق خطوات جديدة لبلوغ هذا العالم الحزين.

الفصل الثالث عشر 169
وفيه ينال بطلنا جائزة النساء، لكنه يخسر أعزّ ما كان لديه منذ أن تمتّع بالإدراك. وبعد هذه الخسارة التي لا تعوض، لم يعد هناك من مغزى لمتابعة القصة.

الشيطان الذي يتسيّد فوق العالم بأسره، جاء ذات يوم إلى بست، ووجد مخبأً في منزل متعهد دفن الموتى.

وبعد الظهيرة لاحظ المتعهد أن شيئاً في البيت ليس على ما يرام. بدأت مفروشات المنزل تبدي ممانعة؛ فلم يطاوعه الكرسي الذي حاول أن يضعه في مكانه المعتاد منذ خمسة عشر عاماً، ورفضت أقفال الخزائن والدروج أن تقوم بالخدمة الموكلة إليها. واشرأبّ جانب النافذة الكرسيُّ الصغير (الذي اعتادت زوجة المتعهد طوال حياتها، أن تمدّد عليه رجليها، عندما كان لها رجلان) وتسرح ذابلة في فناء الأزهار الكئيب وجدرانه الحزينة وسياجه المهجور. اشرأبّ الكرسي كما يشب على قوائمه كلب كان مستلقياً، ويشرئبّ على ساقي عابر السبيل. وتدلّت ستائر الدانتيل القديمة بلا معنى على النوافذ، وألقت ظلًّا شبحيّاً في الغرفة. كان ظلًّا أشبه بظلّ دخان، أو ظلّ رياح تهبّ فوق الحقول. ولكن لا أثر هنا لدخان أو رياح. الجهامة التي خيّمت على المنزل في ذلك الوقت الباكر من فترة العصر، أربكت البيغاء الذي وضعه متعهد الدفن في قفص، وكان فخوراً بمعلوماته الإنكليزية. أول ما فعله البيغاء في هذه الجهامة أنه راح يطلق الشتائم باللغة الإنكليزية، ثم أخذ يقلّد بكاء الأطفال، ولاحقاً، وسط ذهول المتعهد، راح يتكلم باللغة المجرية: نطق أسماء كان قد سمعها في السابق، وحفظها، ذكر البيغاء أسماء خادمات حافيات سابقات، وهو ينفش ريشه، ويؤرجح نفسه باضطراب يمنةً ويسرةً. ذكر اسم بيرتا، واسم أولغا اللتين مثلتا سابقاً الجنس النسائي في منزل المتعهد، وكانتا تسرحان شعرهما الطويل وتجلسان حول الطاولة، وتضربان وتنفضان الوسادة قبل النوم؛ امرأتان كانت تنانيرهما المتيبّمة في الخزانة، تحتفظ برائحة نسائية نوعية، رائحة الباذنجان والطحين، وعبير المسك. أنذر متعهد الدفن البيغاء أنه سيصفعه، ونظر بارتباك إلى عقرب ساعته الذي راحت يد خفيّة تديره إلى الأمام. لم يبقَ لديه سوى قليل من الوقت ليبدّل ملابسه ويذهب إلى المآتم وقت العصر.

telegram @soramnqraa